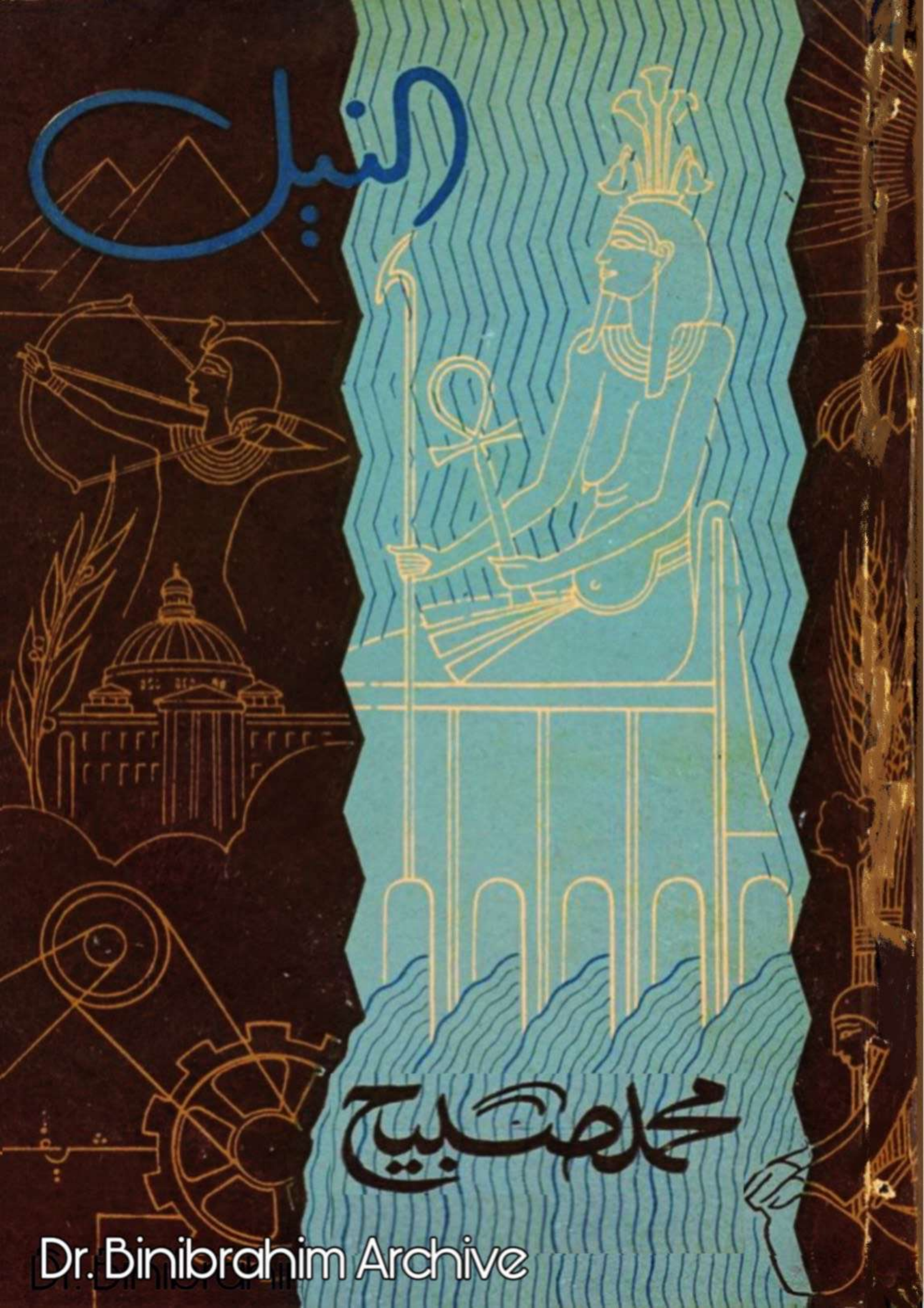
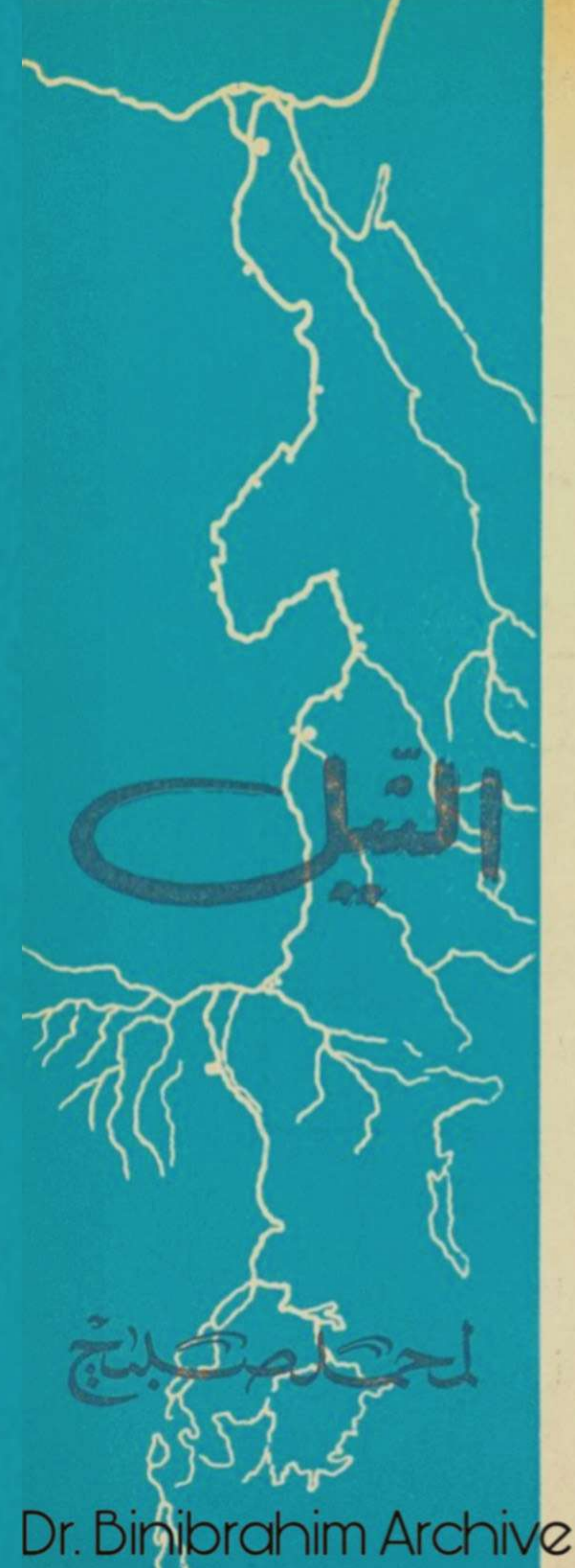

النيل
محمد صبيح

دار الثقافة العامة

تقدم



الثمن ٢٥ م

سلسلة المذاهب والشعوب

تصدرها دار الثقافة العامة

ص . ب رقم ٩١٥ ــ القاهرة

■■■■■■

إلى مقام صاحب الجلالة الملك المعظم

فاروق الأول

مولاي ...

.. هذا كتاب عن حياة مصر الحديثة ، على ضفاف النيل

يصور آمالها في وحدة شعب قديم ، يربطه نهر عظيم ،

وتاج كريم ، كما يصور آلامها وذكرياتها التي ستظل

وما تزال ، لكي تعود هذه الوحدة كما كانت ، حقيقة واقعة

تعنو لها جبهة الزمن ، وتذعن لها حوادث الدنيا ...

فهل تأذن لي ، يا مولاي ، بأن أرفع الى

مقامكم هذا الكتاب الذي أعددته ، هو وطائفة الكتب الأخرى

التي أصدرتها ، ثمرة من ثمرات الحياة القومية الجديدة التي

بعثتموها في صدور أبناء النيل ؟

إني أرجو أن ينال كتابي هذا رضاكم وحسن القبول .

خادم عرشكم

محمد صبيح

القاهرة في ٢٠ شعبان سنة ١٣٦٤

١ أغسطس سنة ١٩٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

النيل — هذا هو اسم الكتاب . وعند ماوضعته فى قائمة هذه السلسلة ، قال لى صديق من المشتغلين بشؤون الطباعة والنشر : هلا غيرت اسم الكتاب ، فقد يحسبه القراء كتاب « جغرافيا » فيعرضون عنه ، فامسكت القلم وكتبت : النيل .. « ليس كتاب جغرافيا !! » وقرأها صاحبى وتبسم راضياً ، فقد أصبح كل شىء بخير ، مادام شبح « الجغرافيا » قد نأى عن أعين القراء ومادامت أجف ذكرياتهم المدرسية ستظل بعيدة عنهم ، لا تؤذى مزاجهم ولا تقلق بالهم .

ولقيت صديقاً آخر من المشتغلين بشؤون الرى فى وزارة الأشغال ، وقلت له وهو يتصفح كتابى الماضى عن « روسيا » : سيكون كتابى القادم عن النيل . وتريثت حتى أرى كيف يهش ، ويقبل على ماسمع ، فالنيل هو مادة عمله ، وسيسره من غير شك — أو هكذا قدرت — أن أضيف عنه كتاباً إلى مكتبته . ولكن صاحبى هذا تردد ، ثم تجهم ، ثم قرر أن يخلص لى النصيحة ، وهى أن أغير اسم الكتاب ، فما بالناس حاجة إلى مزيد من « الجغرافيا » ، وما لديهم منها يكفيهم وزيادة . ولكنى قلبت صفحات ، وأشرت إلى اسم الكتاب ، وتحته التأكيد ، وكدت أضيف ايمانا مغلظة ، ومواثيق مؤكدة ، أن بين « الجغرافيا » وبين كتابى عن النيل سداً منيعاً . وفرح صاحبى واطمأن إلى أنى إذن سأكتب لقراء ، وأتحدث إلى سامعين يحسنون الاصغاء .

— ٥ —

ولما خلوت إلى نفسي، عجبت من كل هذا البغض الذي يدخره الناس « للجغرافيا » وحمدت للدكتور عوض جلادته وصلابته، فهو يحمل على عاتقه منذ خمسة عشر عاما، كتابا طويلا عريضا عن جغرافية النيل، ولما يتقوس ظهره بعد تحت هذا العبء الفادح. ولكني مع هذا عدت أسأل نفسي: هل تكره كل الشعوب علم الجغرافيا، كما نكرهه في مصر؟ وهل تستقبل المؤلفات عن معالم الأرض الشهيرة بمثل هذا الاحساس الذي شاع من حولي وأنا أذيع أني سأكتب عن النيل، وكأني أخاطر بمكانتي بين حملة الأقلام أياً كانت؟

لقد صح لي منذ عشر سنين أن علمت أن الكاتب الالماني الشهير « اميل لدفج » أخذ يصدر كتابه عن « النيل » الذي سجل فيه مشاهداته وهو يجتاز النهر العظيم من أقصى منابعه إلى نهاية مصبه، ولشد مادهشت عندما علمت أن الاستاذ العقاد لم ينتظر حتى يصدر الكتاب، بل طلب من الناشر للطبعة الانجليزية — فكتب لدفج تصدر بثلاث لغات في وقت واحد — أن يرسل له « ملازم » الكتاب بالبريد الهوائي أولا بأول. وقد كلفته مطالعة « النيل » بهذه الطريقة عشرة أضعاف ثمنه، ومع هذا كان راضيا كل الرضى، فقد استطاب متعة القراءة العاجلة لموضوع يمس مصر، أو هو مصر نفسها، وهي متعة عقلية مجدية تستحق كل هذه اللهفة على اقتناصها. ولما صدر كتاب « لدفج » وجدته انقسم إلى جزئين ضخمين إذا ترجما إلى العربية زادا على ألف صفحة ولكن أحداً لم يفكر في الترجمة، حتى لا تلحق مجهوده لعنة « الجغرافيا » وليغفر لي أساتذة هذا العلم اجترائي، فأنا أعبر عن رأي الكافة. ولكني مع هذا استطيع أن أؤكد أن كتاب « لدفج » لم يرتد اليه أكداساً، يعلوها تراب المخازن. فقد نفدت نسخه، وقرأها كثيرون باللغة الألمانية، وباللغة الفرنسية، وباللغة الانجليزية.. وربما بلغات أخرى. وأرجو ألا يتعجل أحد فيتهم قراء هذه اللغات بفساد الذوق، لأنهم يطالعون جغرافيا، ويطالعون عن نهر لا يجري في بلادهم، ولا تقوم عليه حياتهم.. يطالعون عن نهر النيل الذي تقوم عليه حياة مصر والسودان وأجزاء أخرى من أفريقية.

ومعاذ الله أن يكون قصدى أن أحبب الجغرافيا إلى النــاس ، أو أن أستدرجهم والقى عليهم دروساً فى هذا العلم ، فما إلى هذا قصدت، وهذا أخلق بالأساتذة المتخصصين وفى مصر منهم فحول افذاذ . وإنى صادق عند ما أقول لـكم إن كتابى عن النيل سيشير — من بعيد — إلى مسائل يجب على كل « مصرى » أن يعرفها كما يعرف اسمه، وإلى برامج ينبغى أن تـكون عقائدنا الوطنية الجديدة ، وأن نبنى عليها سياسة المستقبل كله.

قصصت فى كتابى عن « روسيا » قصة خزان الدنيبر الذى انشأه ستالين ليمد روسيا بمليون حصان كهربائى ، وينظم رى مساحات هائلة من أرض أوكرانيا ، وييسر الملاحة فى هــذا النهر الجموح . وقلت إن ستالين قبل أن يشرع فى العمل ، أخذ يفهم مواطنيه قصة خزانهم الجديد وأخذ يلح عليهم فى الشرح والبيان ، حتى أصبح حديث كل رجل وكل امرأة وكل طفل فى روسيا ، وحتى أصبح الخزان بطلا شعبياً يمجــده الروسيون كما يمجد الأنبيــاء وعظماء التاريخ . وقد بدأت ميزانية المشروع تتضخم بملاليم التلاميذ وقروش العمال . وهكذا « كهرب » حديث الخزان شعب روســيا قبل أن يوضع فى أساسه حجر واحد .

وما أحوجنا نحن إلى أن نستعيد هذا الأسلوب ، وأن نحول نيلنــا العظيم الجميل الوديع إلى بطل شعبى ، نحنو عليه كما يحنو علينا ، وتخفق قلوبنا بحبه بقدر مايدفع دماء الحياة حارة فى قلوبنا بمائه الحلو ، وميقاته المنظم .. ما أحوجنا إلى أن « نغار » على نيلنا كما نغار على أعراضنا ، وأن نقدم له من « الخدمات » مايحتاج اليه جزاء خــدماته لهذا الشعب ..

النيل جريح يئن ويشكو .. فى جسده ثقوب كثيرة جداً تتفجر منهــا مياهه ، وهى عزيزة عليه كعزة الدماء فى عروق الأحياء . فعند منبعه ، عند بحر الجبل ، تتدفق سيول من هذه المياه تغمر ٢٥ مليون فدان من الأرض ، ولو أن هذا الجرح التأم بحائط أو بخليج جديد ، إذن لما ضاع هذا الماء العظيم الذى تدخره لنا بحيراتنا الهائلة على خط

الاستواء وتظل شهوراً تجمع الماء من أفواه السماء لكى يتبدد قبل أن يشهد الناس و يشهدونه . وعند مصب النيل جرحان عظيمان يتدفق منهما ماء الحبشة الشرقى ، فى أيام الفيضان ، وما أحوج صحارينا الظمأى إلى نصيب من هذه الثروة المبددة ، من هذا التبر الأسمر ، الذى نغرقه كل عام فى البحر المتوسط ، كأننا جيل من السفهاء يضيع نعم الله وميراث الأجيال، شر ضياع .

لو أننا أحببنا نيلنا ، لنفخنا فى حفلة « وفائه » كل عام روحا شعبية قومية جياشة بالحياة، نتذاكر فيها هذا الوفاء كيف كان، ونتواصى فيها بواجبنا حيال النيل وكيف يكون.

لقد تحدثت مع بعض رجال «الأشغال» ومع غيرهم من المشرفين على شؤوننا العامة فعجبوا لاجترائى على التحديق فى « قدس » الهندسة ، وكل جارحة فيهم تكاد تقول « دعونا نعمل فى هدوء» . وليس أحب الينا من أن نترك الفنيين فى عزلتهم الفاخرة التى ينشدونها ، لو أننا كنا نعيش قبل قرن أو نصف قرن من الزمان عند ما كانت أجهزة الحكم تشبه كتب العلم فى أيام الكهنوت الأول، لايقاربها ولا يمسها إلا خاصة الخاصة!! أما اليوم فقد تبدل الأمر ، واصبح « الفضول » من خلق الشعوب الأصيلة ، بل كلما ازداد نصيب الشعوب من الفضول كلما ارتقت فى سلم الرقى درجات .

وحرام على رجال «الأشغال» أن يحبسوا النيل وآلامه وآماله فى ملفاتهم الضخمة.. حرام ألا يعرف « رجل الشارع » من أمر نيله شيئا غير جرعة الماء التى يرتوى بها ، وجرعات الماء التى يروى بها حقله . فربما كانت اطماعه أوسع ، وربما كانت رغباته أقوى لو أنه عرف من أمر هذا الماء ، هبة السماء ، كل ما يجب أن يعرف .

لقد أصبحت كلمات اسوان وسنار وجبل الأولياء وطانا والبرت ، ألغازاً مغلقة ، يمر عليها القارىء العادى فى الصحف على عجل، كما يمر على أمور لا تهمه ولا تعنيه..

ونشأ عن هذه العزلة بين رجال الأشغال و بين الشعب الذى لا تبسط له علوم النيل، ولا تحبب إلى قلبه ، الكثير من الأضاحيك والفكاهات والقصص التى تصور عجزه حيال

« طقوس » الهندسة ، وكلما مرت أمام ناظريه ملايين الجنيهات التى تنفقها الحكومة سنويا هز كتفيه وانصرف عنها .. وقص على واحد قصة تصور فهم الناس لوزارة الأشغال قبل أن يوجد البرلمان وتحقق رقابته على الميزانية قال : وفد إلى مصر قبل الحرب العظمى الماضية موظف أجنبى سمع أن هذه البلاد بلاد الرشوة ، وقرر أن يلج هذا الباب المفتوح للثراء يغرف منه حفانا ، ثم يعود إلى بلاده . وكما كان يصنع بالاجانب قديماً ، عين فى منصب كبير ، وعين له سكرتيرون وكتاب . ولما اطمأن على كرسيه دق الجرس ، فخف إليه سكرتيره .. سأله عن قصة الرشاوى فى مصر ، وأفهمه أنه يريد نصيباً عاجلا منها ، فقال السكرتير هذا يسير ، ودون أن يفكر اقترح بناء استراحة رى فى بنى سويف ، فوافقه الاجنبى ، وعملت الرسوم والمناقصة ، ورست على مقاول معين وقبض صاحبنا مبلغاً طيباً ، ثم توالت الطلبات لاستراحة بنى سويف من أسرة وكراسى وغيرها . ومضى عام وعام ، قنع فيه الأجنبى بما وصل اليه ورحل وحل آخر محله ، فخطر له أن يسافر إلى الوجه القبلى لكى يعاين « الاستراحات » وكان مشوقا بصفة خاصة لأن يرى استراحة بنى سويف التى انفقت على زخرفتها وتجميلها مبالغ طائلة حتى لكأنها احد القصور ، فلما وصل إلى المدينة سأل عن استراحتها ، فلم يجد فيها استراحة . وظهر أن المناقصة والتصميمات والاعتمادات التى صرفت كانت كلها على الورق ! !

وقد تكون هذه القصة غير صحيحة ، بل هى من خيال بعض المتندرين ، وأصحاب الفكاهة ، ولكنى أخشى إذا طال الأمر بوزارة الأشغال على سلوكها الحالى خيال الشعب أن يأتى وقت يصبح فيه خزان أسوان نفسه ، أسطورة مثل استراحة « بنى سويف » .

ولقد حاولت وسأحاول أن أيسر ألغاز « الأشغال » للفهم ، وأن أقرب شؤون النيل للناس ، وأن أجعل منه بطلا شعبياً يحس به الشعب ، كما كان القدماء يحسون به فى أيام وثنيتهم حتى عبدوه .

— ٢ —

قلت انني لم أكتب كتابي هذا عن النيل لأدرس المناخ والجيولوجيا ، فلم يكن شيء من هذا مطلقا الذي أوحى لي بفكرته . ولكن حدث في خلال الأعوام الخمسة الماضية أن وجدت وقت فراغ طويل ، مكنني من قراءة الكثير من الكتب التي حالت ضخامتها دون أن أتمكن من قراءتها قبل الحرب . وكان من بينها كتاب « مديرية خط الاستواء » لسمو الأمير عمر طوسون. وقد أدهشني أن هذا الكتاب كان عندي ، وأني تصفحته على عجل ، ولكني لم أتبين تماماً فائدته العظيمة ، وما حواه من ذخائر العلم التي لا تقدر بثمن . وحسب هذا الكتاب ، أنه عرفني إلى شخصية « حواش افندي !! » .. أجل شخصية الضابط المصري حواش افندي منتصر ، الذي عاش مع مئات من المصريين عند البحيرات الاستوائية سنوات طويلة من آخر القرن الماضي ، ومثلوا شعب مصر وتاج مصر ، حتى أذنت ظروف البلاد السيئة بأن تستدعيهم حكومتهم وتمحو سيادة مصر من معظم هذه الأصقاع ..

لقد حملني « حواش افندي » ، ولتقبل هذا الاسم على علاته ، وأرجو أن تألفه وأن تحبه كما أحببته .. حملني على أن أتقصى سير بعض هؤلاء الجنود المجهولين الذين أحبوا النيل فأحبهم ، والذين أراقوا دماءهم ، وقضوا زهرة شبابهم وربيع عمرهم يجوسون حول ضفتيه ، ويشقون بنكران جهودهم ، ويسعدون بأداء واجبهم ، ويتألمون وتبكى دموعهم وقلوبهم لفرط اعيائهم ولفرط اهمالهم، حتى اختلطت مياه النهر بدمهم و بدمعهم وحتى لم أعد استطيع وأنا أحدق في مياه النهر أن أفر من صورة « حواش افندي » ، وأصحابه وهي تتراءى على الصفحة الوضاءة اللينة .. صفحة النيل وهي تنساب أمام النظر .

ومنذ قدمني كتاب الأمير إلى حواش افندي ، أخذت أتابع القراءة في هذا الباب،

وأتتبع سلسلة الجهود المصرية العريقة التى بذلت لبناء وحدة النيل ، ومالبثت أن عثرت على شخصية أخرى سبقت وعاصرت شخصية الاستوائى المصرى حواش افندى ، وهى شخصية القائد المصرى ابراهيم باشا فوزى الذى كان آخر ممثل لشعب مصر وتاج مصر فى الخرطوم حتى سقطت فى يد المهدى ، وكان أول من فكت جيوش مصر أسره بعد أهوال مخيفة عاش فى وسطها أيام الحكم المهدى فى السودان . .

ولما ردت لهذا القائد الأسير حريته ، وعاد إلى وطنه ، نشرت له جريدة المؤيد مذكراته عن حياته فى السودان فى كتاب ضخم ، حوى نصف سيرة فوزى باشا ، أما النصف الآخر فلم يطبع ، وقد انهكت نفسى بحثاً وراء المذكرات المخطوطة فلم أعثر عليها ، فاضطررت إلى التماس باقى القصة عند مؤلفين أجانب عاشوا فى نفس الأسر مثل سلاطين و نيوفلد ، وسجلوا إلى جانب خواطرهم لمحات عن أسر ابراهيم فوزى وسيرته.

ومن خلال هاتين القصتين : وقد مضى على انتهاء حوادثهما ٥٠ سنة .. ومن بين سطور هاتين السيرتين : سيرة حواش افندى وابراهيم باشا فوزى ، تكامل يقينى واقتناعى ، بأن هذا النهر العظيم .. نهر النيل الذى غذى أمثال هذه الشخصيات الطيبة الخيرة واحتضنها ، لا يمكن أن يخضع لعوامل الفرقة السياسية التى ضربت عليه ، وأن الدماء والآلام التى احتملها آباؤنا الاقربون على ضفتى النيل لن تضيع سدى و يكفى أن نتذكرها لكى تكون وثيقة الميراث ، وحجة الأبناء والأحفاد التى تذكرهم بحق «نهرهم» عليهم ، و بواجبهم الأبدى الخالد ، وهو أن يجمعوا شمل مالم يأذن الله ، ومالم تأذن الطبيعة ومالم يأذن التاريخ ، بأن تتفرق أعضاؤه ، وتتمزق أشلاؤه ، وتتبعثر مقوماته وأجزاؤه .

ولقد حببنى « حواش افندى » إلى هذه الأسماء المعتمة المظلمة التى مرت علينا صغاراً فى دروس الجغرافيا من أمثال نيمولى ، وغابة شمبى ، ومكراكا ، وغندكرو وغيرها . فقد عاش فيها ، وتنقل بينها ، وصحبه مئات من أبناء النيل وأفراد قلائل من بيض أوربا ، وظلوا

يضيئون مشاعل الحضارة و يوطدون قواعد النظام ، فلما انتهت مهمتهم لأمر خارج عن ارادتهم ، تركوا بلاداً عرفت نفسها ، وعرفها العالم من بعدهم .

من يستطيع أن يقول عن أفريقية إنها القارة الظلماء ، وقد حمل حواش افندى المشعل ، و بدد الظلمات ، واحترق من ناره كثيرون من أحبائه وأعزائه ..

من يستطيع أن يقول إن عشرات الألوف من المصريين الذين ماتوا فى السودان أيام حكم المهدى والتعايشى ذهبت دماؤهم سـدى ، وطمر التراب ذكراهم .. لا .. لا ، فمصر التى رفعها محمد على إلى أعالى النيل ، واحترق ابنه العزيز فى قيافيه ، هى مصر التى أقامت فى أرض هـذا النهر لا تعرفه أجزاء ، ولا تعرفه حدوداً ، ولـكن تعرفه جميعاً .. فلما عصفت بأبنائها عاصفة الثورة المهدية ، عرفت كيف تصبر ، وكيف تنتظر ..

ومن خلال الجهود المصرية ، مع قيادة بريطانية ، عادت مصر إلى السودان ، أو عاد السودان إلى مصر ، وكانت عودة كاملة شاملة لاتعرف قيوداً . حقيقة فرض كرومر على مصر معاهدة سنة ١٨٩٩ ، التى قسمت أرض النيل إلى قسمين : قسم تحكمه أنجلترا مباشرة ، وقسم تشترك فى حكمه مع مصر . وهذه المعاهدة تـكون فى التاريخ صفحة — ما فى هذا شك — ولـكن الاحتلال نفسه الذى سبقها بسبعة عشر عاما ، والحماية التى لحقتها بعد مثل هـذا الزمن ، تـكون أيضا صفحات من تاريخ مصر الحديث . ومصر التى لم ترض عن الحماية ، ولم ترض عن الاحتلال ، وسعت وما تزال تسعى لتحقيق استقلالها ، هى نفس مصر التى لم ترض عن معاهدة سنة ١٨٩٩ وسعت وما تزال تسعى لتعديلها .

والسودان ، لا بقية حوض النيل كما يجب أن يكون ، كان موضوع محـادثات مستمرة بين الجانب المصرى والجانب البريطانى . وقد اعترف فى جميع المفاوضات بأن أمره متروك لمفاوضات مقبلة ، ومعنى هذا التصريح أن كلا الجانبين المصرى والبريطانى يسلمان بأن معاهدة سنة ١٨٩٩ ليست أساساً صالحا لاقامة نظام حكم سليم فى أى مكان من الأرض ، بل هى توجد فى عرف القانون الدولى وضعا شاذاً لا نظير له فى دنيانا المعاصرة .

ولقد أدت ثنائية الحكم خلال ستة وأربعين سنة إلى نتائج حسنة فى اقرار النظام ، وكانت أعباء هذا الحكم واقعة كلها تقريباً على الجانب البريطانى . ولكن استقرار الأمن ، و إيجاد حكومة مركزية فى السودان ليس كل شىء فى حياة الأمم . فمصر نفسها قبل ستين سنة كانت تشكو مما كان يشكو منه السودانيون . وتقدم أنظمة الحكم فى مصر ، واستقرار ماليتها وأمنها ، لم يستدع بحال من الأحوال أن يصر الانجليز على البقاء فى بلادنا لمتابعة التنظيم البوليسى او المالى ، فقرروا أن يخففوا يدهم . والعلاقات بين البلدين فى طريقها إلى أن تستقر على أساس حاف حر شريف . وهذا ما يقال عن السودان تماماً ، فتنظيم أداته الحكومية لا يمكن مطلقاً أن يكون ذريعة لاستمرار التدخل فى شؤونه . فيجب أن يترك أمر السودان لأهله ، وأهله هم أبناء النيل جميعاً ، بعد أن رشد جنوبهم مثلما رشد شمالهم .

وما يقال عن رغبة فريق من السودانيين فى الاستقلال عن مصر ، وعن بريطانيا معاً ، لا يجب أن يقام له وزن كبير . فنحن لا نبحث عن مغنم فى السودان إلا بقدر ما يبحث السودان عن مغنم له فى مصر . ومع ذلك فالمصريون والسودانيون أحرياء أن يسووا أمورهم فيما بينهم ، كما يسوى الأهل شؤون دارهم .. ومع ذلك — مرة أخرى — فلا ضير فى أن يكون حكم القضية عمرو بن العاص أو ابو موسى الأشعرى ، فسواء فى نظر الواقع أن تحكم الكوفة أو تحكم دمشق ، ولكن الكارثة كانت فى أن تحكم بيزنطة الاثنين !!

ونحن — بعد هذه الحرب — نريد أن نستأنف بحث مسائلنا القومية فى حدود الروية والاتزان ، وسنرى من غير شك أن مصر القوية المقتدرة بثروتها و بكامل أرضها و بكامل نيلها ، ستكون عوناً أكبر عون فى استقرار السلام ، وسيادة المبادىء الحرة الأصيلة . وقد هزت الحرب ، مع تقدم الزمن وتطور الفكر ، مبادىء الاستعمار القديمة من أساسها ، ولا يجب أن ننتظر حرباً جديدة لكى تقتلع هذه الشجرة الخبيثة من

السكون ، وإنما يحسن كثيراً أن تسود الثقة والتعاون الصادق بين شعب النيل كله ، وبين الشعب البريطانى ، فهذه الثقة كفيلة بأن تحقق من النتائج أضعاف ما تحققه أساليب القهر والارغام فى ظل الأسلحة والأساطيل .

وما جربت علينا انجلترا ولا غيرها خيانة ، ولا نكوصاً على العقبين . فقد وفينا الأمانة فى محنة الحبشة عام ١٩٣٥ ، ووفيناها فى محنة الحرب الحاضرة. وعلى الأخص عام ١٩٤٢ ، وسنكون أكثر حرصاً على الوفاء فى أزمات أخرى قد تقع .

●●●

ولقد شاقتنى القراءة عن النيل نهراً وأهلا ، فأخذت أتتبع الجهود التى بذلت لكشف مجاهل النهر الجنوبية ، وأهمها كما ذكرت جهود منشىء مصر الحديثة محمد على الكبير الذى دفع رجاله وبعوثه حتى وصلت إلى غندكرو عام ١٨٤١ ، ثم حالت صخور النهر وشلالاته دون متابعة الملاحة فى مجراه . ولكن ما وصل اليه رجال محمد على كان عظيم القيمة ، مغريا أشد الاغراء للمغامرين والعلماء الأوربيين بمتابعة عمله فبعد أربع سنين أخذ رائد انجليزى « جون بتريك » يدب فى أعالى النيل ، ولكنه غرب وقصر رحلته على مناطق بحر الغزال وبلاد بحر الغزال .

وتتابع الرواد بعد ذلك ، وكان أهمهم «سبيك» الذى سار من زنجبار مع صاحب له حتى وصل إلى بحيرة فكتوريا . وقد كان أعظم عون لهذا الرحالة تجار العرب الذين عرفوا البحيرات الاستوائية وارتادوها طولا وعرضاً ، ولكن جهودهم كانت قاصرة على تبادل التجارة ، أما علومهم فظلت فى صدورهم لم يعنهم أن يقدموها لأحد . . إلا إذا تفضل وطلبها. ومن المحقق أن العرب عرفوا منابع النيل من العصور الوسطى ، وأنه كان بالنسبة لهم شيئاً عادياً . ولم يظهر أثره فى مؤلفاتهم لهذا السبب ، لأن التجارة كانت شغلهم قبل أى شىء آخر .

وانضم الرحالة جرانت إلى سبيك ، ثم التق بهما السر صمويل بيكر ، وظل الثلاثة يدورون حول المنابع ، حتى عام ١٨٦٩ ، عند ما تولى الخديوى اسماعيل باشا بعث نهضته القوية فألحق بيكر بخدمته ، وتولت خزينة مصر تسيير البعوث والانفاق عليها ، مما سيرد تفصيله ونحن نقص التاريخ الانسانى للجهود المصرية فى تلك المناطق .

وإذا كانت أوربا قد اهتمت فى منتصف القرن الماضى بالكشف عن مجاهل النيل ، فقد كانت تحركها عوامل هامة ، أولها عامل اقتصادى . إذ أدى ظهور النهضة الصناعية ومخترعاتها الحديثة إلى طلب الكثير من المواد الخام . وكان المطاط على رأس قائمة المواد المطلوبة للصناعة . وبذا دخلت المناطق الاستوائية فى الحساب .

وإلى جانب العامل الاقتصادى ظهر عامل آخر لا يقل أهمية عنه ، فقد قويت الحركة المسيحية فى أوربا ، واشتدت الرغبة فى نشر الدين والتبشير به فى كل مكان . وكانت أرض الوثنيين الذين لا دين لهم من بين الجهات التى أوثرت ببذل الجهود . وقد التقى العاملان : الاقتصادى والدينى ، فكونا معاً حركة الاستعمار الكبرى التى شهدها منتصف القرن التاسع عشر .

وهكذا كان رجال الدين طليعة الموكب الأوربى فى القارة الأفريقية ، وتبعهم رجال التجارة ، ثم أعقبتهم على الفور الجيوش المتحاربة .

فلما ظهرت مصر فى الميدان ، يجذبها عامل التوحيد الأكبر — وهو نهر النيل — تولت العمل فيه جهتان : السياسة ومن ورائها بعثات اسماعيل باشا العسكرية ، والدراسات المائية وو راءها مصلحة ثم وزارة الأشغال المصرية .

قد نظم هذه الدراسات فى أول الأمر مهندسون من الانجليز : أهمهم الكولونيل مونكريف ، والسر وليم جارستون ، والسر ويلكوكس ، والسر مردوخ مكدونالد . وتبعهم بعد هذا ، الرعيل الحاضر من كبار المهندسين المصريين وأهمهم اسماعيل باشا سرى وابنه الشهير حسين باشا سرى . وإن كان من الخير ومن حسن الوفاء أن نشير إلى جهود العلامتين

على باشا مبارك وأمين باشا سامى ، فقد كتب أولهما « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » وثانيهما « تقويم النيل » وهما سفران قيمان جداً .

وقارىء تقارير مصلحة الأشغال ، يدهش للمحاورات والمباحث التى كانت تدور بين رجال الهندسة منذ نصف قرن ، وهم يضعون خططهم لانشاء خزان أسوان . فقد كتب السر جارستون يرد على الاعتراضات التى أثيرت حول انشاء الخزان وهى :

١ — وجود صعوبات فى الانشاء تعوق نجاز الشغل واتمامه .

٢ — تعرض القطر المصرى للهجمات العسكرية الأجنبية التى ربما تقبض على زمام السد ، فيضر ذلك بالقطر المصرى ضررا عظيما وتعدم الزراعة الصيفية .

٣ — حدوث زلازل ، أو أن بناء السد ربما يكون رديئا فان ذلك مما يتسبب عنه كسر السد دفعة واحدة فيحدث عنه طوفان عظيم يتلف كل أراضى القطر المصرى من أصوان الى القاهرة

٤ — نظرا لأن مياه الخزان ستكون راكدة فربما تسبب عن ذلك تعفن فيها ، فيحصل من ذلك تسمم مياه القطر المصرى ، وتصير غير صالحة للاستعمال . »

ومنذ أنشىء الخزان وعمره الآن ٤٣ سنة لم يحدث شىء مما قيل عنه قبل انشائه . ولكن من الطريف أن نذكر رد جارستون على النقطة الثانية ، وهى الهجمات العسكرية قال :

« هذه الطوارىء لايصح أن المهندسين يشتغلون بها ويفتكرون فيها لأنها ليست من متعلقاتهم ، بل هى من اختصاصات الحكام وأولياء الأمر المشتغلين بسياسة الأمة وقيادة القطر ، فهم الذين يبدون آراءهم وأفكارهم للحضرة الخديوية الحاكمة على الأمة المصرية جميعها . ومع ذلك ، فانى أقول من نفسى انه اذا امتلك العدو يوما ما من الأيام المنطقة التى بين أسوان وحلفا ، فان الحكومة المصرية تصبح والعياذ بالله معدومة ، وتصير كلا شىء بالكلية ، وما دام بالله عليك قد استولى العدو على مديرية الحدود ،

فانه بلا شك بعد قليل يستولى على بقية القطر المصرى ، فهل لا يبكينا شيء من كل هذه الخسارة سوى ضياع زراعة صيفية واحدة » ! !

وتتابعت جهود وزارة الأشغال ، فقام السر جارستون المذكور برحلة هامة جداً فى بحر الجبل وكتب تقريره المطول عنه ، واقتراح مشروع قنال السدود وغيره ، ثم أصدرت وزارة الأشغال تقرير ضبط النيل ، للسر مردوخ مكدونالد ، وفيه المقترحات الهامة التى سنشير اليها فيما بعد .

ولايفوتنى أن أشير إلى تقارير وزارة الأشغال السنوية،وهى على أهميتها تمتاز بعيبين أولهما ـ خروجها عن المسائل الفنية إلى ذكر أجازة الموظفين ، وانتداباتهم .. الخ ثانيهما ـ أن صدور التقارير يتأخر أربع سنين أو أكثر عن موعده . فنحن نقرأ فى سنة ١٩٣٢ ما حدث فى وزارة الأشغال عام ١٩٢٧ — ١٩٢٨ . وكأنما هذه التقارير أعدت للاهمال والحفظ فى دور المحفوظات مع أنها المرآة الصحيحة لجهود الامة وخزينتها لضبط النيل والحصول على خير النتائج من ترويضه .

•••

ويحسن أن نستطرد قليلا ، فنذكر المراحل التى مرت بها أحاديث السودان فى المفاوضات الرسمية بين مصر وانجلترا منذ ربع قرن إلى الآن ، وذلك لكى تكون تحت يد القراء فكرة صحيحة عن آراء الجانبين حتى إذا فتحت المفاوضات قريباً كانت حلقة فى سلسلة متصلة .

وقبل أن أنتقل إلى حديث المفاوضات ، ، يجب أن نقف فترة نمحنى فيها اجلالا واكباراً لذكرى هذا المصرى العظيم الأمير عمر طوسون ، الذى وفر كل جهده ، وكل وقته لكى يعلم مصر والسودان ، لكى يعلم أبناء النيل جميعاً ما هو حقهم ، وما هو واجبهم . فلما تولى إلى رحمة الله، وجب على القادرين من بعده أن يتابعوا العمل لتحقيق غاياته الكبرى . وسيظل اسم الأمير لامعاً فى تاريخ الفكر المصرى ، وتاريخ السياسة المصرية وحسبه فخراً هذا الهرم العظيم من المؤلفات التى خلفها من بعده وصية تتوارثها الأجيال وتهتدى بهديها . أحسن الله مثوبته ، وأفاض عليه من رحمته .

— ٣ —

عند ما بدأت مصر حملتها الكبرى لتحديد علاقاتها مع انجلترا ، سافر إلى لندن أول وفد مصري رسمي برياسة المرحوم عدلى يكن باشا ، وكان من أعضائه رشدى باشا وصدقى باشا ، وشفيق باشا وغيرهم ، وتولى مفاوضتهم من الجانب البريطانى اللورد كيرزون وزير الخارجية ، وفى جلسة ١٤ يوليو سنة ١٩٢١ ، كان البحث يدور حول المصالح المهمة التى يحسن أن يشترك الاجانب فى الاشراف عليها مع المصريين . قال اللورد كيرزون :

— .... سألنى بعضهم وأنا أناقشه ، وما شأن الرى ؟ انكم لا تجهلون أهميته لمصر ، كما لا تجهلون أن أعمال الرى الكبرى قام بها الانجليز بخبرتهم المكتسبة فى الهند ، وهى من مفاخرهم ، و يجب لبقائها أن تستمر تحت اشراف حقيقى ... فقال : ولذلك أسائلكم أيكون للمندوب المالى رقابة عليه ؟ وكيف يجرى من غير رقابة واشراف ؟

عدلى باشا — نحن نتولى أمور رينا بأنفسنا .

اللورد كيرزون — هذا جميل ولكن أيكون كافياً ؟

عدلى باشا — الواقع اننا سنلجأ إلى أهل الفن والخبرة فى هذا الباب .

اللورد كيرزون — من يضمن عدم وقوع الخطأ ؟ إن الرجال السياسيين لايفقهون هذه المسائل كثيراً ، وأنا لا أطلب منكم الآن جواباً ، و إنما أنبهكم إلى أن هذا أمر يهم مصالح الأجانب . وللأجانب مصالح غير الدين ، ولا يتوقع أن تستقيم أعمال مصلحة الرى إلا إذا كانت فى أيدى أكفاء .

رشدى باشا — مصلحة المصريين أنفسهم أن يكون الرى قبل كل شىء على أحسن حال . ثم إن أملاك الاجانب قليلة بالنسبة لأملاك المصريين .

اللورد كيرزون — ليس هذا كافياً .. ولقد رأيت فى الهند أغلاطاً فاضحة

وأذكر أن إحدى الأمارات الهندية طلبت منى أن أعين لها مندوباً ماليا وآخر للرى .

عدلى باشا — ذكر تاريخ أعمال الرى و بين أن الأعمال المهمة من عهد محمد على تمت بواسطة الاستعانة بالأجانب ، وليس فى المصالح المصرية المهمة ما يعنى له المصريون مثل هذا ، فهم خير رقيب على طريقة ادارته .

صدقى باشا — المسألة مسألة حياة وموت بالنسبة لمصر فلا يخشى من أن نفرط فيها.

•••

وفى جلسة ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢١ ، دارت المفاوضات حول مركز السودان والنيل . سأل المستر لندسى :

— وماذا ترون فى السودان ؟ فأجاب عدلى باشا :

— إننا لم نتعرض له ، لأننا فضلنا أن ننتظر الفراغ من المناقشة فى المسائل الأخرى قبل أن نعالج هذه المسألة .

المستر لندسى — لم يعهد إلى الكلام فى هذا الموضوع ، ولكنه غير محرم على . ولعلكم تذكرون ما كتبه اللورد ملنر فى تقريره عنه(١) ، ولا أظن الحكومة الانجليزية إلا آخذة برأيه فيه .

---

(١) ورد فى تقرير اللورد ملنر عن السودان :

■ « ان المشروع الذى تضمنته المذكرة يتناول مصر فقط ، ولا ينطبق على السودان ، البلاد التى تختلف كل الاختلاف عن مصر فى أوصافها وتركيبها ، وكون حالتها السياسية محددة تحديداً جليا فى الاتفاق الانجليزى المصرى المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، وليست كحالة مصر التى لا تزال غير معينة. فلهذه الاسباب أخرجنا السودان عمداً من مناقشاتنا كلها مع الوفد ، وكان لذلك مفهوماً دائماً عند أعضائه ، ولكن منعاً للخطأ وسوء الفهم بمصر فى غاية مناقشاتنا ومداها رفع اللورد ملنر الكتاب التالى إلى عدلى باشا يكن لما أرسل إليه المذكرة وهو

■ ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠

عزيزى الباشا

بخصوص الحديث الذى جرى بيننا أمس أعود فأقول مرة أخرى أنه ليس بين أجزاء المذكرة التى

عدلى باشا — ولكن اللورد كيرزون لم يضع لمسألة السودان حلا معيناً ، ولا ضمن تقريره شيئا عن تفصيلات نظام الحكم فيه . ولا يخرج الأمر فى ذلك التقرير عن

أنا مرسلها اليك الآن جزء يقصد تطبيقه على السودان ، كما هو ظاهر من المذكرة نفسها ، ولكنى أرى اجتنابا لكل خطأ وسوء فهم فى المستقبل أنه يحسن بنا أن ندون رأى اللجنة وهو أن موضوع السودان الذى لم نتناقش فيه قط نحن وزغلول باشا وأصحابه خارج بالكلية عن دائرة الاتفاق المقصود لمصر ، فان البلدين يختلفان اختلافا عظيما فى أحوالها، ونحن نرى أن البحث فى كل منهما يجب أن يكون على وجه مختلف عن وجه البحث فى الآخر .

إن السودان تقدم تقدما عظيما تحت ادارته الحالية المؤسسة على مواد اتفاق ١٨٩٩ ، فيجب والحالة هذه ألا يسمح لأى تغيير يحصل فى حالة مصر السياسية أن يوقع الاضطراب فى توسيع نطاق تقدم السودان وترقيته على نظام أنتج مثل هذه النتائج الحسنة .

على أننا ندرك من الجهة الأخرى أن لمصر مصلحة حيوية فى إيراد الماء الذى يصل اليها مارا فى السودان ، ونحن عازمون على أن نقترح اقتراحات من شأنها أن تزيل هم مصر وقلقها من جهة كفاية ذلك الإيراد لحاجاتها الحالية والمستقبلة .

الامضاء (ملنر)

■ ويجمل بنا فى هذا المقام أن نورد بالإيجاز الأسباب التى نرى أنها تقضى باستحالة تسوية مسألة السودان على المبادىء التى يراد تسوية المسألة المصرية عليها ، ونشير فى الوقت عينه إلى الخطة العامة التى يلوح لنا أنها أصلح من سواها لسد حاجات السودان الحالية فنقول :

إن الأكثرية الكبرى من أهل مصر متجانسة بالنسبة إلى سواها ، وأما السودان فمقسوم بين العرب والسود ، وفى كل من هذين الجنسين الكبيرين أجناس وقبائل يختلف بعضها عن بعض اختلافا عظيما ويضاد بعضها بعضا كثيراً . أما عرب السودان فيتكلمون باللغة التى يتكلم بها أهل مصر ، وتجمع بينهم جامعة الدين . والاسلام آخذ فى الانتشار فى السودان حتى بين الأجناس غير العربية من أهله ، وهذه المؤثرات تلطف ما بين أهالى البلدين من التضاد والتنازع ، ولكنها لا تقوى عليه بعد ما زادت تذكار سوء الحكم المصرى الماضى قوة وشدة .

■ أما الروابط السياسية التى ربطت السودان بمصر فى فترات مختلفة من الزمان الماضى، فكانت دائما روابط واهية ، فان الفاتحين المصريين اجتاحوا أقساما من السودان ، بل السودان كله ، ولكن مصر لم تخضع السودان قط اخضاعا حقيقيا ، ولا أدغمته فيها وجعلته بعضا منها بمعنى من المعانى، وكان فتحها له فى القرن الماضى نكبة كبيرة على البلدين معا ، وانتهى أمره بفتنة المهدى التى قلبت السلطة المصرية رأسا على عقب فى أوائل العقد الثانى من ذلك القرن . ولم يبق للسلطة المصرية من أثر فى السودان مدة أكثر من عشر سنوات إلا فى مقاطعة صغيرة حول سواكن، فاضطرت بريطانيا العظمى من جراء ذلك الفشل أن تجرد عدة حملات أنفقت عليها أموالا طائلة لنجدة الحاميات المصرية ، والدفاع عن مصر التى كانت عرضة لسيل عصابات المهدى الجارفة ، واستلمت الايدى البريطانية زمام حكومة السودان فعلا منذ فتحته القوات المصرية والمصريين بقيادة قواد بريطانيين فى سنة ١٨٩٦ — ١٨٩٨ ، وباتت السودان تحت الحماية البريطانية المصرية فى سنة ١٨٩٩ ، لأن الحاكم العام ، وإن كان يعينه السلطان

بعض آراء عامة ترمى إلى استيفاء طابع الحكم الذى جرى فى السودان من فتحه إلى الآن . وإذا كان لنا أن نتكلم فى السودان الآن فانى أحب أن أعرف أولا رأيك فى مركز السودان .

(وسابقا خديو مصر) إلا أن الحكومة البريطانية هى التى ترشحه ، وكل مديرى المديريات وكبار الموظفين هم من البريطانيين ، فتقدم السودان تقدما عجيبا ماديا وأدبيا تحت رعاية الحكومة المنظمة هذا التنظام ، لأننا إذا حسبنا حساب كل ما تقتضيه بساطة هـذه القضية ، وهى ادخال المبادىء الأولية لحكومة منظمة متمدنة إلى بلاد أهلها لا يزالون فى أول عهد السذاجة ، حكمنا أن النجاح العظيم الذى نجحته بلاد السودان فى المدة الطويلة التى كان فيها السير ريجنلد ونجت حاكما عاما عليها يعد أمجد صفحة فى تاريخ الحكم البريطانى على الشعوب المتأخرة . أما الحكومة الحالية فمقبولة ومحبوبة عند أهل السودان، والسلام والتقدم يخيمان فى تلك البلاد إلا فيما ندر .

■ غير أنه ، وان تكن مصر والسودان بلدين متمايزين أحدهما عن الآخر ، وارتقاؤهما يكون على منهاجين مختلفين ، فلمصر مع ذلك مصلحة عظيمة جداً فى السودان ، وهى أن النيل الذى يتوقف عليه وجود مصر وكيانها يجرى مسافة مئات من الأميال فى بلاد السودان ، فمن أهم الأمور لمصر منع أى تحويل لماء النيل يمكن أن يقلل مساحة أراضيها الزراعية الحالية ، وعنعها من اصلاح أراضيها التى تبلغ مساحتها حوالى مليونى فدان وتصير قابلة للزراعة إذا خزن ماء النيل ، وزاد ما يرد منه للرى عما هو عليه الآن .

وقد كانت كمية الماء التى يأخذها السودان رأسا من النيل قليلة حتى الآن ، ولكن كلما زاد عدد سكان السودان احتاجت بلادهم إلى ماء أكثر لأجل تقدمها ، وقد يفضى ذلك إلى التضارب بين مصالحهم ومصالح أهل مصر ، ولكن الأمل وطيد أنه إذا حفظت مياه النيل جيدا ، ووزعت كذلك ، كفت لرى كل الأطيان التى يمكن أن تحتاج إلى الرى سواء كانت فى مصر أو فى السودان . ولكن التحكم فى مياه النيل وضبطها للرى مسألة على أعظم مكان من الأهمية . والقضايا التى تنطوى تحت ذلك فنية كانت أو غير فنية صعبة ومعقدة جداً بحيث يقتضى فى رأينا تعيين لجنة دائمة من خبيرين من الطبقة الأولى ، وأيضا من رجال ينوبون عن البلد التى لها علاقة بهذا الأمر ، وهما مصر والسودان وأوجدنا لتحل كل المسائل التى لها مساس بالتحكم فى ماء النيل وضبطه ، ولتضمن توزيع الماء بالقسط .

■ والضرورة تقضى الآن بأن يكون السودان كله تحت سلطة واحدة عليا ، ولكن لا يستحسن أن ينحصر الحكم كله فى حكومة مركزية ، بل الواجب إلقاء مقاليد إدارته بقدر الامكان إلى حكام من الوطنيين حيثما وجدوا تحت المراقبة البريطانية نظرا لاتساع أرجائه ، واختلاف طباع أهله واخلاقهم . فالحكومة البيروقراطية المركزية لاتلائم السودان على الاطلاق ، وإنما تلائمه اللامركزية ، واستخدام العناصر الوطنية ، حيث يستطاع إنجاز الاعمال الادارية البسيطة التى تحتاج البلاد اليها فى الحالة التى هى عليها من التقدم لأن ذلك يقلل نفقاتها ويزيد فى كفاءة رجالها وحسن ادارتها . والموظفون الآن من أهل البلاد قليلو العدد إلى جانب الذين يؤتى بهم من مصر ، وهؤلاء لايحبون الخدمة فى السودان ،

المستر لندسي — انه حكم ثنائي Condominium (ملك مشترك)

عدلى باشا — إنما الاشتراك فى الادارة ، أما حق السيادة فهو لمصر وحدها . كان السودان لمصر فتركته زمنا ، ولكنها لم تفارقها لحظة فكرة استرجاعه حتى تهيأت الظروف لاعادة فتحه فاشتركت انجلترا مع مصر فى جزء من التجريدة التى أرسلت اليه والأموال التى أنفقت عليه . ولكنها لم تدع يوما حقا على السودان بسبب ذلك الاشتراك فانما فتح السودان باسم مصر ، ولمصلحة مصر ، وما زالت مصر تسد عجز ميزانيته حتى عهد قريب ، وقد أعلن ذلك أكثر من مرة رجال السياسة ، والجيش ، واللورد كرومر واضع اتفاقية السودان.

المستر لندسي — ولكن المرفوع على دور الحكومة فى السودان هو العلمان الانجليزى والمصرى .

ولكن هذه الصعوبة ستذلل كلما تقدم التعليم فى السودان ، وزاد عدد الذين يصيرون كفئا من أهله لتقلد الوظائف الرسمية .

■ والواجب فى الوقت عينه الانتباه الكلى إلى أمر التعليم حتى لايرتكب فيه الخطأ الذى ارتكب فى مصر بادخال نظام اليها لايؤهل التلاميذ لعمل يذكر سوى الأعمال الكتابية والوظائف الادارية الصغيرة ، وتخريج جمهور كبير يفوق الحاجة من الذين تطمح أبصارهم الى الاستخدام فى الحكومة . فليس فى السودان مجال لجيش من صغار الموظفين ، ولذلك يجب أن يوجه التعليم بحيث يربى فى السودانيين القابلية والميل إلى الاعمال الأخرى كالزراعة والصناعة والتجارة والهندسة . إن حاجة تلك البلاد الآن هى إلى الترقى المادى ، وفى وسعها الاستغناء عن نظام ادارى على غاية من الاتقان .

ثم قال التقرير :

■ ويقال بالاجمال ان الغرض الذى ترمى اليه السياسة البريطانية يجب أن يكون اخلاء جانب مصر من مسؤولية مالية للسودان ، وتقرير العلاقات بين البلدين فى المستقبل على قاعدة تضمن ارتقاء السودان ارتقاء مستقلا ، ومصالح مصر الحيوية فى ماء النيل . فلمصر حق لاينازع فيه فى الحصول على ايراد كاف مضمون من الماء لرى أراضيها الزراعية الحالية ، وعلى نصيب عادل من كل زيادة فى إيراد الماء يتيسر للبراعة الهندسية أن تأتى بها . فاذا صرحت بريطانيا العظمى رسميا باعترافها بهذا الحق ، وأنها عاقدة النية للمحافظة عليه فى كل حال من الأحوال ، سكنت بذلك روع المصريين ، وخففت عنهم القلق المستحوذ عليهم من هذا القبيل. ورأينا أن هذا التصريح يفى بالغرض المقصود إذا تم فى الوقت الحاضر.

عدلى باشا ـــ نعم ولكن السبب فى ذلك لم يكن الرغبة فى تقرير حق سيادة لانجلترا على السودان ، وإنما كان ذلك لأسباب خاصة أهمها اتقاء سريان الامتيازات على تلك البلاد ، وما كان يخشى أن ينتج عنها من تعطيل وأن تنظيم السودان وترقية موارده وغل يد الحكومة عن أن تنطلق فيه بجميع صنوف الاصلاح ، فالسودان أرض مصرية ، ولا نزاع فى أن لمصر حق السيادة عليه ، وانما وضعت اتفاقية سنة ١٨٩٩ لتقرير الاشتراك بين مصر وانجلترا فى ادارته ، على أنك لاتجهل أن نصيب مصر من تلك الشركة فى حكم العدم (هذا كان تقدير عدلى باشاعام١٩٢١ ، أى قبل اخلاء السودان من القوات المصرية بثلاث سنين) ، فان الادارة أصبحت انجليزية محضة ، وكل ما لمصر الآن هو أن القرارات التى يصدرها حاكم السودان تبلغ الى رئيس مجلس الوزراء مجرد تبليغ ، وليس لهذا أن ينقض أمراً أو يبرم حكماً . والذى يعنينا الآن من أمر السودان ، هو أن تقرر من جديد حقوقنا فيه ، وأن يصبح لهذه الحقوق مظهر خارجى . وآية ذلك أن يكون لمصر يد فى ادارة السودان. اما الصورة الفعلية لتلك اليد فهى كل البحث . وأرجو ألا يسبق الى ذهنك أننا نطالب بذلك لمجرد التمتع بلذة الحكم أو لقضاء شهوة السلطة ، وانما يدفعنا الى ذلك النظر فى مصالحنا فى السودان والحرص على توفيرها ، وأول هذه المصالح .. النيل ، ولكن ليس هذا هو كل مايعنينا فى السودان ، فهناك الجيش السودانى و وجوب تبعيته للجيش المصرى واخلاصه لولى أمر مصر ، وهناك هجرة المصريين إلى السودان و وجوب أن يجدوا كل التسهيلات الممكنة وأن يتمتعوا بكل الحقوق ، وهناك تموين السودان لمصر ، ولست أبغى حصر المسائل التى تهمنا فى السودان ، وانما أردت أن أسوق لك مثالا على المصالح المختلفة التى يمكن أن تقوم لنا فيه .

المستر لندسى ـــ أظن انى فهمت وجهة نظركم .

عدلى باشا ـــ وماذا ترى فى مسألة النيل بصفة خاصة .

المستر لندسى — ان اللورد كيرزون مستعد لأن يعترف لمصر بصوت جدى فى قسمة مياه النيل وهو يرى أن تنشأ لهذا الغرض لجنة من نوع اللجان التى توجد فى أمريكا ، وان كانت قسمة المياه هناك لايبتغى بها تنظيم الرى وانما تنظيم القوى الهيدروليكية .

عدلى باشا — يجب أن يسبق التفكير فى قسمة المياه تقرير ما لمصر من الحق فى أن تأخذ من النيل كل ما تحتاجه من المياه لزراعة أرضها التى تزرع حالا أو القابلة للاستصلاح والزراعة فى المستقبل .

المستر لندسى — يعنى أنكم تريدون مراقبة على مياه النيل ؟

عدلى باشا — انما نريد أن يكون لنا وحدنا حق المراقبة عليها .

المستر لندسى — أظن أن الطلب فيه مبالغة ، فان لكم أن تطالبوا ألا يعمل شىء دونكم . أما أن يكون لكم حق الاعتراض على عمل لايفيدكم وتكون فيه فائدة للسودان ، فهذا ما لايمكن أن يقر لكم به ، ويجب فى مثل هذه الأحوال التى يقوم فيها الخلاف على صلاحية الأعمال أن تفصل فى الأمر لجنة مشتركة .

عدلى باشا — إن اللورد ملنر أشار إلى ذلك فى تقريره وإنما بطريق الاجمال ، ولم يفصل كيف يكون تشكيل تلك اللجنة ، والذى يعنينا قبل كل شىء أنه لا يجوز أن يعمل شىء على النيل ضد رغبة الحكومة المصرية .

المستر لندسى — أتريدون أن تقدموا مذكرة أو مشروعاً عن مسألة السودان ؟

عدلى باشا — سأنظر فى ذلك. وأذكر أن سعد باشا فى المفاوضات السابقة لم يتعرض لمسألة السودان ، لأنه أراد أن يكون الاتفاق قاصراً على مصر ، وأن تتولى مصر فى نظام حكمها الجديد بحث مسألة السودان مع انجلترا ، ولكن المندوبين لما سافروا لمصر ليتلقوا رأى الأمة فى مشروع لجنة ملنر الذى لم يتعرض أيضاً لمسألة السودان تبينوا أن الأمة شديدة الحرص والرغبة فى أن تحل مسألة السودان منذ الآن ، وهذا أصل التحفظ الأخير الذى لم أقدمه وهو يرمى إلى ضمانة الاشراف على النيل وإلى جعل سيادة مصر

على السودان فعلية لا اسمية . أما تفصيل ذلك وترتيب أحكامه فهو محل البحث ويصح أن نتفاهم عليه .

وها نحن قلنا ما نريد أن نقول فى كل المسائل التى تعرضنا للبحث فيها ، ونحن فى انتظار مشروع اللورد كيرزون لنضع عليه ملاحظاتنا ، ونقدم بعد ذلك مشروعنا . وسنرى بأى قدر يمكن الوصول إلى اتفاق .

المستر لندسى — إنى أخشى أن يكون مشروعنا دون الحد الأدنى لمطالب المصريين ، وانهم لا يكونون راضين .

عدلى باشا — إذا كنتم تحرصون على رضى المصريين فليس لكم الآن إلا أن تسلموا بالحد الأدنى لمطالبهم ، وعلى أى حال فاننا فى انتظار مشروعكم لنرى ماذا أنتم فاعلون .

***

وفى يوم الأربعاء ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ قابل عدلى باشا المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، فى ١٠ شارع دوننج ستريت ، وسأل الرئيس الانجليزى عن مراحل المفاوضات ثم مالبث البحث أن دار حول مسألة السودان :

المستر لويد جورج — ماذا تقولون فى مواصلاتنا مع السودان ؟

عدلى باشا — ان هذه المواصلات حاصلة بطريق بور سودان .

المستر لويد جورج — ولكنها قد لا تكفى .

عدلى باشا — لست أرى دخلا للسودان فى أمر المواصلات فان ما يفهمه المصريون من المواصلات الأمبراطورية هى المواصلات مع المستعمرات الانجليزية فيما وراء البحار . أما السودان فهو مسألة أخرى ، وهى كبيرة الأهمية عند المصريين ، ولنا بشأنه مطالب لم نبدها بعد لأننا أردنا أن نتبين أولا ما إذا كان الاتفاق ممكناً بشأن مصر . وكنا قد اعتزمنا أنه إذا تم الاتفاق بشأنها انتقلنا إلى بحث مسألة السودان ، فهى مسألة لم يأت دورها بعد .

المستر لويد جورج — لمصر شأن غير شأن السودان، فاننا فيما عدا تأمين مواصلاتنا بطريقها لا نريد التدخل فى شؤونها ، ونريد أن تربطنا وإياها محالفة حقيقية. ولكننا لا يسعنا ترك السودان ، أو أن ننزل عن مركزنا فيه على الصورة التى ننزل بها عن مركزنا فى مصر .

عدلى باشا — ولكن ماهى علاقة السودان بمسألة المواصلات أو مسألة القوة العسكرية . فان فى السودان جيشاً مصرياً وهو الذى يتولى حفظ الأمن فيه والدفاع عنه.

المستر لويد جورج — قد تقوم فتن واضطرابات خطيرة فى السودان نحتاج معها إلى إرسال جنود لقمعها ، ونقل هذه الجنود يكون بطريق مصر .

عدلى باشا — إن هذه حالة نقل جنود فى ظروف خاصة ، ولا حاجة معها إلى قوة عسكرية دائمة . وهى حالة لا يمكن النظر فيها على حدتها ، أو بمناسبة البحث فى حماية المواصلات والقوة العسكرية ، وإنما هى مرتبطة بمسألة السودان فى جملتها، ويمكن عند البحث فى النقط المتفرعة عن مسألة السودان وضع اتفاق خاص يرتب فيه لهذه الحالة ماينا سبها من الأحكام . وعلى أى حال فإنى لا أرى أن يكون مجرد احتمال الحاجة إلى نقل الجنود بطريق مصر لقمع فتن فى السودان سبباً يستدعى حفظ قوة عسكرية فى مصر .

المستر لويد جورج — هذا حق . وخير أن نترك هذه المسألة الآن .

وقد أعد اللورد كيرزون مشروع معاهدة ، رفضها عدلى باشا وزملاؤه من فورهم. وقد ورد فى الباب السابع منها — مادة ١٧ عن السودان :

« حيث أن رقى السودان فى هدوء وسكينة ضرورة لأمن مصر ولحفظ مؤونتها من المياه ، تتعهد مصر بأن تستمر فى أن تقدم بدلا من ذلك لتلك الحكومة إعانة مالية تحدد قيمتها بالاتفاق بين الحكومتين . وتكون كل القوات المصرية فى السودان تحت أمر الحاكم العام »

« وعدا ذلك تتعهد بريطانيا العظمى بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النيل

وقد تقرر من أجل ذلك ألا تقام أعمال رى جديدة على النيل أو روافده فى جنوب وادى حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء يمثل أحدهم مصر وآخر السودان وثالث أوغندا »

وعلق الوفد الرسمى المصرى على هذا النص فى رده على المشروع بقوله :

« أما مسألة السودان التى لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لنا فيها من أن نوجه النظر إلى أن النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا . فان هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذى لا نزاع فيه وحق السيطرة على ماء النيل » .

•••

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ نجح ثروت باشا فى حمل الحكومة البريطانية على أن تصدر تصريحا من جانب واحد تلغى فيه الحماية وتعترف باستقلال مصر . وكان هذا التصريح مقابل توليه الحكم بعد أن يصدر فعلا . وقد احتفظ الانجليز فيه بأربع نقط أحيلت إلى مفاوضات مقبلة كان رابعها « السودان » . وحتى تبرم هذه الاتفاقات تظل الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ما كانت عليه إذ ذاك .

•••

وحدث فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، أن أطلق بعض المهيجين المصريين الرصاص على حاكم السودان وسردار الجيش السر «لى ستاك» . وكانت الاصابات قاتلة ، فلم تمهل السردار ساعات مات على أثرها .

وابرق اللورد اللنبى إلى وزارة الخارجية البريطانية يعرض عليها صيغة انذار لحكومة المغفور له سعد زغلول باشا ، وحتى يوم ٢٢ لم يصل رد لندن ، مما أفقد المندوب السامى صبره ، فقرر الا ينتظر أكثر مما فعل ، وبعد ظهر ذلك اليوم ، كان قد فرغ من تشييع جنازة القتيل ، ثم ألف موكباً عسكرياً ضخماً ، سار به إلى ميدان لاظوغلى ، وفى الطريق ،

وكانت الساعة الرابعة والنصف ، أقبل من أخبر اللورد أن رد لندن وصل . وهو رد طويل يستدعى حل شفرته نصف ساعة ، فلم يجد اللورد اللنبي مناصاً من أن يتابع سيره ويسلم انذاره ، وليكن بعد هذا ما يكون .

وفى قاعة رئيس الوزارة المصرية ، تلا اللورد نص الانذار بالانجليزية ، وترك ترجمته الفرنسية ، ثم غادر دار الرياسة إلى قصر الدوبارة .

وقد ألقت ديباجة الانذار مسؤولية الحادث على عاتق الحكومة السعدية ، ثم تضمن المطالب الآتية :

١ — الاعتذار الكامل عن الجريمة .

٢ — تحقيق صارم عاجل مع المسؤولين عن الجريمة مهما تكن مراكزهم ، وتوقيع عقوبة رادعة عليهم مهما يكن سنهم .

٣ — منع جميع المظاهرات الشعبية منعا باتاً حاسماً .

٤ — دفع غرامة قدرها نصف مليون جنيه للحكومة الانجليزية .

٥ — إصدار الأمر خلال أربع وعشرين ساعة بسحب جميع الضباط والجنود المصريين من السودان .

٦ — زيادة مايزرع من أرض الجزيرة إلى أى حد تراه حكومة السودان — وكان الحد الأدنى ٣٠٠٫٠٠٠ فدان .

٧ — عدم المعارضة فى أى اجراءات تقترحها الحكومة البريطانية لحماية مصالح الأجانب فى مصر .

وعند ما عاد اللورد اللنبي من رحلته المسلحة ، وجد برقية حكومته لا تقره تماماً على مطالبه ، وتحاول أن تخفف كثيراً من وقعها ، ولا سيما فى مسألة السودان . ولكن كان الانذار قد سلم ، ولم تكن هناك وسيلة لاجراء أى تعديل فيه . وقد أدت عجلة

اللورد إلى أن وزارة الخارجية البريطانية قررت تعيين وزير مفوض فى دار المندوب السامى يكون أول مستشارى المندوب السامى (هو المستر نيفل هندرسون سفير انجلترا فى برلين إلى ما قبيل الحرب الحاضرة) . وعد اللنبي هذا التعيين دون أخذ رأيه عدم ثقة به ، وحاول أن يتفاداه بدون جدوى فقرر الاستقالة ، وقبلت استقالته وسافر عقب صدور الحكم فى قضية اغتيال السردار مباشرة .

ويحسن أن نشير إلى تأثير هذا الانذار فى الجاليات البريطانية والأجنبية ، فقد ردد صداه الماجور جارفس فى كتابه «الصحراء والدلتا» . قال : «إن الانذار كان قوياً ، ولكن قوته كانت دون ماينبغى أن تكون ، وقد تضمن — من سوء الحظ — خطأ دبلوماتيا من الطراز الأول ، إذ نص على مطالب مائية من النيل للرى فى السودان ، لم تكن تفيد أحدا غير شركة الجزيرة الزراعية .. وقد انتهزت الصحف الأجنبية فرصة هذا الخطأ ، وراحت تدق على النقطة الضعيفة ، ومالبثت الصحف المصرية أن تبعتها على الأثر . وهكذا تحول زئير الأسد البريطانى إلى نشيج خافت .. ومنذ ذلك الوقت أخذت مهابة بريطانيا فى وادى النيل تضمحل وتتضاءل .

ومهما يكن وقع الشروط المائية ، فقد سحب الجيش بخسائر حلت باحدى الأورط السودانية ، وسحب الموظفون المصريون فى السودان ، وفرضت رقابة مانعة على تنقل المصريين والسودانيين شمالا وجنوبا فى نيلهم .

•••

وفى صيف سنة ١٩٢٧ أثناء زيارة المغفور له الملك فؤاد لانجلترا ، دارت محادثات هامة بين السر أوستن تشمبرلن وزير خارجية بريطانيا وبين دولة عبد الخالق ثروت باشا .

وقد أعدت الحكومة البريطانية مشروع معاهدة ، ورد فيه عن السودان والنيل :

مادة ١٣ — يعترف الطرفان المتعاقدان بأن أوفى ضمان لصيانة مصالحهما ولا سيما مصالح مصر فى مجارى النيل العليا هو استمرار سيادتهما المشتركة فى السودان .

وكلاهما متفقان على أن يتخذا كقاعدة لتحديد نصيب مصر فى مياه النيل الأبيض والنيل الأزرق النتائج التى وردت فى تقرير لجنة النيل المؤرخ فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٦ وفى الاتفاق الذى عقد فى أول مايو سنة ١٩٢٦ بين ممثلى مصلحتى الرى فى مصر والسودان . ويمنح ممثلو مصلحة الرى المصرية التسهيلات اللازمة لمراقبة المشاهدات المتعلقة بأعمال قناطر سنار ، كما انه تكون لهم حرية الوصول إلى البيانات الخاصة بذلك للتحقق من أن توزيع المياه جار طبقا للقواعد التى وضعت فى التقرير المذكور . وتمنح حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية الحكومة المصرية كل مساعدة ممكنة لتمكينها من القيام ، لمصلحتها الخاصة وعلى نفقتها وبوجه يتفق مع مصالح السلطات المحلية ذات الشأن ، بأعمال الحفظ المنصوص عليها فى ذلك التقرير . وتتحمل الحكومة المصرية نفقات كل عمل تكميلى ، ودفع كل مبلغ نقدى تدعو الحاجة اليهما باعتراف الطرفين تعويضا للمصالح المحلية من كل تلف أو تفكك ينجم عن الأعمال المشار اليها .

ويستمر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر — نظرا لاهتمامه بحفظ السلام فى ربوع السودان وعلى حدود مصر الجنوبية — فى دفع حصته الحالية فى نفقات الادارة فى السودان إلى أن يقرر الطرفان المتعاقدان أن الحالة تدعو إلى إعادة النظر فى هذا الترتيب

وأعد ثروت باشا من جانبه مشروع معاهدة ، تناولت المادة ١١ منه موضوع السودان والنيل . ولم يخرج نص ثروت باشا فى مسألة النيل عما ورد فى النص البريطانى ، إلا أنه عاد بالصلات المصرية السودانية إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٢٤، ولم يعترف بالمساعدات المالية التى كانت تدفعها مصر للسودان .

ثم أعد ثروت باشا مذكرة طويلة يناقش فيها المشروع البريطانى ، وذكر ما يلى عن رأى الانجليز فى موضوع النيل والسودان .. وهذه أول مرة ترد فيها آراء انجلترا عن السودان بطريقة رسمية بعد مشروع ملنر — :

« لقد حرصت فى المشروع الذى قدمته على تجنب القطع برأى فى مسألة السودان العامة التى تختلف فيها الحكومتان ، وذلك اختصارا للمناقشات بقدر الامكان . وقد اجتزأت من تلك المسألة بالاشارة إلى بعض شؤون معينة تتطلب حلا عاجلا ، غير أن المشروع البريطانى ، على العكس من ذلك ، أراد أن يعالج كل المسألة ، وأن يلقاها وجها لوجه ، ليحلها على النحو الذى ترسمه خطة السياسة الانجليزية فى هذا الموضوع ومن ثم كان يتعذر على مسايرته فى هذا الطريق . ولهذا أوثر إرجاء المسألة إلى مفاوضات لاحقة .

أما المسائل المستعجلة التى يتطلب حسن الوفاق بين البلدين مباشرة حلها فوراً ، فهى التى أوضحتها فى المادة الثانية من مشروعى ، أى : الحالة قبل سنة ١٩٢٤ وتوزيع مياه النيل ومشاريع الرى .

ثم ناقش ثروت باشا فى هدوئه واتزانه وتعمقه النص البريطانى ، طالباً إعادة الحال إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٤ ولا سيما « أن الخواطر هدأت وأن النفوس تستطيع أن تواجه فى هدوء وسكينة حل تلك المسألة على خير وجه يعيد الثقة المتبادلة ويوثق العلائق الودية بين البلدين » .

أما مسألة النيل فكان أكثر تشدداً فيها ، إذ لاحظ على المشروع البريطانى «أنه أفرغها فى صيغة قد يبرر ظاهرها قول الذين يزعمون — خطأ فى نظرى — أن السياسة الانجليزية ترمى إلى الغاء رقابة وزارة الأشغال المصرية على مياه النيل» .

وقد استمر تبادل المذكرات بين ثروت باشا والسير أوستن تشمبرلن فترة طويلة حتى انتهى الأمر فى ٤ و٥ مارس سنة ١٩٢٨ إلى عدم موافقة الجانب المصرى على المشروع البريطانى وتعديلاته ، وذلك بعد عرض الموضوع كله على مصطفى النحاس باشا الذى حل أثناء هذه المفاوضات فى زعامة الوفد مكان سعد زغلول باشا الذى توفى فى عام ١٩٢٧

•••

وفى سنة ١٩٢٩ قصد دولة محمد محمود باشا إلى لندن لحضور حفلة اكسفورد لمنحه لقب الدكتوراه الفخرى فى القانون المدنى . وانتهز الفرصة وفتح مع السلطات البريطانية المسؤولة مسألة السودان وذلك على أثر ابرام اتفاقية النيل التى سنوردها فيما بعد . قال محمد محمود باشا فى مذكرته عن هذه المحادثات :

« أما السودان فقد طلبت أن تحترم وتنفذ اتفاقات سنة ١٨٩٩ بشأنه موقتاً . وعلى ذلك يعود اليه قسم من الجيش المصرى كما كان الحال قبل سنة ١٩٢٤ ، ويجب أن تنقطع التدابير والاجراءات التى ترمى إلى التضييق على المصريين فيكون شأنهم فى حرياتهم ومصالحهم فى السودان شأن الرعايا البريطانيين . وقرنت هذه التسوية الوقتية بالاحتفاظ بحرية الحكومة فى المفاوضات فى مسألته فى الوقت الذى تراه ملائماً » .

وقد تمخضت هذه المحادثات عن مشروع معاهدة ورد فى مادته الأولى :

١ — « إن المسائل المعلقة بين الطرفين المتعاقدين ولا سيما ما كان منها ناشئاً عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وانذار ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ قد حلت بموجب نصوص هذه المعاهدة »

وورد فى المادة الثانية عشرة :

١٢ — « تستمر السيادة المصرية الانجليزية على السودان طبقاً لشروط الاتفاقات الحالية أو طبقاً لأى تعديلات لتلك الشروط توضع فى المستقبل بالاتفاق بين الطرفين المتعاقدين

« وتظل حقوق وسلطات الطرفين المتعاقدين بحسب الاتفاقات المذكورة يتولاها بالنيابة عنهما حاكم السودان العام الأمين بموجب تلك الاتفاقات .

« ويسمح لأورطة مصرية أن تكون فى السودان لحماية الحاكم العام ويضم ضابط مصرى إلى الموظفين التابعين له . »

وقد رد محمد محمود باشا على هذا المشروع مطالباً بحذف المادة الأولى ، واعترض على أى تضييق لحق مصر الذى تقرر فى سنة ١٨٩٩ ، مع الاحتفاظ بالمفاوضة المستقبلة بشأن السودان .

ثم أعد مشروع جديد ورد فى المادة ١٣ منه :

« مع الاحتفاظ بحرية إبرام اتفاقات جديدة فى المستقبل معدلة لاتفاقات سنة ١٨٩٩ يتفق الطرفان المتعاقدان على أن يكون مركز السودان هو المركز الذى ينشأ من الاتفاقات المذكورة . وبناء على ذلك يظل الحاكم العام يباشر ، بالنيابة عن الطرفين المتعاقدين ، السلطات التى خولتها إياه الاتفاقات المشار اليها . وعند ما تصبح هذه المعاهدة نافذة ترابط أورطة مصرية فى السودان » .

ثم مالبث أن أعد مشروع ثالث حذفت من مادة السودان فيه الفقرة الأخيرة الخاصة بمرابطة أورطة مصرية فى السودان .

وقد انتهت هذه المذكرات فى ٣ أغسطس سنة ١٩٢٩ ثم سقطت حكومة محمد محمود باشا وأعقبتها حكومة مصطفى النحاس باشا لكى تتولى المفاوضة باسم الأغلبية مع الحكومة البريطانية .

•••

وتولى رفعة مصطفى النحاس باشا المفاوضة فى الفترة من ٣١ مارس سنة ١٩٣٠ ،

إلى ٨ مايو سنة ١٩٣٠ ، وكانت الوزارة البريطانية إذ ذاك وزارة عمالية ، مثل الوزارة التى فاوضها المغفور له سعد زغلول باشا ولم يصل معها إلى أية نتائج .

وبدأ النحاس باشا بتقديم تعديلاته على آخر مشروع بريطانى ، وورد فيه عن مادة السودان :

١٣ — إلى أن تحل مسألة السودان بمفاوضات مقبلة ومع الاحتفاظ بجميع الحقوق يباشر الطرفان المتعاقدان إدارة السودان بالاشتراك بينهما اشتراكا فعليا .

وقد لاحظ المستر هندرسن وزير الخارجية البريطانية فى جلسة ٣ أبريل سنة ١٩٣٠ :

« بعض هذا التغيير مهم جداً فى نحو خمس مسائل حيوية ، أخص بالذكر منها مسألة السودان التى ستكون على مايظهر عقبة كأداء فى طريقنا ، وسنجد صعوبة كبيرة فى التغلب عليها . ولا بد لى أن أصرح لكم بأن الحكومة الانجليزية — حتى لو سلمنا نحن بمطالبكم فى هذه اللجنة — يستحيل عليها استحالة مطلقة أن تصل إلى حمل البرلمان على الموافقة عليها ، لذلك ينبغى لى أن أنبهكم على مسؤوليتى الخاصة بصفة كونى وزيراً للخارجية ومن غير استشارة زملائى الذين لم يتمكنوا كما قلت من درس المقترحات الجديدة التى وضعتموها إلى أن الصيغة الخاصة بالسودان ستثير صعوبات جمة .. أقول هذا عن نفسى إلى أن يتمكن زملائى من دراسة مقترحاتكم وإبداء رأيهم فيها »

النحاس باشا — ... وأما فيما يختص بالسودان الذى خصه المستر هندرسن بالذكر فانه سيرى أن الصيغة التى وضعناها بشأنه لاتختلف فى روحها عن الصيغة التى وضعها جنابه فى مقترحاته ، لأننا لم نطلب فى الوقت الحاضر إلا الاشتراك الفعلى فى الادارة ، وهو ماتعترف به المقترحات الانجليزية نفسها . فقد أشير فيها إلى أن القواعد التى تتبع فى السودان مؤقتا هى القواعد المستمدة من اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، وهما صريحتان فى أن الادارة التى كانت تنفرد بها مصر فى السودان قد أعطى شطر منها إلى انجلترا بمقتضى هاتين الاتفاقيتين ومن أجل ذلك آمل كل الأمل أنكم عند ماتدرسون هذه المسألة فى

ضوء هذه الحقائق ترون أننا فى هذا المطلب المهم الحيوى بالنسبة لمصر كنا فى غاية الاعتدال.

وفى حفلة عشاء بدار المفوضية المصرية فى لندن دار الحديث التالى بين النحاس باشا والمستر هندرسون :

مستر هندرسن — لاحظت أن خمس مسائل تناولها تغيير كبير جداً منها مسألة السودان

النحاس باشا — وماذا فى الصيغتين الخاصتين بالسودان أكثر من الاشتراك فى الادارة وترك الباب مفتوحا لاتفاقات مقبلة ، بشأن السودان ؟

مستر هندرسن — الفرق كبير جداً لأن مادتنا تشير إلى اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، والحالة التى نجمت عنهما ، وأن حاكم السودان يظل يمثل الطرفين — مصر وانجلترا — فى إدارة السودان . وأنتم تطلبون أن يشترك المتعاقدان — مصر وانجلترا — فى إدارة السودان اشتراكا فعليا ، فماذا تقصدون ؟

النحاس باشا — نقصد بذلك أن تكون الادارة مؤقتاً فى أيدى المصريين والانجليز معاً ، وهو مالم نكن نعترف به من قبل . فهذا فى الواقع تساهل منا ، ولا نفهم لماذا تعارضون فيه ؟ !

مستر هندرسن — إن ما وقع فى السودان فى السنوات الأخيرة لا يزال ماثلا فى الأذهان ، وكذلك التصريحات التى صدرت عقب ذلك . كل ذلك يقيدنا تمام التقييد لا سيما تصريحات رئيس الوزراء المستر مكدونالد عند ما كان وزيراً للخارجية ورئيساً للوزارة فى سنة ١٩٢٤ فقد وضع أساس سياستنا فى السودان . وقد سئلت فى البرلمان عما إذا كنت مرتبطا بها فاعلنت ارتباطى بها وقبولى لها .

النحاس باشا — لقد صدرت تلك التصريحات فى وقت لم تكن فيه مفاوضات . فالروح التى أوحت بها غير الروح التى تحرك المتفاوضين فى وضع أساس الاتفاق . كما أنه لا يجوز مطلقا أن تحرم مصر من حقوقها الثابتة الحيوية بسبب حوادث فردية ارتكبت وأثبت القضاء براءة مصر وزعمائها منها .

مستر هندرسن — وماذا عساى أن أقول للبرلمان ، وهذه التصريحات لا يزال يتجاوب صداها فى أنحائه .

النحاس باشا — نحن الآن بصدد تسوية المسائل كلها، فلا يجوز أن يقوم أمامنا عائق من التصريحات التى صدرت فى ظروف وتحت مؤثرات خاصة . و إذا كنتم تتمسكون بتصريحاتكم الأخيرة ، فهل لمصر أن تتمسك بتصريحات ساسة الانجليز وكبرائهم فيما يختص بالجلاء ، إذ قد صدر لمصر منها مايزيد على الستين عهداً . وهذه جيوشكم لا تزال فى بلادنا ، فهل لنا أن نتمسك بهذه التصريحات كما تتمسكون بتصريحاتكم ؟

مستر هندرسن — أنا فى الواقع إنما أشير إلى تصريحاتى فى البرلمان . فقد أعلنت أكثر من مرة أن مسألة السودان ستظل خاضعة لاتفاقيتى سنة ١٨٩٩ . ثم إنى مرتبط بالمادة الواردة عن ذلك فى مقترحاتى وكيف أفسر تعديلها على الوجه الذى ذهبتم اليه ؟

النحاس باشا — إن كل ما نريده هو عدم الاشارة مطلقاً إلى اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ لأنهما ممقوتتان كل المقت فى مصر . ومع ذلك فهاتان الاتفاقيتان تنصان على إعطاء انجلترا نصيباً فى إدارة السودان ، ومادتنا تشير إلى وجوب اشتراك الطرفين فى ادارة السودان . فأى فارق هنالك فى الأمرين ! إن مصر لم تعترف قط باتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، ولم تقبل فى يوم من الأيام النتائج التى ترتبت عليهما . وكل ما نرجوه الآن أن يشترك المتعاقدان فى الادارة اشتراكا فعليا إلى أن توضع اتفاقات جديدة. فأى غضاضة فى ذلك، وأى ابتعاد فيه عن روح المقترحات فيما يختص بمسألة السودان ؟

مستر هندرسن — وماذا تقصد تماماً بعبارة الاشتراك الفعلى ؟

النحاس باشا — نقصد بذلك رفع القيود الموضوعة على حرية المصريين بالنسبة للسودان . أى حرية الهجرة اليه ، وحرية الاقامة فيه ، وحرية التملك كذلك ، ثم جعل الادارة السودانية فى أيدى المصريين والانجليز على السواء .

مستر هندرسن — ومن الذى يعين المصريين فى السودان ؟

النحاس باشا — الحكومة المصرية .

مستر هندرسن — هذا مستحيل . لأن حاكم السودان هو المسؤول وحده بحكم اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ عن النظام الادارى والعسكرى فى السودان . وهاتان الاتفاقيتان نافذتان ما لم تعدلا باتفاقات جديدة . والمادة التى وردت فى مقترحاتنا تترك الباب مفتوحاً لذلك .

النحاس باشا — إن طريقة الاشتراك الفعلى فى الادارة يمكن أن تنظم وتحدد فيما بعد . وإنما نريد التسليم بمبدئها ، لأن هذا لا يبتعد عن روح المقترحات ولا عن حكم اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ نفسهما .

مستر هندرسن — أؤكد لدولتكم أنه لولا الحوادث التى وقعت حديثاً فى السودان والتصريحات التى صدرت بشأنه لكان موقفنا اليوم غير ما ترى . ولكن المسألة ليست مسألة ما يجب أن يكون ، وإنما هى مسألة ما يمكن حمل البرلمان الانجليزى على قبوله . وإذا نحن قدمنا إلى برلماننا معاهدة فيها نص كالذى تقترحون فان البرلمان يرفضها رفضاً باتاً ، وتصبح المعاهدة لا تساوى الورقة المكتوبة عليها .

النحاس باشا — لا أستطيع أن أتصور أننا نعجز عن إيجاد صيغة مرضية تقبلها الأمتان . فليفكر كل منا ، ولنتعاون معاً . ولعلك تذكر يا مستر هندرسن أنى فى بلادى محل الثقة العامة فى الدفاع عن حقوقها كاملة فانظر كيف أصبحت طلباتنا معتدلة جداً ، ولا شك أنك بذلك تدرك صعوبة مركزنا .

مستر هندرسن — أعرف ذلك تماماً . كما أرجو أن تعرفوا أنتم أيضاً صعوبة مركزى وقد خطر ببالى هذه اللحظة أن أضيف عبارة على المادة الخاصة بالسودان الواردة فى مقترحاتى فنقول : إنه بعد كذا من السنين يعاد النظر فيها لعمل ترتيب جديد ولكن .. لا بد لى من استشارة زملائى أولا .

النحاس باشا — يجب علينا أن نفكر ونجتهد فى إيجاد صيغة مرضية من الجانبين .

ونحن نعرف أنه ليس من المصلحة أن نقترح اقتراحات مصيرها الرفض المحتم في برلمانكم . ولكن المسألة على أقصى جانب من الأهمية بالنسبة لنا . ولى كبير الثقة والأمل فى الوصول إلى حل مقبول .

مستر هندرسن — سوف نعمل كل ما فى وسعنا ، لأننا لابد أن نصل الى الاتفاق المنشود ولنترك الآن هذه المسألة .

•••

وفى أثناء دعوة الى العشاء بفندق هايد بارك ، عاد رئيس الوفد المصرى ، ووزير خارجية انجلترا إلى بحث أعقد نقط المفاوضات ، وهى السودان ، وذلك لأنها كانت المرة الأولى التى فتح فيها البحث على نطاق واسع لتصفية هذا الموضوع .

تولى الترجمة مكرم عبيد باشا ، وكرر المستر هندرسن الاشارة إلى صعوبة هذه المسألة ، وطلب أن يوافق الفريق المصرى على اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ فأكد له النحاس باشا عدم الحاجة إلى ذلك اكتفاء بقبول الادارة المشتركة فى السودان مؤقتا ، وهى جوهر الاتفاق المذكور . فقال المستر هندرسن :

— ماذا تعنون بالادارة المشتركة ؟ فقال النحاس باشا :

— نعنى بها أن يكون لنا وكيل مصرى لحاكم السودان العام وأن تكون الوظائف الأخرى موزعة بين المصريين والانجليز على السواء .

فسأل المستر هندرسن :

— ولكن سيترتب على ذلك مضاعفة عدد الموظفين لأداء العمل الواحد . وذلك يستدعى زيادة كبيرة فى المصروفات لا قبل لحكومة السودان بها . فقال النحاس باشا :

— إنى آخذ على نفسى من باب التسهيل أن أدافع ، بعد الاتفاق مع زملائى ، عن إبقاء مبلغ الاعانة السنوية التى تدفع للسودان وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه والتى يفكر

البرلمان دائما فى حذفها ، على أن يصرف هذا المبلغ على الموظفين المصريين والجيش المصرى الذى يعود إلى السودان . فقال المستر هندرسن :

— وهل لديكم بيان بعدد هؤلاء الموظفين ؟ فقال النحاس باشا :

— كلا ، ولكن فى الاستطاعة إعداد هذا البيان فى أقرب فرصة .

وتواعد المتفاوضان على إعداده :

وفى صباح ٩ أبريل سنة ١٩٣٠ قابل وفد من وزارة الخارجية البريطانية برياسة وكلائها النحاس باشا ، وقالوا له إن وزير الخارجية سيصرح فى البرلمان رداً على أحد الأسئلة بأن الحكومة البريطانية ستتمسك فى المفاوضات بنص اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ . وعلم النحاس باشا منهم أنه لا سبيل إلى تعديل هذه الاجابة ، لأن مجلس الوزراء البريطانى هو الذى أقر صيغتها . فسألهم النحاس باشا :

ولماذا عرضتموه على إذن ما دام لا يقبل التغيير ؟ . قالوا :

— إن المستر هندرسن قصد بذلك ألا تفاجأ ! !

وقد جرت عدة محاولات لتغيير صيغة مادة السودان فى المعاهدة ، وبعد جلسات كثيرة انتهى رأى المستر هندرسن إلى أن الانجليز لا يستطيعون قبول ما جاء بهذه المذكرة بخصوص البدء باعادة الحالة إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٤ ، كما لا يستطيعون فيما يختص بعودة الجيش أن يعرضوا شيئا أكثر مما ورد فى المقترحات .

أما عن مسألة الهجرة والملكية والتجارة ، فقال المستر هندرسن : إنه إذا لم يمانع حاكم السودان فانهم يقبلون أن ينص فى المذكرة الملحقة بالمعاهدة على أنه :

« لا يكون هناك أى تفريق بين الرعايا البريطانيين والأهالى المصريين فى السودان فى مسألة المتاجرة والهجرة أو حيازة الملك »

وقد أبلغ المستر هندرسن النحاس باشا بعد ذلك انه أرسل تلغرافا إلى حاكم السودان لأخذ رأيه فى ذلك فجاء الرد بالقبول .

ولما بدا أن المفاوضات توشك أن تنقطع بسبب مادة السودان ، اقترح الوفد المصرى نصاً جديداً هو :

« إذا نشأت أية صعوبة بين الطرفين المتعاقدين بالنسبة لتطبيق وتنفيذ اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ يوافق الطرفان على الدخول فى محادثات فى غضون سنة من تاريخ التصديق على المعاهدة بقصد الاتفاق على هذا التطبيق ، وفى نفس الوقت لا يكون هناك أى قيد على رعايا أى فريق من الفريقين المتعاقدين فى الملكية أو المتاجرة أو الهجرة »

وقد رفض المفاوضون البريطانيون هذا النص .

وفى ١٦ أبريل عقدت جلسة خاصة بموضوع السودان ظهر فيها بوضوح اتساع مسافة الخلف بين الفريقين وكان مما قال المستر هندرسون :

« أحب أن أذكركم بأن ثروت باشا حينما وجد أنه لا يستطيع إيجاد حل لمسألة السودان ، بينما هو يستطيع حل المسألة الكبرى الخاصة بمصر ، قرر بالاتفاق مع المستر أوستن تشمبرلن ألا يشير إلى السودان فى مشروع المعاهدة ، وأراد بذلك إثبات حسن نية الحكومة المصرية ، وأن يترك للزمن إظهار روح الصداقة من جانب مصر فتعمل التجارب الطيبة عملها فى اقناع الحكومة البريطانية بأنه لا خطر على مصالح البلدين المشتركة فى السودان إذا أجيبت المطالب المصرية الخاصة بها . وقد أظهر بذلك ثروت باشا حكمة سياسية »

ثم أردف :

« إنكم إذا كنتم ترون أنه يصح أن تقطع المفاوضات من أجل هذه المسألة ، فانى أقبل هذا الموقف آسفا »

ثم أبلغ الوفد المصرى أن انجلترا ترفض إعادة أورطة مصرية إلى السودان .

وكتب النحاس باشا إلى زملائه الوزراء فى مصر، رسالة لخص فيها موضوع السودان والخلاف عليه .

ثم استمرت المفاوضات فى تثاقل . وفى ٥ مايو سنة ١٩٣٠ قدم الوفد المصرى النص التالى :

« من غير مساس بحقوق مصر ومصالحها فى السودان اتفق الطرفان المتعاقدان على تأجيل مسألة السودان لمفاوضات مقبلة تجرى بينهما فى بحر سنة من التصديق على هذه المعاهدة » .

وقدم نصا احتياطيا كالسابق ، إلا أنه لم يحدد مدة السنة للمفاوضات المقبلة «وفى انتظار ذلك تعاد من الآن الحالة الفعلية التى كان عليها السودان قبل سنة ١٩٢٤ » .

ثم دارت المفاوضات . وأخيرا وفق الطرفان إلى نص أرضى الجميع وهو :

« مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، قد اتفق الطرفان المتعاقدان ، على أنه بغير إخلال بحقوق مصر ومصالحها المادية ، يكون مركز السودان هو المركز الناشىء من هاتين الاتفاقيتين ، وكاحدى نتائج اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، يواصل الحاكم العام بالنيابة عن الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى الاتفاقيتين المشار إليهما »

وتبادل الفريقان التهانى .

ولكن مجلس الوزراء البريطانى رفض هذا النص عندما عرض عليه ، وظهر أن الاعتراض منصب على الهجرة غير المقيدة الى السودان. فقد نص آخر تعديل بريطانى على ما يأتى :

« يجب ألا يكون هناك تفريق بين الرعايا البريطانيين والأهالى المصريين فيما يتعلق بمسائل الهجرة والملكية والتجارة فى السودان . وعلى ذلك يكون الرعايا البريطانيون والاهالى المصريون أحراراً فى حيازة الملك والاشتغال بالتجارة والصناعة فى السودان ، مع مراعاة القوانين واللوائح المحلية التى لا تتعارض مع التشريع الحديث فى مثل هذه المسائل .

« ويجب ألا تستعمل الرقابة التى تفرضها حكومة السودان لصالح السودان على دخوله والهجرة اليه ، استعمالاغير معقول لحرمان الرعايا البريطانيين أو الاهالى المصريين من حق دخول السودان أو الهجرة اليه » .

واعترض الفريق المصرى :

وأصر الفريق الانجليزى :

ثم وضع مشروع كامل للمعاهدة تركت فيه مادة السودان على بياض .

وفى ٨ مايو سنة ١٩٣٠ ، قطعت المفاوضات لهذا السبب ، وتبادل الجميع الأسف ، بعد أن تبادلوا التهانى .

وفى البيان الذى القاه النحاس باشا فى البرلمان المصرى بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٣٠ ذكر:

« ولكنا — مع الأسف — لم نصل إلى اتفاق على مسألة السودان يصون حقوق البلاد المقدسة ومصالحها الحيوية »

« ولقد كان قطع المفاوضات وديا للغاية ، بحيث اتفق الطرفان على عقيدة ثابتة ، وهى أن المستقبل القريب كفيل بتحقيق مافاتهما من تفاهم على هذه المسألة الحيوية ..»

•••

وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٢ التقى دولة اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزارة المصرية إذ ذاك بالسر جون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، وتحادثا فى عقد المعاهدة مع مصر ، فقال الوزير البريطانى ان الأساس الذى وضع فى عامى ٢٩ — ١٩٣٠ هو الذى يجب أن تدور عليه كل مفاوضات مقبلة . وذكر السر سيمون « أما بخصوص السودان ، فيجب فى الاتفاق أن يدور حول مبدأ الاحتفاظ بالادارة الحالية القائمة فى السودان — فاذا ما سلم بهذا المبدأ فيمكن البحث عن الوسائل التى يستطاع بها المحافظة على مصالح مصر المعنوية والمادية فى السودان » .

•••

وفى أواخر سنة ١٩٣٥ وأوائل ١٩٣٦ مهد لمفاوضات مصرية بريطانية جديدة، واتفق ابتداء على عدم التقيد بمشروع ١٩٣٠، أو أى مشروع سابق حتى تكون المفاوضات حرة

وفى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٦ صدر مرسوم فى عهد وزارة على ماهر باشا بتأليف وفد المفاوضة الرسمى برياسة مصطفى النحاس باشا، ومثلت فيه جميع الأحزاب المصرية.

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ انتهت المفاوضات بعقد معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى.

وورد فى المادة الحادية عشرة من هذه المعاهدة.

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن ادارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين، ويواصل الحاكم العام، بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين، مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين.

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين.

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان.

٢ — وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء.

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين.

٤ — تكون هجرة المصريين إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام.

٥ — لا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين و بين الرعايا المصريين فى شؤون التجارة والمهاجرة أو فى الملكية .

٦ — اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة فى ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية فى السودان.

ثم أورد الملحق قواعد سريان الاتفاقات الدولية فى السودان وورد فى محضر ملحق بالمعاهدة فقرة ١٤ :

« من المتفق عليه بالاشارة إلى الفقرة الأولى من المادة الحادية عشرة أن يقدم الحاكم العام إلى حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة وإلى الحكومة المصرية تقريراً سنويا عن إدارة السودان . وأن يبلغ التشريع السودانى إلى رئيس مجلس الوزراء المصرى مباشرة »

وورد فى الفقرة ١٥ :

« من المتفق عليه بالاشارة إلى الفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أنه بينما يكون تعيين الرعايا المصريين فى وظائف السودان الرسمية خاضعة بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الخالية ووقت خلوها ومؤهلات المرشحين المتقدمين لها ، فان أحكام تلك الفقرة تسرى فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة .

وتكون ترقية الموظفين فى حكومة السودان إلى أية درجة كانت بدون مراعاة للجنسية ، وذلك بالاختبار تبعاً للجدارة الشخصية .

ومن المفهوم أيضاً أن هذه النصوص لا تمنع الحاكم العام من أن يعين أحياناً فى بعض الوظائف الخاصة أشخاصاً من جنسيات أخرى ، إذا لم يتيسر وجود ذوى المؤهلات من الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين أو من السودانيين . »

و ورد فى الفقرة ١٦

« من المتفق عليه فيما يتعلق بالفقرة الثالثة من المادة الحادية عشرة أنه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب فى إرسال جنود إلى السودان ، فان الحاكم العام سيبادر بالنظر فى أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة فى السودان والأماكن التى يقيمون فيها والثكنات اللازمة لهم . وسترسل الحكومة المصرية فوراً بمجرد انفاذ المعاهدة ضابطاً مصريا عظيما يستطيع الحاكم العام استشارته فى هذه الأمور »

و ورد فى رسالة ألحقت بالمعاهدة من المندوب السامى (السفير الآن) :

فى خلال مناقشاتنا فى المسائل التفصيلية المتصلة بالفقرة الثانية من المادة (١١) اقترح ندب خبير اقتصادى مصرى للخدمة فى الخرطوم . وأبدى الحاكم العام رغبته فى تعيين ضابط مصرى سكرتيراً حربيا له . وقد علم بهذا الاقتراح والرغبة المشار اليها ، واعتبرا مقبولين من جهة المبدأ . كما أنه قد اعتبر من المرغوب فيه ، ومن المقبول أن يدعى مفتش عام الرى المصرى بالسودان إلى الاشتراك فى مجلس الحاكم العام ، كلما نظر المجلس فى مسائل متصلة بأعمال مصلحته »

وذكر رفعة النحاس باشا ، وهو يقدم المعاهدة إلى البرلمان المصرى عن مسألة السودان تفسيرات هامة منها :

« يرقى الموظفون المصريون إلى أعلى الدرجات ، ومنها وظائف السكرتيرين الذين لهم حق الجلوس فى مجلس الحاكم العام وهم بمثابة الوزراء عندنا ، وبذلك أصبح نصيب المصريين فى وظائف حكومة السودان على قدم المساواة التامة مع الانجليز .(١) »

و ورد فى تقرير لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب:

« أصبح لمصر بمقتضى المعاهدة نصيب عملى فى الاشتراك فى إدارة السودان ، وحق فى إعادة جيش مصرى اليه ، وتساو فى الوظائف بين المصريين والبريطانيين ، وحق فى

---

(١) فى خلال احد عشر عاما من عقد المعاهدة لم يصل أحد من المصريين إلى منصب السكرتارية لسبب بسيط وهو أنه لم يعين أحد من المصريين فى الوظائف السودانية .

الهجرة والتملك فى السودان [1] ، كما أصبح لها أن توثق العلاقات الاقتصادية بين البلدين بلا قيد ولا شرط . »

***

هذه هى المراحل المختلفة التى تقلبت فيها مسألة السودان، أو وحدة حوض النيل، بين المفاوضين المصريين والمفاوضين البريطانيين .

ويلاحظ من تتبع هـذه الآراء الرسمية ، أن الجانب البريطانى رسم لنفسه خطة ، من أيام ملنر ، أى منذ خمسة وعشرين عاماً ، لم يتجاوزها إلا قليلا ، وهـذا القليل لا فائدة منه بسبب اهمال مصر ، أو امهال بريطانيا .

وسيفتح موضوع السودان فى القريب ، وستبسط فيه نظرية مصر مرة أخرى. وللنظرية المصرية أصول قديمة ، وأصول حديثة . و بعض هذه الأصول هو ماسنعرض له بالتفصيل فى هذا الكتاب ، وعلى الأخص القسم الانسانى منها .

و إذا أفلحت بهذا الكتاب فى أن أقدم « مجاهل » النيل ، لأبناء النيل ، وأن أحبب اليهم التصعيد فى أعاليه ، والرحلة فى أدانيه وأقاصيه ، فانى أكون قد وفقت إلى شىء عظيم .. وأننا جميعا نكون قد حللنا أعظم مشاكلنا على النيل، حللنا العقد النفسية التى حالت دون أن نفهم ماذا يعنيه النص الواضح القاطع فى معاهدة ١٩٣٦ ، عن إباحة هجرة المصريين ، و إباحة التجارة والتملك ، بغير قيد أو شرط ؟

محمد صبيح

دار الثقافة العامة

فى { ٢٣ شعبان سنة ١٣٦٤
{ ١ أغسطس سنة ١٩٤٥

---

(١) لم تستفد مصر من هذه الميزة ، لأن المصريين مازالوا يعتقدون أن الهجرة والتملك محظوران . ولم يفد فى تبديد هذا الوهم أن المعاهدة نشرت وتوقشت وأقرت رسميا . ونرجو أن نلفت النظر إلى أن من حق كل مصرى أن يهاجر وأن يملك فى السودان اذا شاء .. فمن يشاء ! !

« شىء » من الخوف والجوع

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من »
« الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ... »

– ١ –

عتاب بين عاصمتين

تجمع الشعب فى حشد عظيم عند ضفة النهر ، فقد ترامت إليه الأنباء ، بأن القاهرة تحركت ، وأدركتها الرحمة بهؤلاء الذين أمسكهم الخوف ، وطارد الذعر أمنهم ونومهم فلا يقر لهم قرار ، ، ولا تهنأ لهم ساعة من ليل أو نهار . .

وتراءت فى الأفق البعيد أدخنة البواخر ، وتسامعت الآذان المرهفة دوى المراجل والمراوح ، فضج ضجيجهم وشاعت بين هذه الجموع الواجمة ابتسامات مشرقة أضاءت لها وجوه مغبرة . وهناك عند « المقرن » حيث يلتقى النيلان الأزرق والأبيض ، رست باخرة واحدة ، أدى لها الجند التحيات المباركات ، ثم هبطت منها « النجدة » المنتظرة ، وما أن رأى الناس هذه النجدة حتى تهامسوا فى دهشة بالغة : ثلاثة فقط تريد القاهرة أن تخيف بهم المهدى ، وتقضى على ثورته ! ! وتفرقت الجموع فى صمت ، وهى تطأطىء الرؤوس ، وتستنشق أنفاساً قصاراً خالطتها أتربة الخرطوم .

وركب الثلاثة إلى سراى «الحكمدارية» ، وكانوا : غردون باشا ، والكولونيل ستيوارت ، والضابط ابراهيم بك فوزى ، وعاد الناس فتجمعوا عند السراى ، حيث تلى عليهم فرمان التولية ، ثم أملى غردون خطبته التى ضمنها برنامجه .. قال :

« يا أهالي السودان عموماً : إن الجناب العالي الخديوي يسلم عليكم صغيراً وكبيراً ، أحراراً وعبيداً ، أناثاً وذكوراً ، وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وأمبراطورة الهند . وإنكم لا تجهلون شفقتي عليكم وحبي لكم . وقد ساءني ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم ، وتعطلت تجارتكم ، وسفكت دماؤكم ، ومنعتم من تأدية فريضة الحج التي هي من أركان الإسلام ، وزيارة قبر النبي عليه السلام. وقد أساء هذا الحال كلا من جلالة الملكة وسمو الخديو المعظم ، فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان ، ومفوضاً فوق العادة . وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاماً ، وفوض إلى الحكم المطلق . وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريتي ، واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربي برمته على شرط أن لا يمد يده لغيره .

« هذا وقد ألغيت جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ ، وقد تجاوزت أيضاً عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤ ، وأمرت باحراق دفاتر المتأخرات ، وأمرت باطلاق سراح جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم ، وعزمت منذ الآن على أن لا يكون أعضاء حكومتي إلا من الوطنيين ، حيث أنني أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه.

« وقد عينت عوض الكريم أباسن مديراً للخرطوم ، وأحسنت عليه برتبة الباشوية . ولي الأمل بأن العلائق ستصبح بيني و بين سلطان الغرب وثيقة العرى . وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون ، وإتلافها ، وسحب الجنود منها لتلتفتوا إلى عمران بلادكم ، وحرث أراضيكم وإنماء تجارتكم ، ومني عليكم السلام »

ولم يجب أهل الخرطوم على هذه الخطابة بكلام ، لأن دموعهم تولت الجواب ،

فقد أخذت تنهمر ، لأنهم أيقنوا أن هلاكهم المحقق ، فى هذه الخطة التى سمعوا الحاكم الجديد يرددها على مسامعهم .

وإذن فقد ضاع الأمل فى أن تنجد القاهرة أختها الخرطوم وهى فى محنة الخوف واليأس . . لا بل لقد تأيد ما قيل من أن استقالة شريف باشا رئيس النظار كانت من أجل إصراره على رفض إخلاء السودان ، قائلا كلمته المشهورة : « إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا » . فلما تولى نوبار باشا الحكم مكانه ، كان برنامجه هو أن يقبل ما رفضه سلفه العظيم . .

•••

وآوت « الخرطوم » إلى ظل ظليل ، وأخذت تستعيد فى ذاكرتها رحلتها فى الحياة، وما ارتبطت به مع أختها القاهرة من روابط القربى ، وآصرة الدم المشترك .. أليس النيل أبوهما معا ، أنشأهما انشاء ، وحنا عليهما أطفالا ، ثم سايرهما بالبر والوفاء حتى نما عودهما ، وأصبحتا بين المدائن عروسين ترمقهما العيون ، وتهفو إليهما النفوس . وأدركت الخرطوم سنة من النوم ، ورأت فيما يرى الوسنان شيخا جليل القدر ،فارع الطول والعرض ، يملأ النظر ، ويقيد الخاطر .. قال الشيخ : رفقا بنفسك يا بنيتى ، فانى أراك اليوم مكدودة مهمومة ، وعهدى بك طروبا لعوبا ؟

وتطلعت « الخرطوم » إلى محدثها ، فاذا هو صاحبها القديم « التاريخ » الذى عرفته منذ عرفت الحياة ، ولم تتردد ، فقد أخذت تفضى إليه ، تشكو بثها وحزنها . وألقى التاريخ عصاه ، وجلس فى تؤدة ، ثم سحب من تحت أثوابه أوراقا أخذ يقلبها ويسمع من الخرطوم ثم يقول لها .. ونحن نلخص هنا ما علمناه من حوار المتحادثين فلعله يهمنا ، ولعل لنا فيه ذكرى وعبرة :

قالت الخرطوم على مسمع من صاحبها الشيخ الجليل ، وهى تناجى على البعد أختها الكبيرة القاهرة :

— لا أزال أذكر ذلك اليوم الذى وفدت فيه جنود محمد على الكبير إلى هذه الأرض ، تحمل راية الحضارة والعمران ، وتضم أفراد الأسرة الواحدة إلى بيت واحد . وقد اختار قائد الحملة الأمير اسماعيل هذه الأرض بالذات — ولم تكن تضم غير أكواخ من الغاب — لكى تكون مقر معسكره ، والنقطة التى يشرف منها على النيل كله . وكان قدوم الأمير فى صيف سنة ١٨٢١ ، بعد أن قطع مع جنده نحو ١٢٠٠ كيلومترا على شاطىء النيل منذ تحرك من أسوان .

وبعد شهور قليلة — فى اكتوبر من ذلك العام — وفد إلى الخرطوم الوليدة ، البطل المصرى العظيم الأمير ابراهيم فاتح الحجاز ، وجاء معه الخير الذى كان الناس يرجونه .. جاء بالطعام وبالثياب وبالمال الوفير . وأخذ يدرس مع أخيه خطة فتح السودان ، واتمام سيطرة حكومة النيل المنظمة على بقية أجزاء النيل .

وحاول ابراهيم باشا أن يصعد فى النيل مخترقا جزيرة سنار ، إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ثم يتابع المسير إلى منابع النيل الاستوائية . وتحدث الفاتح المصرى مع المسيو كايو أحد العلماء المرافقين للبعثة عندما قابله فى اكتوبر سنة ١٩٢١ قال [(١)] :
« اننا سنكشف النيل الأبيض فى حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى تستطيع أن تمضى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات ، وستكون وجهة هذه العمارة النيلية أن تنحدر فى النهر وروافده حتى تصل إلى منابعه »

وتحدث الأمير اسماعيل إلى المسيو كايو أيضا ، وكان عائدا إلى فرنسا ، قال له :
« اذا ذهبت إلى فرنسا فانشر ما وصلت إليه من المعلومات ، ثم عد إلى مصر ، فانك

---

(١) عصر محمد على لعبد الرحمن بك الرافعى

ستجد أبي لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التي وصلنا إليها ، بل سنبذل جهودا أخرى ، وسأصحبك بنفسي إلى منابع النيل الأبيض »

وقد مرض ابراهيم باشا بالدوسنطاريا فعاد ، وصادف اسماعيل حظ سيء فوقع في كمين احترق فيـــه هو وأركان حربه ، ومع هذا استمرت حركة الفتح ، ونظم السودان اداريا ، وولى عليـــه محمد على خيرة رجاله لادارته ونشر العمران فيه ، كما زاره هو بنفسه في اكتوبر عام ١٩٣٨ وأقام في رحلته نحو خمسة أشهر ، وقد أعجبه مارأى في الخرطوم من مظاهر العمران ، وامتداد الدور المبنيه على أحدث طراز ، ولم يـكن السودان حتى ذلك الوقت يعرف مادة للبناء غير القش وأعواد النبات . وأنشأ حكام السودان المصانع ، وترسانات السفن النيلية ، وامتدت الحدائق الجميلة والمزارع المثمرة في كل مكان .

ولم تـكن الخرطوم هي المدينة الوحيدة التي أنشئت في ذلك العهد ، بل أنشئت كسلا وفامكه في اقليم سنار . وعني الحـكام المصريون بتسيير بعوث الـكشف على بحر الجبل وكان آخرها وأهمها بعثات سليم بك قبطان ، وسليمان كاشف التي وصلت إلى جزيرة جونـكر على الخط الخامس من خطوط العرض ، وهذا المـكان يواجه مدينة غوندوكرو . وقد ارتادت بعثات محمد على هذه الأماكن مراراً حتى أصبحت مطروقة معروفة .

●●●

وتابع المتحدثان أحاديثهما عن صلات القاهرة بالخرطوم ، ووصلا إلى عهد سعيد باشا .. هذا الحاكم الطيب الصريح . وأخرج التاريخ من جعبته أوراقا هي صور فريدة لرسائل كانت تصدر من ديوانه ، وكانت قراءتها تحرك النفس بالغبطة والابتسام .

كتب سعيد باشا إلى حكمدار السودان في ١٣ ربيع أول سنة ١٢٧٣ :

« اعلموا أن ارادتنا اقتضت تحريك ركابنا من جهة مصر المحروسة بقصد الحضور

لى جهة السودان و بعد خمسة عشر يوماً تمضى من تاريخ أمرنا هذا يكون القيام من هذا الطرف ، فيلزم أن بوصول أمرنا اليكم حالا سريعاً تجمعوا كافة العساكر الجهادية الموجودين فى جهة السودان ليكونوا حاضرين جميعاً بآلاتهم فى الخرطوم . كذلك تجمعوا فيها كافة المدافع الموجودة المهيأة المطقمة وتبذلوا غاية الجهود فى تجهيز واستحضار سائر ما يلزم من المأكولات وخلافه بحيث أنه عند حضورنا لذلك الطرف بهمتنا نرى كل شىء فى غاية الاستحضار والتجهيز ولا تبدوا مشقة بسبب قلة وجود اللوازمات والحزر [1] كل الحزر من العمل بخلاف ذلك أو التقصير فيه لئلا يكون هذا سبباً لهلاككم بلا محالة . . بحاولوا بنهاية ذلك حسب المطلوب كما اقتضه ارادتنا »

وفى ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ أرسل سعيد باشا أمراً عالياً إلى سلطان دارفور نصه :

من محمد سعيد كافل الديار المصرية وما تابعها من الأقاليم السودانية إلى حضرة عريق الحسب والنسب ، والمتمسك من الدين بأقوى سبب ، حضرة السلطان محمد فضل سلطان دارفور ، لازال حظه من الهداية بوفور !

أما بعد حمدا لله العلى الأعلى ، والشكران شكراً يدوم ولا يبلى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الكريم المنزل فى حقه « وانك لعلى خلق عظيم » ، وعلى أصحابه المهتدين وخلفائه الراشدين . وأهدى ما يليق بذلك المقام العالى من السلام والتكريم ، واسداء ما يجب من التحسن والتبجيل والتعظيم ، فانه بحسب ما جبلنا عليه بعناية الملك الخلاق من مكارم الاخلاق ، و وفقنا له تعالى من الاخذ من حظ المزاج لرعايانا بأوفر خلاق ، تحركت ركائبنا حتى حل الآن موكبنا بالأقاليم السودانية التابعة لجهاتنا المصرية بقصد تفقد أحوال الرعية ، وملاحظة اداء حقوقها المرعية واجراء ما فيه المصلحة العمومية والمنفعة

(١) المقصود « الحذر » ، وقد أثبتنا هذه الرسائل بنصها لما فيها من طرافة .

الاهلية اللازمة لرفاهية العباد ، الموكولة لحسن أنظارنا وراحة البلاد المحيطة بها دائرة أفكارنا ، كما جرت به عادتنا وتعلقت به همتنا هـذا هو قصدنا لا قصد لنا سواه ولا مطمح لنا فيما عداه .

وحيث كنا من بعض بمكان المجاورين ، وكانت الاهالى فى كل من الجهتين لمصلحة التجارة ومنفعة العمارة على الدوام واردين ومترددين ، فقد رأينا من الواجب أن نحرر لحضرتكم هذا الكتاب ونسطر لسيادتكم هذا الخطاب لنحيط علمكم الكريم بحقيقة الغرض المقصود من تنقلاتنا إلى هـذه الجهة التى هى إحدى جهاتنا ، وتحصيل التيقن بما نحن مصممون عليه من استمرار المحبة واستقرار المودة ، التى هى بين المتجاورين أعظم عدة . كما أن ذلك حق المتجاورين والله يحب المتقين ولتكون حضرتكم من أسرار سرائرنا على بصيرة والاعين تبق ترينا من هذه الجهة مسرورة قريرة ، لا سيما وتجمعنا مع حضرتكم جامعة الاسلام . ولا أريد إلا الاصلاح ما استطعت والسلام .

وكان اسماعيل باشا (ابن أخى سعيد باشا) رئيس المجلس العالى أو مجلس الوزراء أثناء هذه الرحلة كما كان نائباً عنه فى القاهرة . وقد كتب سعيد باشا من الخرطوم يقول له :

« حيث أنى سأجرى بنفسى ترتيبات جميع المديريات فى الخرطوم ماعدا مديريات دنقلة والبربر والجاعلين ، فلأجل ذلك كتبت لكبار المشايخ والعمد جميعهم أن يذهبوا إلى الخرطوم قبل وصولى إليهـا ، وقد نظمت ، وأتممت الترتيبات الموجبـة لاستراحة الأهالى ورفاهيتهم فى مديريات البربر وجاعلين اعتبـاراً من أبو حمـد لغاية شندى ، ووصلت أمس إلى الخرطوم ، وحيث أنى بالذات قائم باجراء الترتيبات فى مديريات تاكا وكردفان وفى فازوغلى وسنار على الوجه المطلوب . وبعون الله تعالى قد صممت

وعزمت على التوجه لدنقلة فى غرة شهر جمادى الآخرة ، فبعد أن أتمم ترتيب وتنظيم مديرية دنقلة كما هو مقرر ، سأعود إلى مصر . فبناء عليه يجب ألا تقيموا لى زينة عند وصولى إليها . وإذا أرادت الذوات الذين تشرفوا بتوديعى عند السفر ، أن يحضروا لاستقبالى ، فلا بأس . وما عدا ذلك فالاجتماع لاستقبالى بحجة اتباع الأصول غير مرغوب فيه ، فلذلك يجب التنبيه على الجميع على الوجه المحرر ، لذلك حررت هذا لدولتكم »

حاشية : يجب التنبيه على الذين يرغبون فى الحضور لاستقبالنا ، كما ينافى أمرنا العالى أنه ليس من الضرورى أن يكونوا بملابس التشريفة . لذلك حررت هذه الحاشية .

ويظهر أن شيخ مديرية التاكه لم يحضر لمقابلة سعيد باشا فكتب له هذا الخطاب العنيف بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣

« قد عرض لدينا ما حررتموه إلى حكمدار السودان فى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ بالاعتذار عن الحضور بأقوال مطولة لا فائدة فيها ، والحال ياخنزير أنت تعلم أن أوامرنا من وجوب الإطاعة لها والانقياد ، وعدم مقابلتها باحتجاجات باطلة . فبوصول مرنا هذا يلزم حضورك حالا وسريعاً من دون تأخير كما سبق التحرير لك بناء على إرادتى . وإن لم تحضر نرسل لك من يعدمك الحياة ، ويكون معلومك »

وفى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ ، أصدر سعيد باشا الأمر التالى إلى الشيخ فضل الله ولد سالم شيخ عربان الكبابيش :

« إنه لما حل ركابنا بالأقاليم السودانية ، ووجدنا ما عليه أهلها من التعب والمشقة فبحسب ما تعودت به مراحمنا وشفقتنا ، أمرنا بما به انجبرت قلوبهم ، وزالت حسراتهم والجميع صاروا فى أعلى درجات الراحة ، وما يؤيديه إلى اكتساب الرفاهية والعمار .

وحيث انكم من جملة من حفتهم عنايتنا ، وأفيضت عليهم احساناتنا . و بسبب هذه النعم الكثيرة صرتم بالطبيعة فى كال طبقات حب الوطن . ويجب عليكم السعى والاهتمام فى المساعدة ، وردع من يقصد السوء والفساد ، فبناء على ذلك مأمولنا فيكم أن تجدوا بأنفسكم إلى دفع ما فيه الضرر والسقامة ... الخ »

وفى نفس اليوم صدر فرمان من سعيد باشا بتنصيب أراكيل بك مديراً على مديرية الخرطوم خاطب أهل السودان فيه بقوله :

« إعلموا رعاكم الله أنه بناء على ما جبلت عليه طبيعتنا ، وانصرفت إليه مكارمنا من التحبب إلى عمارية البلاد ، ورفاهية العباد ، والنظر فيما يؤدى إلى راحة البلاد ، والنظر فيما يوجب تحسين الأحوال ، وقد تحرك موكبنا للقدوم إلى الأقاليم السودانية لنطلع على أحوال أهاليها ، ونعاملهم بما يتبين عليه العمار فى قاصيها ودانيها ، ونرفع عنهم ما كلفوا به من ثقيل الأحمال .... »

ثم خاطب الحكمدار الجديد بقوله :

« وأنت يا من رأيناك أهلا بهذا المنصب الكبير والمقام الجليل الخطير ، عليك بتقوى الله ، وعامل الناس واجتهد فيما فيه الحفظ والإصلاح ، وتوريد المطالب الأميرية على واقع ما صار ربطه بدون زيادة ولانقصان »

ونجد فى مجموعة أوامر سعيد باشا أمراً بتاريخ ١٩ ذو الحجة سنة ١٢٧٥ (أى من نحو تسعين سنة هجرية) أمراً هاماً أو « ارادة » موجهة إلى اسماعيل عاصم باشا ناظر الداخلية يقول فيه :

« حيث أن المستر فربس الانكليزى الذى سيذهب لكشف منبع النيل سيسافر

على سفينة بخارية صغيرة ، التمس منى إصدار إرادتى بأن يصرف له نصف (طونولاته) فحم كلما يصل إلى محطة فى الوجه القبلى ، يكون بهما فحم ، وحيث أن بعض الآلات الطبيعية الموجودة فى سفينته الصغيرة المذكورة تكسرت أثناء مروره من ممر (بوغاز) رشيد ، وهو مقتنع بوجود مثل هذه الآلات فى مخازن الهندسة الذى فى بولاق ، فبناء عليه يطلب إعارة الآلات المذكورة اليه بصفة أمانة لاستعمالها فى مهمته بشرط أن يردها عند عودته على هيئتها الأصلية بدون أن يمسها أدنى ضرر وأقل خسارة ، وحيث إن التماسه واستدعاءه اقترن بمساعدتى فبناء عليه عندما تحيطون علما بذلك، يجب أن تبادروا بارسال التعليمات المذكورة لمديرى الوجه القبلى بخصوص إعطاء الفحم المطلوب للمسيو المومأ اليه ، من المحطات على الوجه المشروح وباعطاء الأوامر للجهات اللازمة لتسليم الآلات الآنف ذكرها بصفة أمانة وقد حررنا لكم هذا الاجراء موجبه » (١)

***

ومن يقف على هذه الأنباء ، على رحلة الخرطوم فى الحياة منذ ميلادها أيام محمد على، حتى عصر سعيد ، يعلم أن وطن النيل قد وجد خلال عشرين أو ثلاثين سنة من مسير العساكر المصرية قاصدة أعالى النهر . وقد جرى على لسان سعيد باشا ،وهو يملى أوامره، ذكر كلمة الوطن ، وهو يتحدث مع أحد مشايخ السودان الكبار ..

---

(١) هذه الرحلة كانت مرحلة جديدة فى التسابق الجدى بين مصر وانجلترا للظفر بمنابع النيل . فقد ذكر ابراهيم باشا فوزى — وأيد الأمير عمر طوسون رأيه — انه علم من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على باشا أن دولة أوربية (انجلترا) كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل ، فاهتم لهذا الخبر أكبر اهتمام ، واستشار كثيرا من المهندسين الاوربيين الذين جىء بهم من بلادهم الى هذا القطر ، فأمروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد عقباه حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ حملة السودان . .

وأورد الرافعى بك نقلا عن «سدنى بيل» أحد نبلاء الانجليز فى كتابه ضبط النيل والسودان : « كانت العوامل التى حملت محمد على على أن يفتح السودان كثيرة ، ولكنه كان من المعتقدين فى فوائد الرى ومنافعه ، فيرجح كثيرا أن يكون الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى أحد أغراضه »

وسنرى فيما بعد ما انتهى اليه أمر هذا السباق التاريخى الخطير .

وإذن فلم يكن صوابا ماذكره ملنر فى تقريره من أن فتح السودان كان نكبة على مصر، وعلى السودان معا .. لم يكن صوابا لأنه أنشأ « الوطن » فى حدوده الطبيعية، ولأن حكام مصر كانوا ينظرون إلى السودان وأهله، لا على انه مستعمرة، أو أرض غريبة ضمت بحق الفتح، ولكن كما ينظرون إلى أهل الغربية أو قنا، أو بقية مديريات الديار المصرية.

وإذا كانت الادارة الانجليزية قد نجحت فى إقرار الامن بالسودان منذ أوائل هذا القرن فقد كان نجاح الادارة المصرية فى هذا الباب مدعاة للكثير من الدهشة .. وهى الادارة التى وجدت ابتداء من الربع الثانى للقرن التاسع عشر.

نقل الرافعى بك فى تاريخه الحركة القومية عن الكونت بنديتى « Benedetti » قنصل فرنسا فى مصر: « إن الاهالى والأجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا أنى شاءوا فى البلاد التى يحكمها محمد على سواء أكان ذلك فى حوض النيل إلى أقاصى حدود السودان، أم فى سوريه وجزيرة العرب. فان صرامة العدل الذى أقام ميزانه فى كل ناحية لا تقبل هوادة ولا ضعفا، فالسودان قد ساده الامن كما ساد غيره من البلاد التى حكمها. ففى كردفان مثلا، لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفردا، استطاع الرحالة « بالم » أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه إلا خادم واحد، ولم يقع عليه أى اعتداء أو أذى. وكذلك ساح فيه الرحالة « كوتشى » مطمئناً سنة ١٨٣٩، وساح الامير الالمانى « بكلر مسكو » فى السودان إلى الخرطوم دون أن يناله سوء. وجاءت أسرة المسيو « مولى » إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهة كما لو ساحت فى ربوع إيطاليا »[1]

وقال المسيو « جومار »: من ذا الذى كان يظن قبل أربعين عاماً فقط، أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الابيض إلى ضفاف السين (باريس) فى اثنين وثلاثين يوماً، وتصلنا من « فزنفور » عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء فى خمسين يوماً!!»

(١) كتاب ديهران ص ٢١٥

نجحت الادارة المصرية الأولى فى السودان نجاحا منقطع النظير، على الرغم من عدم توفر المواصلات ولا وسائل النقل السريع — كان ذلك منذ أكثر من قرن — وأخذ أهل السودان وأهل مصر منذ اليوم الأول يندمجون ويتزاوجون، ويكونون جماعة واحدة أينما حلوا ...

وعلى الرغم من تفشى نزعات التعصب الدينى فى ذلك العهد، لم نسمع أن أوربياً أضير فى السودان أو فى مصر بسبب دينه . . لا بل نسمع أن ولاة مصر الأول سمحوا لإرسالية دينية بأن تقيم فى « خرطومنا »، وأن تؤسس أول كنيسة فى السودان .

•••

وننتقل الآن إلى مرحلة جديدة من تأملات الخرطوم وذكرياتها، وهى تقلب صحائف الماضى، لنقف عند عصر اسماعيل، ونستنطق وثائق التاريخ ماسجلته عن أيامه

كان من الأوامر الأولى التى وجهها الخديوى اسماعيل باشا إلى حكمدار السودان (موسى باشا) وذلك فى عام ١٢٧٩ هجرى :

« .... أن تبذلوا غاية جهدكم ومساعيكم لتأمين الطرق والمسالك ولحفظ الحدود بالدقة والعناية . ولتأسيس أمنية (أمن) واستراحة السكان الأجانب وأهل البلاد، ولاستكمال كافة أسباب زراعاتهم وتسهيل وتوسيع تجارتهم كما هو مأمول ومنتظر منكم ليعيشوا آمنين ومطمئنين مرفهين .

وفى رجب سنة ١٢٨٠ كتب الخديوى اسماعيل أمراً عالياً « إلى فخر الأوائل والأواخر الملك المعظم السلطان المفخم محمد الحسين المهدى سلطان مملكة دارفور ... » يوافق فيه على طلب السلطان باستمرار مندوب حكومة مصر السيد موسى العقاد وكيلا فى الاشراف على شؤون سلطنة دارفور، كما عينه سمو سعيد باشا . وكان اثنان من أهل دارفور يحملان هذا الالتماس إلى اسماعيل باشا ... « وقد شملنا المذكورين باعانتنا،

وأجريناها على عوايد رعايتنا ، وسيحصل إن شاء الله لـكل من يأتى من ذلك الطرف الجليل ما لا مزيد عليه من الترحيب والتـأهيل والمساعدة والتسهيل » ثم أرسل معهما لسلطان دارفور هدية من سكر أبيض (١٢ قنطاراً) ، وطاسة مكتوب عليها آية قرآن ، وملابس ، وسجاجيد ، و ٢٠٠ أقة من الجمع ...

ووصل اسماعيل باشا إلى أعظم ما وصل إليه منظم إدارى ، وحاكم نافذ البصيرة، وهو يعمل لائحة جديدة لحـكم أعالى النيل ، أو مديرية النيل الأبيض كما كانت تسمى

فقد كتب إليه جعفر باشا حكمدار السودان يستأذنه فى إدخال بعض إصلاحات على جنوب السودان ، فـكتب له اسماعيل باشا ، كتاباً مفصلا يقع فى ١٨ بنداً غير المقدمة والخاتمة نوجزه فيما يلى :

● ذكر فى البند الأول أن تنظيم الحـكم فى هذه المناطق جديد ، يتم للمرة الأولى . وأنه يحتاج إلى ميزانية لا ينظر فى تقديرها إلى حصيلة الضرائب الواردة منهـا ، وذلك لأنه « يتعذر حصر كامل ارتباطاته دفعة واحدة ، ما لم يكن بالأخذ والمراعية لأحوال المـكان والزمان شيئاً فشيئاً . وبهذا فكلما نظر ضرورة صرفه ، بما يرى فيه اللزوم لادارة وعمارية هـــذه الجهة ، وضبط وسريان واتساع دايرة التجارة بهـا ، فيجرى صرفه من الحـكومة بافادات من الحـكمدارية ، بدون أن يتكلفوا أهالى تلك المديرية بما لا طاقة لهم به ، لأجل تأليف طباعهم إلى العمارية ، وحسن التوطن ، كما أن ذلك أمر موجب لراحة الأهالى »

● لا يجند أحد من أهل تلك المناطق تجنيدا اجبـاريا . ومن يتطوع يعطى لأهله ٢٥٠ قرشا لأجل أن ينتفعوا بهذا المبلغ فى اصلاح شؤونهم . ويـكون الصرف على يد كبراء الجهة الذين هم بها .

● لا تفرض ضرائب زائدة على أهل هذه المناطق ، لاستمالة قلوبهم إلى الاستقرار ،

وحب الوطن ، والانتقال من الحالة الوحشية إلى حالة التمدن ، مع الأمن الكافى لهم .

كما نبه اسماعيل باشا على الضباط والمستخدمين جميعا بأن يعامل أهالى هذه المناطق « بحسن الخلق ، وخفض الجناح ورعاية لين الجانب فى الأخذ والعطا ، مع رفع حركات التحقير لهم ، والاعتراض عليهم » .. وهكذا صدق الخديوى وهو يقول ان الشفقة الخديوية شملتهم ، لأنهم غير داخلين تحت دائرة التمدن ، والمأمول قرب تمدنهم ويكون ذلك عنوانا لشرفهم .

- كل تموين الحكومة ، يجب أن يدفع ثمنه ، كما يجب أن يلغى العمل الاجبارى تماما ، وتدفع أجرة كل شخص يكلف بعمل من زنوج الجنوب . على أن يكون الدفع بحسب أثمان الوقت ، والأجر الحالية ، والعملة الجارى تداولها هناك .

- لم يتعود أهالى الجنوب على الزراعة ، ولم يذوقوا حلاوة التكسب منها . وقد قضت هذه اللائحة ، بأخذ الناس بالرفق، وتكليف جنود الحامية بارشاد الأهالى لأنهم فى الغالب من فلاحى مصر ، وأن تبنى السواق ، وتقدم البذور على نفقة الحكومة ، وذلك لأن « الغاية القصوى انما هو تأسيس وتمكين عمارية تلك الجهة ، وتكسب أهاليها ودخولهم تحت تناول المنافع والثروة والتمدن شيئا فشيئا »

وزاد اسماعيل باشا ، فأعفى كل أرض يزرعها الأهالى من الضرائب ، على أن تكون ملكا للزارع « لأجل كمال حسن الترغيب والتشويق فى ذلك للأهالى .. وحتى يلجئهم ذلك إلى زيادة الميل وحب الوطن وحسن استقراره .. هذا مع مراعية رفع التعرض للأهالى فى ذلك ، وبهذا فانه مأمول فى جانب الله تعالى بأنه فى أقرب زمن يصير انتشار منافع الزراعة فى الأراضى الصالحة فى تلك الجهات متى تعاموها الأهالى ، واستطعموا مزاياها ، ويترتب على ذلك كثرة العمارية والاستئناس بالغيطان والسكان شيئا فشيئا »

● ولم يقتصر برنامج الخديوى على نشر الزراعة ، ولكنه فكر أيضا فى نشر الصناعة ومظاهر العمران فجبب إلى أرباب المهن السفر إلى أعالى النيل بمضاعفة أجورهم . ولم يقتصر الأمر على ارسال حملة الفنيين « من بنايين ونجارين ومهندسين» على تشييد مبانى الحكومة وورشها ، بل رأى ضرورة تعليم زنوج هذه المناطق الحرف والصناعات « مع ائتلاف الأهالى فى دخول من يرغبوا دخولهم من أولادهم للتعليم وتعاطى مشغولات تلك الصنايع ، وارشادهم إليها بالرفق والترغيب لأجل سعة استعمالها ، واشتغالهم فيما يوجب أمور تكسبهم »

وقرر اسماعيل باشا مكافأة لنشر التعليم الصناعى ، لا للمعلم الذى يدرب الأهالى ، فقط ولكن أيضا لكل فرد من الأهالى يتقن حرفة . وليس هذا فحسب ، ولكن يعان كل ناشىء فى مهنة من طرف الحكومة «بما يثبت اقدامه لرسوخ الاشتغال فى تلك الصناعة حتى يتمكن انهماكه فيها ، ورواج حال معيشته منها » .

● وأمر الخديوى بانشاء محطات كثيرة للحكومة ، تفد إليها وتقوم منها المتاجر بطريق البر وطريق النهر . ولاحظ الخديوى منطقة السدود ، فقال إن تصميم سفن الحكومة سيكون بحيث يكفى لسيرها وجود شبرين من الماء ، ونبه إلى ضرورة إنشاء اسبتالية للمرضى فى كل محطة ترتب لها أصناف الأدوية والحكماء والتومرجية ، ولأجل تعميم المرحمة والرأفة بأحوال الأهالى وغيرهم ، قد سمحت الادارة أيضا بوضع حكيم واحد فى كل محطة ، ويعطى له الأدوية المقتضية لمعالجة من يقتضى الحال الى معالجته ممن يتواجدوا فيها من العساكر وساير الخدمة والأهالى والتجار ، وكامل مصاريف ذلك تحسب من الخيرات والاحسانات الخديوية »

● وانتقل برنامج اسماعيل باشا إلى نشر اللغة العربية بين زنوج هذه المناطق ، لأن وحدة اللسان « من أحسن الأسباب الموصلة .. وهذا التعليم يكون لاطفالهم أقرب وأنجح وأقربه ما كان بواسطة تعليم القراءة والكتابة » وأمر بارسال المدرسين زيادة على أئمة

الأورط العسكرية ، ورصد مكافآت للمدرسين والتلاميذ الذين ينجحون « بقدر مايبعث فيهم زيادة الرغبة فى التعليم والتعلم » .

● ونبه على اختيار أفراد من ذوى المكانة بين الأهالى للاشراف على المحلات ورياسة القبائل . وأمر بمنحهم الكساوى الأميرية ، وضرب مثلا باثنين اختارتهما الحكومة فأديا عملهما بامانة ونجاح . كما أمر بتعيين مترجمين فى كل محلة حكومية ليكونوا واسطة التفاهم بين الاهالى وهيئات الحكم ، إذ أن لغة الزنوج غير اللغة العربية .

● وانتقل الخديوى إلى ضرورة معاملة الأهالى بالعدل الذى هو أساس العمران ، وأشار إلى أخذ المذنبين من الزنوج بالرفق لقرب عهدهم بحياة الغابة « فلجهلهم لايخلو الحال من حصول بعض أمور مغايرة منهم فى حق بعضهم أو فى حق غيرهم نظراً لعدم إدراكهم بعواقب الأمور ، وهذا يمكن ازالتها تارة بالتعليم ، وتارة بالترهيب والتخويف وتارة بالعقاب الملائم إلى مقتضيات الوقايع .. مع عدم التمسك بالعقاب فى كل حادثة من أول وهلة ، الا فيما إذا كانت الجريمة من أنواع القتل » وأمر فى هذه الحالة بان يقبض على الجانى ، وأن يحقق معه المدير بنفسه زيادة فى الاحتياط ، ويحجز حتى ترفع الاوراق إلى الحكمدار فى الخرطوم ليبت فيها .

ولكن الخديوى عاد فنص على أن تكون معاملة المذنبين كمعاملة الوالدين فى تربية أولادهم « من غير حدة أو قساوة » كما نبه إلى ضرورة تدريب الأهالى على أصول المعاملات ، وتنفيرهم من الأذى والاغتصاب . ويجب أن تكون العقوبات تدريجية ففى أول مرة خفيفة ثم يشدد الجزاء تدريجياً .. وهكذا .

أما الموظفون الذين يجترئون على حق الاهالى أو يرتكبون ذنوبا تقع تحت طائلة القانون ، فقد أمر الخديوى بتشديد العقوبة عليهم ، بعد التحقق من الذنب ، وأن تعلن العقوبة على الجميع عبرة لمن يعتبر .

● وكانت ميزانية موظفى هذه المنطقة ١١٥ جنيها وخمسة وثمانين قرشا ، فأمر بزيادة

الاعتمادات المخصصة لها ، بحيث تواجه هذا البرنامج الضخم الذى أعده الخديوى .

● ونبه الخديوى الموظفين إلى ضرورة رعاية الأمن فى هذه المناطق ، وعلى حد تعبيره : تنوير جميع مسالكها بنور الأمن ، بحيث يسهل على التجار والرواد أن يفدوا اليها سواء كانوا من رعايا الحكومة أو « رعايا وحمايات الدول المتحابة » وليس معنى حماية الوافدين أن يهضم حق أحد من الأهالى .. لا بل منع الخديوى منعا باتا اغتصاب شىء من الأهالى أو حدوث تعد عليهم من أى أحد مهما يكن مركزه .

كما أمر الخديوى بالغاء الأوامر السابقة التى كانت تقضى بمنع التجول فى هذه المناطق وتفتيش جميع السفن ، ولو أنه أشار بضرورة إعطاء التعليمات اللازمة للذين يفدون لأول مرة لراحتهم وأمنهم .

هذا مجمل التنظيمات التى وضعها الخديوى «المفترى عليه» اسماعيل باشا لنشر الحضارة والمدنية فى قسم من حوض النيل الذى تولى أمره ، وهو أعالى حوض النيل .

***

وقصة التوسع فى نشر الحضارة المصرية حتى تشمل البحيرات الاستوائية كلها ، وجانبا من المحيط الهندى ، من أهم قصص التاريخ المصرى ، وأكثرها اشادة بجهود الخديوى اسماعيل ، وتنزيهاً لسمعته من كثير من الشوائب المغرضة التى ألحقت به . فقد فهم اسماعيل ، وأدرك عن دراية ويقين ، أن الحدود الطبيعية لمصر ، لا تقف عند شلال من الشلالات ولا تحاصر بخطوط صناعية ، ولكن « **كل أرض يجرى فيها ماء النيل فهى أرض مصرية** » . هذا هو إيمان اسماعيل ، وعلى أساسه عمل ، وقد نجح فى تحقيق أهدافه نجاحاً كبيراً .

ومن الخير أن نسوق الوثائق ، لكى تتحدث بنفسها عن سير الحوادث ، وارتباطها

بغير تنميق ، ولا تزويق [1] ، وإن كانت لغة المكاتبات الرسمية — منذ خمس وسبعين سنة لا ترضينا كل الرضا ، ولا تلائم أذواقنا ، إلا أنها تشبه التحف الفنية القديمة ، التي تنقلنا إلى جو العصر الذي أنشئت فيه . .

في صفر سنة ١٢٨٦ هجرية (سنة ١٨٦٩ م) أصدر الخديوي اسماعيل الأمر التالي ، ترجمته :

« نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة في حوض نهر النيل ، ونظراً لأن النواحي المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ، ولا أمن ، ولأن الشرائع الانسانية تفرض منع النخاسة ، والقضاء على القائمين بها ، المنتشرين بكثرة في تلك النواحي ، ولأن تأسيس تجارة شرعية في النواحي المشار اليها يعتبر خطوة واسعة في سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على اقامة حكومة ثابتة .

أمرنا بما هو آت :

تؤلف حملة لاخضاع النواحي الواقعة في جنوب غوندوكورو لسلطتنا ، ولابطال النخاسة وإيجاد تجارة منظمة .

ولفتح طرق الملاحة مع البحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء ، ولاقامة خط من النقط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن بعض مسافة ثلاثة أيام للماشي في أنحاء أفريقيا الوسطى ابتداء من غوندوكورو .

وقد فوضنا رياسة هذه الحملة إلى سير صموئيل بيكر لمدة اربع سنوات ابتداء من أول

---

(١) وثائق هذا الفصل مستمدة من كتب الأمير عمر طوسون وتقويم النيل لامين باشا سامي والنهضة القومية للرافعي واسماعيل المفترى عليه للقاضي كرابتس ترجمة الاستاذ فؤاد صروف والاسماعيلية لصموئيل بيكر .

ابريل سنة ١٨٦٩ ، وقلدناه حقوق السلطة التامة المطلقة ، حتى السلطة المتعلقة بحياة واعدام كل من له علاقة بالحملة .

وقلدناه كذلك نفس هـذه السلطة على كل النواحى التابعة لحوض النيل جنوب غوندوكورو . »

وأصدر اسماعيل باشا ارادته لناظر الداخلية ورد فيها ما ترجمته :

نظراً لضرورة لزوم إلحاق أعالى النيل الابيض الذى هو أكبر أقسام النيل المبارك ، بالأقطار السودانية ، وحيث ان التقدم للجهات المذكورة بصورة مطردة من القواعد الأساسية القديمة المتخذة لدى الحكومة المصرية ، فقد قررنا تعيين صامويل باكر بك من مستخدمى الحكومة والذى سبق استخدامه فى استكشاف منابع النيل ، مأموراً لالحاق أعالى النيل الابيض بممالك الحكومة المصرية ، وقيامه للجهات المذكورة ، يكون على رأس قوة مؤلفة من ثمانمائة من الجنود المصريين النظاميين ، خمسمائة جندى نظامى سودانى ، ومائة من الجنود الشائقة ، فالمجموع فرقة مؤلفة من الف واربعمائة جندى مع مدفعيتها وسائر لوازمها ، واربعة عشر مدفعاً جبلياً »

وبعد أن استطرد الامر فى ذكر رتب الضباط ومرتباتهم وعلاواتهم قال :

« ... ويلزم أن يعين فى معية ابن أخيه ياور حربى بمرتب سنوى قدره ٥٠٠ جنيه وطبيب انجليزى بمرتب سنوى قدره ٤٠٠ جنيه ، وثلاثة ضباط مصريين بصفة ياوران حرب .

« وحيث إن الموما إليه من مأمورى الحكومة المصرية كما هو مذكور أعلاه ، فكل الاراضى التى يضع يده عليها ويحتلها الجيش الذى تحت قيادته ستكون بالطبع من ممتلكات الحكومة المصرية ، وتدخل تحت تصرفها المطلق ، وبناء عليه يجب تجهيز وتدارك القوة السفرية المذكورة ... الخ »

وفى ارادة أخرى لناظر الداخلية :

« قد أصدرنا أمرنا هذا إليكم لتعلنوا حكمدارية السودان بخصوص إصلاح البواخر الموجودة بالخرطوم ووضعها تحت أمر صامويل باكر بك ، وعدا ذلك يجب أن تجمعوا البواخر الأميرية الموجودة فى هذا الطرف ، وفى حالة عدم كفايتها يجب أن تبتاعوا من الشركة العزيزية بواخرها الموجودة فى النيل الزائدة على اللزوم . وخلاصة القول،عليكم أن تهتموا بابلاغ عدد البواخر التى ستوضع تحت أمر المومأ إليه إلى عشر ، فلذلك أصدرنا أمرنا هذا وأرسلناه إليكم . »

وفى آخر شعبان من هذه السنة ، كتب الخديوى أمرا « إلى سائر الحكام ونظار الأقسام ومشايخ وعمد الأهالى بالجهات الداخلية بالبحر الأبيض بأقاليم السودان » يحيطهم علما بمهمة « السر صامويل باكر بك » ، ويطلب مؤازرته .

وكذلك أرسل هذا الأمر إلى حكمدارية السودان

وقد أعدت للحملة البواخر اللازمة لها ، كما أنشئت بواخر جديدة ، وزودت الحملة بآلات بخارية لقطع الأخشاب . ولم يكن من المستطاع إبحار هذه السفن من القاهرة إلى « غوندوكورو » لاعتراض الشلالات الكثيرة طريق الملاحة ، ففكت وحملت على ظهور الابل ، وظهور الرجال مسافات شاسعة ، حتى وصلت إلى غايتها (المسافة بين الاسكندرية وغوندوكورو ٤٨٠٠ ك . !!) . وقد استنفد هذا النقل مجهودا بشريا هائلا، لا يقل عن مجهود مصر الدامى الذى بذلته فى شق قنال السويس. ولقد كان أشق مراحل الحملة قطع صحراء العطمور فى النوبة ، أى مسافة لا تقل عن ٦٥٠ ك مترا يتصاعد من رمالها دخان مثل اللهب [١] .

(١) تحمس أحد الشبان السودانيين فى احتفال مصرى سودانى بالخرطوم، وقال إن صحراء العطمور فاصل طبيعى بين مصر والسودان ، فرد عليه شاب مصرى قائلا : إن العطمور لم تصبح صحراء فاصلة بيننا بعد أن روتها دماء المصريين ، فى أكثر من عهد .

ولما وصل هذا الأسطول النهرى الصغير إلى منطقة السدود فى بحر الجبل ، بدأ المجهود البشرى الهائل مرة أخرى ، فى شق طريق ، وسحب السفن بين غابات منشا بكة من النباتات المائية التى يبلغ ارتفاعها بين ٦ إلى ١٠ متر . وبعد شهر من المجهودات المريرة المضنية ، تبين للسر بيكر أن من المستحيل شق هذه الغابات الكثيفة من الأعشاب فعاد القهقرى إلى موقع « التوفيقية » ، وأنشأ فيها محطة كبيرة وظل ينتظر الفيضان .

وعند ماعلت مياه النيل ، أمكن للحملة أن تشق طريقها بعد أن بذلت جهوداً فوق طاقة البشر ، وأنفقت فى الاعداد والمسير والتعويق نحو عامين .

ووصلت الحملة إلى « غوندوكورو » ، واختارها بيكر عاصمة للمديرية الجديدة « خط الاستواء » . وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ احتفل برفع العلم المصرى على عاصمة المديرية الجديدة .

قال بيكر فى كتاب الاسماعيلية :

« فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ ، كان كل شىء قد تم . وكان القبطان بيكر قد نصب صاريا لترفع عليه الراية فى أعلى نقطة تشرف على النهر ، وكانت كل شجيرة قد أزيلت من هنالك ، فبدا الميدان نظيفا مكشوفا ، وكان الجنود قد استراحوا يومين قبل ذلك فى غوندوكورو وغسلوا ثيابهم ، ونظفوا أسلحتهم ، ثم ساروا فى الساعة السادسة من صباح ٢٦ مايو حتى وصلوا إلى ذلك الميدان ، وكان عددهم ١٢٠٠ جندى ، معهم عشرة مدافع جبلية يبلغ وزن قذيفة كل منها ثمانية أرطال وربع رطل .

« وتقدمت راكبا حتى وقفت تحت الراية . ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع من أضلاع مربع مستطيل ، أما الضلع الرابعة ، وهى الجهة المفتوحة من المربع ، فكانت مواجهة للنهر ، وقد وقف فيها جنود المدفعية بمدافعهم العشرة ، ثم قرىء المنشور الرسمى عند سفح الصارى المعد للراية ، وجاء فى ذلك المنشور وصف ضم تلك البلاد إلى مصر باسم سمو الخديوى ، وعند تلاوة آخر عبارة ، رفعت الراية إلى قمة الصارى ، فأخذت

تخفق فى مهب النسيم ، واستل الضباط سيوفهم لحيوها، وحياها الجنود أيضا برفع سيوفهم ورجال المدفعية باطلاق مدافعهم »

وقد اسمى السر صمويل بيكر « غوندوكورو » باسم آخر هو الاسماعيلية ، تيمناً باسم الخديوى ، كما أسمى أول محطاته بالتوفيقية على اسم ولى العهد .

وأخذت الحملة تزحف جنوباً ، وقد كان الذعر الذى نشرته معداتهـا الغريبة بين زنوج هذه المناطق سبباً فى إذعانها بالطاعة تسليما ، أو بعد اصطدامات صغيرة . ومعدات الحملة كانت الخيل التى لم يرها أهل هذه المناطق ولا عهد لهم بحيوان اليف له سرعتهـا ، والبنادق التي تقتل خصمها على مسافة كبيرة ، وهذه السفن التجارية الضخمة التى تسير فى النيل وكأنها القرى المتحركة يتصـاعد منها الدخان والأصوات الغريبة المنكرة التى لاتشبه أصوات أى حيوان مائى أو أرضى عرفوه طول حياتهم ، أو سمعوا عنه من كهانهم والمسنين من أشياخهم .

ومن أمثلة المعارك الصغيرة التى دونها بيكر فى تقاريره ماحدث للصاغ عبدالله افندى الدنساوى عند « لابوريه » .. قال :

« فى ليل ١٧ فبراير سنة ١٨٧٢ م ، بينما كان الضباط والعساكر غارقين فى نومهم انقض على العسكر عشرة آلاف من الأهـالى ، ولولا يقظة جندى أو جنديين ، وعدم استسلامها للنوم كرفقائهما لذبح الجيش برمته وقد أدرك الجند الذعر لأول وهلة ، فولوا الأدبار تاركين المدفع بين أيدى قبائل الباريين ، غير أن عبدالله افندى الدنساوى ، والضباط جمعوا شتاتهم فبادروا للقتال ، وحصروا العدو بين نارين ، واستردوا المدفع ، ورموا ذلك العدو ببعض مقذوفات منه ، فلم يسعه إلا أن يرتد على أعقابه »

ودخلت الحملة أرض « أونيورو » التى يحكمها ملك من الزنوج اسمه « كباريجا » ، وتقع عاصمة هذا الملك ، واسمها « مازندى » على مسيرة ٥٣٥ كيلومترا من الاسماعيلية

— أو غندوكورو كما كانت تسمى — وأهل هذه المناطق كانوا يعرفون السر صمويل بيكر من رحلة سابقة كشف بها هذه المناطق .

وأرسل الملك « كباريجا » إلى الحملة المصرية هدية من حبوب وموز وست عنزات ، وقد زاره السر صمويل بيكر زيارة رسمية ، فى موكب عظيم تتقدمه الموسيقا . واستقبلهم الملك فى زيه الرسمى ، وكان مؤلفا من حلة جميلة من قشور الشجر مخططة بخطوط سود .

وعند مارد الملك الزيارة نصب له مندوب الخديوى سرادقا ضخما ، وأمر بعزف الموسيقا وسمعت على البعد أصوات أبواق وقرعت الطبول ايذانا بوصول الملك . وكان يسير بخطى « ملكية » غريبة ، إذ كان يمشى محاولا تقليد الزرافة فى خطواتها الواسعة . وجلس فى قلق على المقعد الذى أرشد اليه ، وهو ينظر فى ذهول إلى المظاهر العجيبة من حوله . ولما قدمت له القهوة والشربات ، أمر اثنين من أتباعه بشربها ، لانه حسب أن السر صمويل بيكر دس له السم فيها . ولكنه تقبل ساعة على سبيل الهدية .

وقد أقيمت حفلة فخمة ضمت فيها مقاطعة اينورو إلى التاج المصرى ، وذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ ، ولما انتهت الحفلة أرسل الملك « كباريجا » هدية مكونة من ١٢ عنزة على سبيل الرضاء والشكر .

وأحس الملك « متيسا » ، ملك مقاطعة أوغندا بتقدم الحملة المصرية ، فزار رسله السر بيكر أكثر من مرة ، وحملوا معهم رسالة باللغة العربية ، وكان الرسل يعودون إلى سيدهم محملين بالهدايا لهم وللملك .

وقد انتقض الملك « كباريجا » وناصب الحملة العداء ، على الرغم من حصوله على صندوق موسيقا كبير يدار باليد ، وألب الأهلين على الحملة ، إلا أن قائد الحملة كان يصلح الأمور بقدر الامكان .

وكان الخديوى اسماعيل يوالى هذا العمل باهتمام زائد.. كتب مرة إلى بيكر يقول: « لقد وصلت الآن إلى بلاد خصبة جميلة ، وحولك شعوب قد أثار عدوانها

وشكوكيا جماعة النخاسين الذين قضيت عليهم. على أن وسائل اتصالك بالخرطوم عسيرة على طول الشقة بينك و بينها . لذلك أرى من الخرق أن توالى الزحف ، وتترك وراءك قبائل لم يتم اخضاعها بعد ، ولا هى تثق بنا . فقف فى « غوندوكورو » وحسن موقفك ، واشرع فى عملك ، وابذل جهدك لتبسط أغراضك لرؤساء القبائل »

وفى تعليمات الخديوى لبيكر :

« أود أن أعرف ما هى مواد المقايضة التى تسر الوطنيين أكثر من غيرها . ثم إن معك المهندس « هجنبوهام » ، ولكنى لا أظن أنك تستطيع الاكتفاء به وحده ، وعليه فسأبعث إليك بمهندس آخر يعمل تحت إمرته . ابحث فى كيفية تسهيل وسائل اتصالك بالخرطوم . . لقد أخضعت قبائل البارى ، فعاملهم بالحسنى حتى يثقوا بك ، ويعلموا ما تريد أن تلقنهم إياه .

« انني أعلم أن هذا العمل المادى الأدبى لا بد أن يستغرق زمناً طويلا ، ولكنه متى أثمر ، فستكون قد شققت لنفسك طريقاً سهلا من « غوندوكورو » إلى البحيرات وان كانت بعيدة عنك بعداً شاسعاً

« لقد رسمت لك خلاصة الخطة التى أرغب منك أن تسير عليها . إلا أننى أدع لك رسم الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق غايتنا . و بعبارة أخرى — لا تواصل الزحف إلى الامام ، بل استعمر البلاد ، وعلم السكان ، واجعل القبائل موالية لك ، ومتى أنجزت ذلك ، فواصل الزحف إلى الامام »

و بعد عام من هذه الرسائل انتهت مدة خدمة السر صمويل بيكر ، وكان عقده لاربع سنين ، ومرتبه ٤٠ الف جنيه فى المدة كلها . وقد كتب للخديوى تقريره عن مهمته ، ورد فيه :

« مولاى :

« أتشرف بأن أبدى لسموكم أنه مع صغر الحملة العسكرية المسيرة تحت أمرى ، قد

ضممت إلى مصر جانباً كبيراً من اواسط أفريقية ، وعليه فان ملك سموكم يمتد الآن إلى خط الاستواء ، وقد غادرت تلك البلاد فى حالة جيدة ، وجميع الضباط والجنود الذين معى هم على أحسن حال من الصحة »

وكان تاريخ هذا التقرير يوليو سنة ١٨٧٣

ونشرت الوقائع المصرية فى هذا الوقت :

« حضر لمصر السير صمويل بيكر ، ورفقاؤه بعد اكتشاف بحيرة « أوكريو » ، التى سميت فيا بعد فكتوريا نيانزا ، التى يستمد منها النيل الأبيض »

وقد ورد فى أنباء العام السابق أن الميرالاى رؤوف بك[1] القائد المصرى للحملة اختلف مع السر صمويل بيكر ، فأمر الخديوى بتعيين قائد آخر مكانه . وكشف أمين باشا سامى سر « الخلاف والتنافر » فى كتابه مصر والنيل ، فقال إن رؤوف بك اعترض على تسمية البحيرات المكتشفة بمال مصر — فكتوريا نيانزا ، والبرت نيانزا ، بدون أن تسمى باسم اسماعيل باشا ، وكان هذا هو سبب استدعائه .

وذكر الأمير عمر طوسون أن نفقات بعثة بيكر باشا بلغت ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه

ويظهر أن دائنى الخديوى كانوا لا يرحبون باستمرار انفاقه على هذه الحملة الحيوية الخطيرة : فاننا نجد فى إحدى الرسائل إلى السر صمويل بكر :

« ما أظنك تجهل ياعزيزى أن السودان يتطلب نفقات باهظة ، لانجاز الأعمال التى لا غنى له عنها كالسكك الحديدية ، وغيرها من المرافق العامة . لذلك أرانى مضطراً أن أرجو منك أن تنظم الأمور بحيث يمكن خفض النفقات وقصرها على مالا غنى عنه وإنى أطلب منك هذا لكى يتسنى انجاز الأعمال العامة الأخرى التى تقتضيها مصلحة السودان »

---

(١) تولى رؤوف بك حكمدارية المديرية لمدة عام بعد عودة بيكر ، ثم عين حكمداراً عاما للسودان ، وفى عهده تحركت ثورة المهدى ، وهو الذى تولى رياسة المحكمة العسكرية التى حكمت على عرابى باشا بالاعدام .

وعلى الرغم من ضغط الدائنين على الخديوى فانه لم يعمد إلى إرهاق هذه الشعوب الجديدة التى دخلت فى حكمه ، بل تابع انفاقه ، وصبر صبرا دفع ثمنه عرشه ، ولكنه مع هذا أقام أرسخ القواعد لنشر أضواء الحضارة فى السودان

قال فى رسالة له إلى حكمدار السودان بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩١ ، وهو يناقش الميزانية :

« يلزم منكم الاعتنى، و بذل الجهود فى اجرى الوسايط اللازمة لتقدم وتيسير أحوال الأهالى ، وتسهيل سداد الأموال بواسطة التأكيد والتنبيه على الحكام والمأمورين باستمرار تشويق وترغيب الأهالى فى تكثير الزراعة ، والأخذ فى الاسباب التى يترتب عليها ثروتهم وسهولة تأدية المقرر عليهم، حتى إذا لزم الحال لصرف شىء من الحكمدارية فيما يتعلق بمأمورية خط الاستوى (١) أو غير ذلك فيستدرك تأدية ما يلزم من أصل الباقى من صافى الايرادات .. ألخ »

والحقيقة أن اسماعيل باشا كان شديد الشغف فى ذلك الوقت بمد سكة حديد تربط السودان بمصر ، ونجد فى ميزانيته الكثير من المفردات التى تدل على تمهيده لهذا العمل الجليل . الذى لم تسمح الظروف باتمامه ، ولو كان الخط قد مد ، لما استقل المهدى بالسودان وبالتالى لما ضاع السودان من مصر .

وتابع الخديوى اسماعيل اهتمامه باستمرار الكشف عن هذه المناطق المجهولة ، وضمها إلى ملكه. وقد اتفق مع الكولونيل غوردون لتولى العمل مكان السر صمويل بيكر وصدر أمر تعيينه فى ٢ محرم سنة ١٢٩١ هـ — (فبراير سنة ١٨٧٤) ، نصه :

عزتلو قولونيل غوردون مأمور جهة خط الاستوى

أنه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية ، قد عينا كم مأموراً على جهة الاستوى التابعة للحكومة ، وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان ، وصارت قائمة

(١) أصبح اسم الحملة « خط الاستواء » بعد أن كانت حملة النيل الابيض فى بدء تأليفها .

بنفسها غير تابعة للحكمدارية . انما كان لوازماتها التى تقتضى الحال تداركها من طرف الحكمدارية — هذه يجرى تداركها بمعرفة الحكمدار ، وصرف ثمنها من طرفه مقابلة محاسبة المالية بذلك :.. الخ

ثم ختم الخديوى أمره بقوله : « وعلى هذا ، وماهو منظور لنا منكم من حسن الغيرة والأهلية ، مؤملين الاستحصال على مافيه عمارية جهات خط الاستوى المحكى عنها ، وراحة أهاليها ، وحسن توطينهم ، وتأليفهم على الدخول فى سلك الانسانية شيئا فشيء كما هو مطلوبنا »

واختار غوردون القائمقام شاليه لونج ، وهو ضابط أمريكى من البعثة الأمريكية (١) بالجيش المصرى ، ليكون أركان حربه . وقد قص هذا الضابط الأمريكى مقابلته للخديوى فى كتابه « حياتى فى أربع قارات » قال :

« كان الخديوى اسماعيل يذرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة ، وكان متهيجاً تهيجاً عصبياً عند ما دخلت عليه ... وبعد التحية قال له الخديوى : والآن اصغ إلى

(١) ذكر كرابتس فى كتابه عن اسماعيل ، أن الخديوى رأى أن يستدعى عدداً من كبار الضباط الأمريكيين لتنظيم الجيش المصرى ، لاعتقاده بأن أمريكا ليست دولة استعمارية ، تستغل هذه الفرصة لصالحها . وقد تعاقد مع ثلاث جنرالات ثم لورنج وسبلى وستون . وعشرين كولونيلا أولهم شاليه لونج . وسبعة عشر ضابطا من رتب أخرى . ونص عقد استخدامهم على « أن يشهروا الحرب على أى عدو للفريق الأول ، كائنا من كان ، وأن يواصلوا تلك الحرب بكل شدة » وكان مفهوما أن هذه الحرب ستكون بين مصر وتركيا . وهكذا أنهى اسماعيل عهد الضباط الفرنسيين ، وحد من نفوذ الضباط والمستخدمين الانجليز باضافة هذه المجموعة الكبيرة من كبار الضباط الأمريكيين اليهم .

وقد انتقد عرابى باشا فى مذكراته خطة هؤلاء الضباط الامريكيين فى حملة الحبشة انتقاداً مراً ، حتى اتهمهم صراحة بإفشاء أسرار الجيش المصرى للملك يوحنا عن طريق أحد القسس الذى كان يتردد على القيادتين ، وذكر أن هؤلاء الضباط خلعوا طرابيشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم . ثم ربطوا فى أعناقهم مناديل بيضاء إشارة الى أنهم مسيحيون ، ليأمنوا على أنفسهم من الخطر . ويذكر عرابى باشا أن الأخطاء المتعمدة من هيئة القيادة الامريكية كانت سببا فى هزيمة منكرة ، ونعى على الخديوى اعتماده عليها .

ولكن يظهر من الدور الذى لعبه الكولونيل شاليه لونج فى أعالى النيل ان هؤلاء الضباط ، أو بعضهم كانوا مخلصين فى عملهم .

ما سأقول . لقد وقع الاختيار عليك بصفة رئيس أركان حرب لمدة أسباب أهمها حماية مصالح الحكومة . واعلم أن القوم فى لندن على وشك أن يجهزوا حملة تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الامريكية يسمى استانلى ، وهو فى الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة إلى الدكتور لفنجستون ، أما فى الباطن والحقيقة فلرفع العلم البريطانى على أوغندة . فعليك الآن أن تذهب إلى غونو دوكرو ، إلا أنه يلزمك ألا تضيع شيئاً من الوقت ، بل يمم فى الحال أوغندة ، واسبق هناك حملة انجلترا ، واعقد محالفة مع ملك تلك البلاد . ومصر لاتنسى لك أبد الدهر هذه اليد وهذا الجميل . اذهب وليسر عقبك النجاح إنشاءالله» (١)

وهكذا نجد أن السباق بين القاهرة ولندن للوصول إلى آخر المنابع قد بلغ أشده ، وحمى وطيس المعركة ، حتى أن لونج يصف الخديوى بهذا الوصف ، وهو أنه كان عصبياً متهيجاً ...

ونجد فى أوامر الخديوى بعد هذا كتابا إلى الملك متيسا صاحب أوغندة بتاريخ ١٩ رجب سنة ١٢٩١ هـ يقول له فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد حمدالله والصلاة والسلام على سيدنا محمدخاتم أنبيائه ، نخصكم مزيدالسلام والتحية ، ونخبركم أنه عرضت لدينا مكاتباتكم التى حررتموها إلى الكولونيل غوردون مأمور خط الاستوى ، وإلى رؤوف بك قومندان العساكر ، وعلمنا الهدية التى أرسلتموها ، وحصلت عندنا الممرورية ، حيث شرح الله صدركم للاسلام ، وجعلكم من أمة سيدنا محمد خير الأنام . وواجب علينا إسعافكم فى إبعاث العلما الذين طلبتموهم لتعليم الديانة ، و بعد تاريخه يرسلوا لطرفكم ، زادكم الله توفيقا ورشاداً ، وهداية وسداداً ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته »

---

(١) نص هذه المقابلة فى كتاب مديرية خط الاستواء للامير عمر طوسون باشا ص ١٢٦ الجزء الاول.

وقد أحسن « شاليه لونج » أداء المهمة التى وكلها إليه الخديوى فى أنه ما أن وصل إلى « غوندوكورو » حتى رتب مع رؤوف بك القائد العسكرى الرحلة إلى « متيسا » ملك أوغنده ، واستغرق سفره مع حارسيه الباسلين ٥٩ يوما لقى فيها أهوالا من القبائل المعادية. ووصف الرسول مقابلته لمتيسا بقوله - كما ورد فى كتاب مديرية خط الاستواء :

« ومتيسا هذا رجل ناهز الخامسة والثلاثين من العمر طويل النجاد ، يلبس الملابس العربية التى يرتديها علية العرب ، ويتقلد حساما تركيا محلى بالذهب أهداه إليه سلطان زنزبار.

« وقد وجه شاليه لونج كلامه إلى الملك قائلا إنه قدم بإذن باشا غوندوكورو ، من قبل سلطان مصر الأعظم ليسلم على ملك أفريقيه العظيم ، وليعرب عما يكن له فى قلبه من خالص الود ، فقوبل هذا الخطاب بصيحات الفرح من جميع الحاضرين قائلين : « كورنجى !! كورنجى !! » ومعنى ذلك : مرحى !! مرحى !! . وخر الحاضرون ركعا وجثيا مشتبكى الأيدى صارخين « يا نزج .. يا نزج !! » وهى تحيـة شكر للملك لأنه أحضر لهم أميرا بلغ نهاية العظم ، لونه أبيض !

« وإلى هنا كان المنظر يكاد يكون هزليا ، ولكن سرعان ما تبدل بمنظر آخر مروع ورهيب لدرجة لا نظير لها . ذلك أنهم أحضروا ٣٠ رجلا مكبلين بالحبال ، وفصلوا رؤوسهم من أجسامهم احتفاء بقدوم الرجل الأبيض . ومع أن هذا المنظر بلغ من شناعته مبلغا يستفز القلوب الصخرية ، فإن « شاليه » رأى نفسه مكرها على كبح جماح مشاعره ، وأن ليس أمامه إلا أن يتظاهر بأنه غير مبال بما رأى ، إذ أنه لو صدرت أى إشارة يلوح من خلالها الاشمئزاز ، لعرض ذاته للسخرية وأضاع نفوذه .

« وانتهى الاستقبال عند هذا الحد ، فنهض شاليه لونج وهم بالانصراف ، إلا أن متيسا ألح عليه طالبا منه أن يريه نساءه المئة ، فصحبه إلى داخل القصر (وهو من أعواد النبات وفروع الشجر) ، وأحاط به أولئك النسوة ، وأخذوا فى فحص كسوته ، وزخارفها المذهبـة . »

وفى اليوم التالى ، أحتفل فى « القصر » بتقديم هدية الخديوى لمتيسا ، وكانت مكونة من ملابس زاهيــة الألوان وعقود ودبل وأساور ومرآة كبيرة مذهبة وصندوق موسيقا و بندقيــة . وقد فرح الملك بالبندقية فرحا عظيما ، وسـأله اذا كان يستطيع ــ من أجل خاطر جلالته ــ أن يقتل له « كباريجا » ملك أونيورو ببندقية مماثلة !!

وختم الاحتفال بذبح عشرة رجال اكراما لحفلة الهدية. وأقام « شاليه لونج » بضعة أيام فى ضيافة الملك ، ثم استأذنه فى زيارة البحيرة العظيمة (فكتوريا) وبعــد مسيرة ٣ ساعات أشرف من فوق رابية على خليج مرشيزون ، وعلى ماء البحيرة الرائق الصافى الهادىء ، الذى يشبه مرآة عظيمة من الفضة تنعكس عليهـا أمواج من الضوء فيتلألأ ذلك الماء تحت وهج شمس الجنوب .

وظل رسول الخديوى يكتشف سواحل البحيرة و يبحر بزوارق الزنوج على صفحتها. وقد قوبل فى سياحته على البحيرة بهجمات من الأهالى ، ثم شرع فى العودة من طرق محفوفة بأعظم الأخطار . ولما بلغ غوندوكورو قابله « غوردون » أعظم استقبال ، و بعد أن سمع تقريره عن رحلته قال له « لقد عملت فوق ما عمله أى إنسان آخر فى هذا البلد» (١)

وقد بذل غوردون مجهودات هامة لفتح الطريق إلى أوغنده وأنشأ المحطات على طول الطريق ، وكشف جانبيه ، ومنها منطقة مكراكا ، التى تسكنها القبائل المعروفة باسم « نيام نيام » وهى أكثر القبائل وداعة وسكونا ، إلا أن مزاجها يتجه إلى استطابة أكل اللحم البشرى ، وكثيراً ما كانت توضع الحراسة الشديدة على تجارهم حين يفدون إلى القرى و يأمر الأطفال والصغار بعدم الخروج ، ومع هذا كانت تفتش القوافل العائدة، فيوجد مع كل عائد ذراع ، أو ساق بشرية مخبأة فى متاعه لاستطعامها إذا خلا الطريق من الرقباء !!

---

(١) التفاصيل الـكاملة لهذه الرحلة الشائقة موجودة بكتاب شاليه لونج عن رحلاته فى القارات الأربع ، وفى كتاب الأمير عمر « مديرية خط الاستواء » ويحسن أن يرجع إليها القارىء لأهميتها .

وفى النصف الأول من عام ١٨٧٥ أوفد غوردون بعثة جديدة إلى ملك أوغندا برياسة المسيو ارنست دى بلفون ، وكانت الرحلة فى هذه المرة أسهل ، لزيادة أمن الطريق الذى به وجود المحطات المصرية فى أماكن كثيرة . وعند وصول البعثة المصرية دهشت إذ وجدت أوربيا عند الملك الزنجى ، ظهر أنه الرحالة ستانلى الذى كان الخديوى يخشى وصوله إلى هذه المناطق .

وقد أدى المسيو ارنست مهمته ، إلا أنه اختلف مع ملك أوغنده لأن متيسا أراد إبقاءه فى خدمته فرفض .

وفى العام التالى — سنة ١٨٧٦ — قام الجنرال غوردون بنفسه إلى خط الاستواء، وتمكن من أن يحقق الصلة بين بحيرة فيكتوريا ، و بحيرة البرت،وطريق اتصالها بالنيل. وكانت سياحته على أعظم جانب من الأهمية ، إذ رسم الكثير من الخرائط لمنابع النيل وفى هذا الوقت طلب الملك « متيسا » أن تقيم فى عاصمته — واسمها روباجا — حامية مصرية ، فبنى المصريون هناك ثكنة مؤقتة ، وأقام فيها ١٦٠ جندياً تحت قيادة نور محمد افندى عززوا فيما بعد بـ ٦٠ جندياً .

وهنا نرى غوردون يقيم فى مرولى، و بدلا من أن يعزز حامية أوغندة تعزيزاً جدياً ويعمل على الحاقها بالتاج المصرى ، نراه يصدر الأمر بسحب الحامية ، و يقترح على متيسا أن يستقل ، وأن يوفد سفراءه إلى الخديوى ! !

وظهر أن نشاط لندن بلغ أشده فى هذه المنطقة ، فبعد زيارة ستانلى ، نقرأ لغوردون رسالة بعث بها إلى ارسالية دينية وصلت إلى أوغندا يقول لها فيها :

« إن المصريين أخذوا يديرون للانجليز أكتافهم و يولونهم اعراضهم، وانه أضحى من المحقق أنهم لن يصبروا طويلا على ما يرسم لهم من الخطط ، إذ أن كل حادث صغير تحدث يذكى فى نفوسهم نار الكراهية للانجليز ، ويزيد فى شنآنهم لهم . فمداخلة الانجليز فى زنزبار والحبشة ، وارسالهم الآن أيضاً هذه البعثة التى يتجلى فى كيفية تأليفها أنها بعثة لا دينية أكثر منها دينية ، كل ذلك مما يزيد فى جفاء المصريين لهم . »

ويظهر أنه فهم من مهمة البعثة أنها ستحرض ميتسا على قطع علاقاته بمصر، فقال: « وانه مهما كانت جنود ميتسا منظمة ، ومزودة بالسلاح (أي سلاح ! !) فان جنود مصر لا تلبث أن تنتصر عليهم ، وتلحق بصفوفهم الهزيمة »

وهكذا أخذ تيار الحوادث يضطرب . فبعد أن كاد المسجد الذى أمر الخديوى ببنيانه فى عاصمة أوغنده يتم ، أوقف العمل فيه . و بعد أن كان العالم الدينى يقوم بمهمته ، سحب بحجة أنه ارتد عن الاسلام وتنصر ! !

و بعد أن أقام غوردون فى مأموريته هذه بحكدارية خط الاستواء عامين وشهرين عاد إلى القاهرة حيث قدم استقالته فى ديسمبر سنة ١٨٧٦ .

وقد نشرت الوقائع المصرية فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٩٣ (٨ أكتوبر سنة ١٨٧٦) الكلمة التالية :

سبق فى الصحيفة أن حضرة سعادتلو غوردون باشا مأمور جهات خط الاستواء مهتم غاية الاهتمام فى استكشاف بعض جهات بركة نيانزا . والآن بلغنا أنه عاين أكثر أعمال من سواحلها ، وعين نقطاً متعددة بالجهات اللازمة لتأمين التجار والسياحين . وحيث أن صفة استكشاف أحوالها الجغرافية حرية بالاطلاع عليها، ناسب المبادرة بذكر بعض ما يتعلق بها فنقول : ان (نيانزا) هى فى اصطلاح الزنوج المتوطنين بجهات خط الاستواء اسم للغدير الكبير الذى هو منبع النيل المبارك ، وموقعها الجغرافى محاذ لخط الاستواء، مساحتها عبارة عن ٣٠٠ ميل كأنها بحر (مساحة البحيرة الحقيقية ٦٩٠٠٠ك.م. مربعاً)، وهى أوسع برك المياه العذبة فى الكرة الأرضية ، وفيها جزائر متعددة معمورة ، وسكانها من الزنوج . كما أن سكان سواحلها كذلك . وأهاليها يحضرون قطع الخشب العظيمة ، ويتخذونها سفناً يسافرون فيها من جزيرة إلى أخرى للتجارة ومعاوضة أحد

الأصناف بعضها ، وجلبها فيها . ثم قالت الجريدة : ولما كان النيل المبارك بمثابة الروح للأقطار المصرية ، طالما رغب كثيرون من الملوك والحكام الماضين فى استكشاف منبعه ، ولكن لعدم تعلق البلاد السودانية بالحكومة المصرية قبل الآن ، ونفور أهاليها وتوحشهم لا يتسر للأجانب المرور داخل ممالكهم ، والحصول على ما ذكر . وبدخول كثير من الممالك السودانية فى حوزة الحكومة السنية المصرية ، ووقوع الألفة بين الأهالى فى الجملة ، وارادة استكشاف ذلك النيل ، تعين المرحوم (سليم قبودان) بهذه المأمورية المهمة ، وتوجه إلى الخرطوم ومنها إلى خط الاستواء المذكور بخمس درجات ، فوجدمياه النيل فى هذا المحل نازلة من صخرات مرتفعة وجبال شاهقة ، فلم يتمكن من المرور بتلك السفن هناك ، فاكتفى بما استكشفه فى هذا المحل ، ورجع لتجهيز فرقة استكشافية تسافر برا من « قوندوقرو » إلى المنبع . فهو أول من استكشف وعاين ٧٠٠ ميل فى سياحة البحر من الخرطوم إلى « قوندوقرو » ثم اقتدت به تجار الخرطوم فى الذهاب والاياب بالسفن إلى تلك الجهات والاختلاط بالقبائل المتوطنة فى السواحل ، والتعامل معهم . وبهذا زال نفارهم ، وانقادوا للحكومة السنية .

•••

وهكذا مرت هذه الصور السريعة عن الزحف المصرى إلى منابع النيل ، وعن وصول جند القاهرة ، إلى جنوب خط الاستواء يرفعون الراية المصرية هناك ، ويعملون على « عمارية » البلاد كما قالوا ، وإدخالها ضمن نطاق حكومة منظمة متحضرة .

وقد قيل ان أهم أسباب عزل اسماعيل من عرش مصر ديونه التى أنفقها على القنال ولكن يمكن أن يقال الآن ، ان السبب الأول : والسبب الأهم هو هذه الدفعة القوية التى ركز فيها اسماعيل سلطانه على منابع النيل ، ومحاولة تأمين هذه المنابع بحملته الحبشية وبعثاته الأخرى فى شرق أفريقية حتى يوجد لمصر منفذاً على المحيط الهندى .

فاذا كان هذا هو برنامج مصر فى وسط أفريقيه وشرقها ، فان الثمن الذى دفع ديونا باهظة مرهقة ، وتاجاً كان من أعز تيجان مصر عليها — على الرغم من التشويه المقصود الذى أهالته أوربا على صفحة اسماعيل فى التاريخ ، لكى لا يتنبه أبناء مصر إلى حقيقة أغراضه ومراميه ، و يبتعد بهم الزمن عن الجو الذى عاش فيه ، وأراد لمواطنيه أن يتابعوه فيه .

ما الذى حدث إذن .. ما الذى حدث حتى توفد القاهرة إلى الخرطوم ، مندوبا من قبلها ، يقول باللسان الصريح والفصيح أنه أقبل لفصل السودان عن مصر ، وأنه يهدى تحيات صاحبة الجلالة الملكة فيكتوريا إلى شعب السودان ، وأنها ستعمل على أن تفتح لهذا الشعب طريق الحج الذى ساء جلالتها أن أهل السودان لا يتمكنون فى ظرف الحرب الأهلية من تأدية فريضته !!

— ٢ —

عرض ورد

عرض غوردون على المهدى أن يكون سلطان الغرب ، وأمل أن تكون صلته بعظمة السلطان الجديد حسنة .

وعرض غوردون على عوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية القوية التى تقيم عند سنار بين نهر عطابره والنيل الأزرق ، أن يكون مديراً للخرطوم ، وأنعم عليه بلقب باشا . .

أما المهدى فقد رد يدعو غوردون إلى الاسلام وأما عوض الكريم ، فقد اعتذر عن تولى هذا المنصب الكبير عندما علم أن الحكمدار الجديد أقبل من غير جند تدعم حكمه.

ورسالة المهدى هامة حافلة ، نقتطف منها أهم فقراتها :

● الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبدالله إلى عزيز بريطانيا ، والخديويه غوردون باشا

قد وصلنا جوابك ، وفهمنا مافيه ، وإنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين ، وفتح الطرق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم ، وحل المسيحية ، من النصارى والسلمانيين. وأن تجعلنى سلطاناعلى كوردفان. فاقول والامر لله:

● إنى قد دعوت العباد إلى صلاحهم ، وما يقربهم من ربهم ، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ، وليعملوا مايصلحهم فى آخرتهم . وقد كتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا بجزيرة « أبا » بدعايته الى الحق ، وبأن مهديتى من الله ورسوله . ولست فى ذلك بمتحيل ، ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا ، وإنما أنا عبد أحب

المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتعزيز السلاطين ، ونبوهم عن الحق المبين ، لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين . وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم ، وأخذ نصيبهم من ربهم ، فاخذوا الفانى ، وتركوا الباقى ، واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ، ولم يسمعوا قول الله ، ولارسوله ، ولم يذكروا خير القرون الذين لم يغنى عنهم ذلك شيئا ، وندموا على قدر الذى تمتعوا به فايدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم إلى الله تعالى .

● .. وكيف من يكون على خلاف طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، يفتح باب زيارة قبره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيارة الكلاب ، كما ورد أن الدنيا جيفة ، وطلابها كلاب . ولم يكن يرغب من عبد غير الله ، ونسى الله ، وأعرض عن كلامه ، وطلب متاع الحياة الفانية ، فان كنت شفيقا على المسلمين ، فبالأولى اشفق على نفسك ، وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● .. اعلم أن حزب الله واصل اليك ، ومزيل لك عما شاركت به خالقك ، فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين . وأما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت إلى إطلاقهم اليك ، فانا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفى دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله ، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم ، فان الله قد أيدنى رحمة للعباد ، لانقذهم من الهلاك الذى هم واقعون فيه ، لولا رحمة الله بظهورى فيهم .

● ..ثم ان مثل هديتك عندنا كثير ، ولكن أعرضنا عنه طلباً لما عند الله ، وأقول فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها « أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون »

● واعلم أنك إذا آتيتنا مسلماً نربيك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به

طمعك فى الدنيا وما فيها . ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاحاً للمسلمين ، وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد مدير (دارا) سابقاً ، فانه لما أتانا و رأى الحق وفرح بلقائنا غاية الفرح ، وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالله ، واختار الآخرة و وثق بالله ، وليناه على دارفور .

وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين بالتسليم ، فأكرمناه ، و إلى الآن نريد كمال تربيته ، وهو الآن فى خير كثير .

وكذلك السيد جمعه الذى كان مديراً للفاشر الآن أرسلنا إلى محمد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والارشاد .. الخ

● ...وليكن معلوماً عندك يا حضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدى قد أنذرتهم أولا انذاراً بليغاً ، وها هو واصل اليك انذار ولد الشلالى بعد مخاطبته لى ، وانذار « هكس » بأجوبة عديدة للعامة ، وجواب مخصوص له ولأكابر جيشه . وقد أرسلنا إلى باشا الأبيض بجواب ، فقتل رسلنا ، و بعد أن وقع فى يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج إلى الصدق مع الله ، ولا زلنا نكرمه ، ونعظمه ليقتدى بنا ، ويصدق مع الله فيكون من الأصحاب الذين هم كالنفس، فلم يصدق ، ولا يزال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه ، حتى أخذته نيته فمات [1] . ومع ذلك لأجل مبايعته ومجالسته معى أياما قد أتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء .

● و بعد أن كرر المهدى دعوة غوردون إلى الاسلام ، أضاف حاشية فيها بيان هدية منه « وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام ومسبحة »

وكان تاريخ هذه الرسالة جماد أول سنة ١٣٠١ ، وقد قدم بها رسولان من قبل المهدى يحملان الكتاب والخرق ، فلما قرأ غوردون ما ورد بالرسالة هاج وغضب ، ورفس الهدية بقدمه . وكتب إلى المهدى يقول له :

---

(١) هو محمد سعيد باشا مدير كردفان . وأما الشلالى ، فهو يوسف باشا الشلالى.

« إننى أدعوك إلى السلم ، وأنت تدعونى إلى الحرب وأدعوك إلى حقن الدماء ، وأنت لا تميل إلا إلى سفكها . فأقول لك الآن ، لا بد من قهرك وكبح جماح طغيانك ، ومهما يكن عندك من الاتباع فلا بد أن ترضخ صاغراً أو تهلك حيال قوتى الحكومة الخديوية والدولة الانجليزية »

***

هل أراد غوردون الحرب فعلا . واعادة الحكومة النظامية الشرعية إلى سلطتها ، أم كانت له مهمة أراد أن يتوسل لها بمهادنة المهدى .

ولم يترك الفصل الذى عقده فوزى باشا [1] عن « مأمورية غوردون الحقيقية » شكا فيا قصد . ولم تكن خطبته الأولى عند وصوله مناورة ، ولا خدعة أريد بها غير ظاهرها .

فقد ورد فى مذكرات غوردون :

« أرى أن حكومة جلالة الملكة قد عقدت النية على ألا تأخذ على عهدتها المهمة الكثيرة الصعوبة التى غايتها وضع حكومة منتظمة لأمم السودان ، وأنها بدلا من ذلك قد صممت على أن ترد إلى هذه الأمم حريتها ، وألا تسمح للحكومة المصرية بالتداخل فى شؤون تلك الأمم »

لماذا صممت حكومة لندن على أن تسلك هذا السبيل ، وأيد كبار رجالها هذه الخطة بتصريحاتهم وأقوالهم ؟ فقد ذكر جلادستون : « إن مهمة غوردون هى اخلاء السودان ، وانقاذ موظفى الحكومة »

هل أرادت أن تشل يد الحكومة المصرية لكى تكون لها هى اليد الأولى ؟ هل هذا هو السبب فى الحملة العنيفة المنكرة على الادارة المصرية للسودان ، وهى حملة ظالمة

---

(١) السودان بين غوردون وكتشنر ، ص ٢٩٥ ، وما بعدها .

ينقضها تماما جميع الرسائل والوثائق التى بينت اتجاهات مصر بالنسبة للسودان ، وكلها اتجاهات توحيد وخير شامل ورحمة ورفق بالمدركين وغير المدركين من سكان حوض النيل ؟ هل أرادت الحكومة الانجليزية أن تحول دون أن يحس هؤلاء السكان بالمعنى الحقيقى لكلمة « وطن » التى طالما ترددت وتكررت فى أقوال وكتابات وأعمال حكام مصر وخديويها ؟

على كل حال ، كانت مصر نفسها تمتحن بمحنة الغزو الأجنبى فى هذه الأيام، فكل ما كان يدبر للسودان كان فى حيز الامكان ، وقد بدأ هذا التدبير بايفاد ستانلى إلى منطقة أوغندا وملكها فى بعثة سياسية ، ثم إيفاد بعثة من المبشرين الانجليز تتابع العمل فى هذه الأرجاء ، رغبة منها فى تطويق النيل من الجنوب [1] .

ظهر لغوردون أن من المستحيل عليه أن يتفق مع المهدى ، أو يهادنه إلى حين . وتبين له فى وضوح أن المصريين فى الخرطوم وفى غيرها من المدائن التى لم تقع بعد فى أيدى المهدى ، أصبحوا قاب قوسين من خطر الابادة ، وستقع مسؤولية هذه الأرواح الكثيرة فى عنقه فقرر أن يشرح الحال بوضوح للقاهرة — للسر بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) وللحكومة المصرية ، وأن يطلب نجدة تبقى طريق بربر مفتوحاً . وهى نجدة صغيرة ، يكفى وصول أول فوج منها لكى يتضخم أمرها ويصل إلى كل مكان انها حملة كبرى .

بعث غوردون احدى عشرة رسالة برقية إلى السر بارنج يوضح هذا الطلب، ويحدده ويقول : إنه لن يستطيع بعد اليوم أن يراسل القاهرة لأن الخط التلغرافى سيقطع ، ولأن الخرطوم نفسها ستهاجم قريباً .

---

(١) كان النيل قد طوق من الشمال باحتلال انجلترا لجزيرة قبرص ، وكانت ملكا لتركيا ، وذلك قبل الشروع فى « الاهتمام » بجنوب النيل ببضع سنين .

وردبارنج — أوكرومر — يقول لغوردون أنه لم يفهم رسائله ، وأن على أسير الخرطوم أن يفكر طويلا فيما يطلب قبل أن يطلبه . . ومن رسائل غوردون فى أول مارس سنة ١٨٨٤

« لم أزل أعتقد كال الاعتقاد أن اخلاء السودان ممكن لكن أقول لك انه من المستحيل اجلاء المستخدمين المصريين عن الخرطوم إذا لم تساعدنى الحكومة بالطريق الذى أوضحه لها »

فأجابه السربارنج :

« لقد وصلتنى الاحدى عشرة رسالة التلغرافية المرسلة إلى فى الأربعة أيام الأخيرة، بخصوص مسائل السياسة العامة ، و إنى شديد الرغبة فى مساعدتك بكل طريقة لكنى لم اتمكن من معرفة ماترغبه للآن ، وأرى أن أحسن طريقة هى أن تلخص المسألة جيداً ، وتخبرنى تلغرافيا بما تستصوبه »

فأجاب غوردون يلخص مطالبه فى ٩ كلمات هى :

« يجب على الحكومة مساعدتى ، ولا بد من إجابة مطالبى »

كيف تصرف قنصل انجلترا فى هذا الاستصراخ ؟ . . كتب إلى اللورد جرانفيل يقول : « إن الجنرال غوردون والسر ستيوارت يلحان فى وجوب فتح الطريق بين سواكن و بربر لنجاح مأموريتهما الحاضرة . أما أنا فلا يمكننى تأييد ماجاء بتلغراف ستيوارت من ارسال فرقة من الخيالة الانجليزية أو الهندية إلى سواكن »

وكتب القنصل فى رسالة ثانية لجرانفيل :

« أتشرف بأن أخبر سعادتكم أن الجنرال غوردون كتب إلى تلغرافياً بأننا لو أرسلنا ١٠٠ (مئة) جندى إلى أصوان وحلفا يأمن من كل خطر ، ويكون فى حالة اطمئنان كالسواح المسافرين فى النيل وينتج منها تحويل صغير ، أما أنا فلا أريد مطلقاً أن أخاطر بحياة فرقة صغيرة مؤلفة من مئة جندى فقط »

وعلق فوزى باشا على هذه الرسائل بقوله :

« كان قصد غوردون بكل مخابراته مع السر بارنج أن يكون التاريخ حكما بينه وبين انجلترا ، ولذا بعث بتلغرافات قبل وصوله إلى الخرطوم فحواها أن الاضطرابات أقل مما كان يظن ، وأنه يرى أن لا مندوحة له من تمحيص حكومة جلالة الملكة النصح بتسكين الاضطراب فى السودان الشرقى ، وتقوية خطوط الاتصال بين بربر وشواطىء البحر الأحمر من جهة ، و بين حدود مصر من جهة أخرى . وحاول أن يقنع السر بارنج بأن السودان مفتقر كل الافتقار إلى اشراف الحكومة الخديوية عليه بحقوق السيادة ، وسأله ابدال الفرمان الذى كان يحمله بآخر يحتم على السودان وجوب الخضوع لمصر ، فذهبت مساعيه كلها ادراج الرياح ، وأصر السر بارنج على إنفاذ الخطة التى توخاها أولا »

والحقيقة ان موقف غوردون كان غامضاً كل الغموض ، فقد سار أول الأمر فى ركاب النهضة المصرية ، ونفذ رغبات الخديوى اسماعيل بأمانة . إلا أنه اضطرب عند ما تبين سياسة بلاده حيال أعالى النيل ، فانسحب من مهمته ، وعاد إلى القاهرة ، لكى يظفر بتقدير الخديوى ، حتى أنه اختاره ليرأس لجنة التحقيق الدولية فى مالية مصر . وهنا بدأ دور اصطدام شديد بينه و بين قنصل انجلترا السير بارنج .

و وصف غوردون صورة من هذا الصراع بقوله :

« كنت فى الدور الأرضى فى احدى غرف القصر العديدة التى أولانيها سمو الخديوى فوجدت بارنج . و بارنج فى المدفعية الملكية أما أنا ففى فرقة المهندسين الملكيين . وقد كان بارنج فى مهده لما كنت مشتركا فى حرب القرم . ولاحت لى على وجهه مظاهر الإدعاء والفخامة . فتكلمنا قليلا وقلت له : « إنى سأفعل مايطلبه منى الخديوى » فأجاب : « ليس هذا فى مصلحة الدائنين » . و بعد هنيهة افترقنا . و إذا كان الزيت يمتزج بالماء فانني استطيع الاتفاق مع بارنج ! ! »

ترى هل كان هذا النفور الشخصى بين الرجلين هو سبب نكبة مصر فى السودان ، واصرار كرومر على التضحية بغوردون ، أم أن السياسة الاستعمارية العامة كانت تقتضى

هـذه التضحية .. الحق أنى أميل إلى وضع العاملين معاً فى الميزان . و إلا فبماذا نفسر اصرار كرومر على أنه لم يفهم ما ورد فى احدى عشرة برقية ، فى حين أنها كلها كانت مفهومة واضحة وهى ترتيب مظاهرة عسكرية تبقى خط الارتداد مفتوحا أمام غوردون لـكى يتراجع أمام المهدى و ينقذ عشرات الألوف من المصريين .

ومن الواجب أن نفتش عن مركز الخديوى توفيق فى هذه الأزمة،لقد كان حديث عهد بالثورة العرابية ، وكان منهك القوى مما حدث فيها ، وما حدث منها ، وما حدث بعدها . ولـكنه مع هذا عبر عن آرائه بوضوح فى حديث نشر فى الصحف قال فيه :

« لم يكن فى استطاعتى أن أبدى دليلا على حسن مقاصدى بأحسن من تعيين غوردون باشـا حكمداراً عاماً للسودان ، ومنحه كل السلطة فى عمل ما يراه ضروريا لاصابة الغرض الذى ترمى اليه حكومتى ، وحكومة جلالة الملـكة ، حتى أنى قلدته نفس السلطة المخولة لى ، وتركت له الحـكم على الحالة الراهنة ، ولا ريب فى أن مايستطيع اتيانه من الأعمال أحسن ما يكون . وقد قبلت سلفاً ما يمكن أن يقترحه من الوسائل ، وما يراه حسناً من التصرفات يكون الزامياً بالنسبة الينا ثم انى بعد أن جعلت عظيم ثقتى بهذه الـكيفية فى هـذا الباشا لم أشترط عليه إلا شرطاً واحداً ، وهو أن يبذل عنايته فيما فيه طمأنينة العناصر المتمدنة من أوربيين ومصريين . »

ثم قال : « إن قلبى يذوب عند ما أفـكر فى الألوف المؤلفة من رعاياى المخلصين الذين تـكفى غلطة منه لهلاكهم . وانى لا أشك فى أنه سيبذل كل ما فى وسعه لحقن دماء أكثرهم على الأقل .فان نجح بعون الله فى اخلاء الخرطوم وأهم موانى السودان الشرقى فله الشكر مدى الدهر على نجاة رعيتى التى ترتعد فرائصها من توقع مايخشى حصوله بعد حين»

وذكر الخديوى أن على غوردون أن يعتمد على معونته ومعونة حكومته بقـدر ماتصل اليه يد الامكان .. ولـكن هل كان فى امكانه شىء والسياسة كلها تدبر فى لندن لا فى القاهرة !!

مدينة تذبح

أخذ الوقت الثمين يضيع فى استنجاد غوردون وفى صمت لندن والقاهرة ، حتى قطع طريق بربر بعد ثلاثة أشهر من قدومه ، وأخذت حلقة حصار المهدى تضيق على عاصمة النيل الثانية ، و بدأ أهلها يحسون بوطأة الحالة احساساً قويا .

وكان أول قتال جدى فى سبيل استيلاء المهدية على الخرطوم فى رجب سنة ١٣٠١ إذ أمر المهدى قائده « أبا قرجه » بالتقدم إلى الخرطوم من جهة الجريف، وهى قرية على النيل الأزرق تبعد عن العاصمة أربعة أميال ، ولما تكامل الجمع وانضمت اليه جموع من الضواحى المجاورة زحف على استحكامات الخرطوم ، وظلت الحامية صامتة لاتجيب على نيرانه حتى صارت على بعد ١٢٠٠ متر من سور المدينة ، حيث يوجد حقل ضخم من الألغام ، أخذ يتفجر فيهم ، ثم تناولت بنادق ومدافع الحصون المهاجمين فخسروا أربعة آلاف قتيل عدا الجرحى ..

ولما علم المهدى بما حدث، قرر أن يوفد قائداً من أقدر قواده هو عبدالرحمن النجومى ومعه ستون الف مقاتل ، وأضاف اليه عبدالله بن النور مع عشرين الفا ، و زوده بمدفع كروب ، وست مدافع جبلية ، كما أصدر المهدى إذنا عاما لكل من يرغب فى مرافقة النجومى من قبائل السودان الأوسط ، بان يسير معه . وكان عدة الخيالة فى هذا الجيش عشرة آلاف ، وحملة البنادق عشرة آلاف ، والباقون من حملة الحراب . وفى آخر ذى الحجة من هذا العام ١٣٠١، وصل النجومى إلى قرية الجريف، وتولى القيادة العامة.

وكتب القائد الجديد إلى غوردون يعرض عليه أن يستسلم ، فرد عليه باشا الخرطوم

مستهزئا . وكان يعلم أن جيش الدراويش يعانى أزمة فى تموينه بالأغذية بسبب فرار أهل القرى ، وقلة الحاصلات ، فارسل غوردون إلى النجومى — على سبيل الاستهزاء — أو الحرب المعنوية ٥٠٠ أقه من البقسماط ، لكى يريهم أن زاده أوفر ، وأنه لا يعبأ بحصارهم .

هل كان غوردون فى يسر حقيقى ، وقد توفر له من الزاد ما يكفى أهل هذه المدينة الكبيرة وحاميتها ؟ الحقيقة أن غوردون كان فى أزمة ماحقــة ، فقد ظهر أن كمية الميرة المثبتة فى الدفاتر لم تــكن صحيحة بسبب خيانة الموظفين ، وانتهازهم فرصــة الاضطراب للاثراء . كما أن متعهدى توريد الغلال كانوا يأخذون أثمــانها ويفرون إلى المهدى أو إلى جهات أخرى ..

وقد أدت هذه الحال إلى تفشى المجاعة فى المدينة ، ووصفها فوزى باشا كما يلى :

« كانت المجاعة مريعة جداً ، حتى أن كثيراً من السكان تورمت أطرافهم وصار قوت الحامية من الصمغ مخلوطــاً مع جمار النخل ، وقد شوهد أن الذين يقتاتون بهــذه الأصناف يصابون بالاسهــال وتظهر على وجوههم أعراض تشبه أعراض مرض اليرقان الأصفر ، ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاثة أيام تعقبها أعراض الموت .

«ومن غرائب ما رأيناه فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك كانوا يصطادون فى كل يوم نحو الف قنطار من الأسماك ، ولما بدأ الحصار انقطع ورود الأسماك كأنهــا فرت من قعقعة البنادق وهزيم المدافع ، حتى أن غوردون اشتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة أشهر فــلم يتيسر الحصول عليها .

«وكما أن الأسماك هجرت شواطىء الخرطوم ، فان أراضى بساتين المدينة كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة ، وفى ابان الحصار تلف كل مزروعاتها ، ولم ينبت فيها شىء من البقول ، وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها ! !

« وقد قاسى غوردون من ألم المجاعة ما قاساه أصغر جندى من الحامية ، أو أحقر شخص من سكان المدينة ، فانه اضطر إلى التغذى بجمار النخل حتى أصيب بتلبك معدى

كاد يودي بحياته . وفي ذات يوم جاءني الطبيب « أكيوداكي » اليوناني طبيب الحامية ، وأخبرني بأن مداومة غوردون على تناول الجار لا تحمد مغبتها ، وأن صحته الآن على خطر كبير ، ولا بد من تدارك غذاء جيد له، فكنت أحصل له بعد كل يومين أو ثلاثة في دجاجة أو زوج من الحمام الطاعن في السن .

«ودخلت عليه مرة ، وقد قدموا له شيئاً من المرق ، وكان لم يطعم شيئاً من ٢٤ ساعة فلم يتناول من المرق إلا قليلا. فألححت عليه في تناول كمية تقوم بتغذيته،فامتنع وقال لي: إنني لا يهنأ لي بال ، ولا تميل نفسي إلى طعام ما دام جنودي يموتون جوعا . وإنني فعلت الواجب على والله يفعل ما يشاء .

وكانت أسعار القوت في المدينة حتى سقوطها كما يأتي :

«ثلاثين ريالا ثمن الكيلة من الغلة . وعشرة ريالات ثمن الأقة من البقسماط ، وخمسة ريالات ثمن الأقة من اللحم البقري.وكان بعض السكان يذبحون الحمر الأهلية وتعاقب الحكومة من يرتكب ذلك ...

***

في يوم العيد (آخر رمضان سنة ١٣٠١) ، أعلن المهدي أن النبي ﷺ أمره بالتقدم إلى الخرطوم ، وبشره بفتحها ، وفي اليوم التالي بدأ زحفه الشهير ومن حوله جمع هائل من الجنود والأنصار يزيد عددهم على نصف مليون ، ولما وصل إلى مسيرة ثماني مراحل من الخرطوم أقام معسكراً هناك .

وفي محرم من العام التالي (١٣٠٢) ركز المهدي هجومه على أم درمان ، ولكن مدفعية المدينة ردته بخسائر متوسطة . وكان يتولى قيادة الحامية فرج باشا ، وهو ضابط سوداني كان برتبة اليوزباشي ، وظل غوردون يرقيه حتى منحه رتبة اللواء .

ارتد المهدي ، ولكنه شدد الحصار على أم درمان ، فلما كاد ربيع الأول ينتهي

كان القوت قد نفد تماماً من الحامية ، ولم يكن لدى غوردون فى الخرطوم أى وسيلة لامدادها بتموينها،لأن الخرطوم نفسها كانت فى مجاعة كما ذكرنا . و بعد تبادل الرسائل بالاشارات ، مع فرج باشا ، حاول محاولة فاشلة فى اجلاء الحامية بالبواخر ، ثم أوعز لها أن تسلم للمهدى . فطلب فرج باشا كتاب الأمان . و فى آخر هذا الشهر(يوافق يناير١٨٨٥) دنا المهدى بشخصه من خندق المدينة ، فتقدم الضباط نحوه ، وترجل المهدى عن فرسه وجلس مع الضباط على الأرض،وقدم لهم شراباً من العسل،وأمر بأن يصبح فرج باشا(١) من أحد قواده. و بعد سقوط ام درمان ركز المهدى كل جهوده للظفر بالخرطوم .

ومنذ وصول المهدى إلى ضواحى الخرطوم، وهو يتبادل الرسائل مع غوردون يعرض عليه شتى العروض لتسليم المدينة ، ومنها :

١ — ان يسلم غوردون المدينة و يسمح له المهدى بالعودة ، هو ومن معه من المصريين إلى مصر ، بشرط ألا يحملوا معهم إلا أخف المتاع ، على أن يؤدوا أجر الجمال التى تنقلهم إلى الحدود .

٢ — أن يرحل غوردون بدون قيد أو شرط ، و يترك المدينة للمهدى .

وكان غوردون يرد قائلا : انه إذا وقع أسيرا فان حكومته تفديه بعشرين ألف جنيه (٢) . وظل يطاول المهدى ، وكان يقصد من استمرار المكاتبات أن يقف من رسائله على أنباء النجدة التى كانت تشق طريقها فى النيل لانقاذه من الخرطوم ، أو رد الحصار عنها . وكانت هذه الحملة قد سيرت فى بعض سفن ، ولكنها كانت عاجزة تماما عن أن تتصل بالخرطوم أو بمن فيها . ولما وصلت طلائعها كانت الخرطوم تحترق وقد ذبح معظم من فيها .

---

(١) أخلص فرج باشا فى خدمته للحكومة المصرية حتى يوم التسليم ، ولما أسره المهدى ، أخلص له بدوره ، وهو القائد الذى هاجم حدود الحبشة فى عهد الخليفة عبد الله التعايشى ، وقتل النجاشى يوحنا ملك الحبشه ، وهزم جنده .

(٢) ورد فى رسائل المهدى ردا على فدية العشرين ألف جنيه : «أنت إن قبلت نصحنا فبها ونعمت. وإلا إن أردت أن تجتمع على الانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام »

وذكر سلاطين في كتابه «السيف والنار» وكان أسيرا في جيش المهدى : « بعد ستة أيام من سقوط أم درمان سمعت عويلا فى المعسكر لم أسمع مثله منذ خروجى من دارفور . وكان المهدى يمنع الناس من اظهار الحزن على الموتى أو القتلى ، لأنهم فى مذهبه يدخلون النعيم . ففهمت انه لابد أن قد حدث شيء غير عادى حتى يخالف الناس أوامر المهدى . وكان الحراس المكلفون بحراستى يتطلعون لمعرفة سبب هـذا العويل ، وقد تركونى لهذه الغاية . وعادوا بعد قليل يقولون إن طلائع الجيش الانجليزى التقت بالقوات المجموعة من البرابر والجعاليين والدغيم وكنانة ، الذين كان يقودهم موسى واد حلو وهزمتهم فى أبو كلبة ، وقد هلك كثيرون ولم ينج إلا عدد قليل عادوا وأكثرهم به جراحات ، وقد فنى الدغيم وكنانة تقريبا . وقتل موسى واد حلو ، وعدد من الأمراء (القواد) أيضا .

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار هزائم أخرى للدراويش . وعقد المهدى وأمراؤه مجلسا للتشاور ، فقد رأوا أن كل ما جنوه من الانتصارات السابقة قد بات فى خطر ، حتى أن المحاصرين للخرطوم خافوا وارتدوا من الحصار . وصار القضاء على المهدى مسألة يمكن انهاؤها فى بضعة أيام ، فيجب عليهم أن يخاطروا بكل شيء .. بهذا أرسلت الأوامر لقواد الحصار بأن يستعدوا الاستعداد التام للهجمة الأخيرة .

هذا كان حال المهاجمين حول الخرطوم . أما المدافعون عن الخرطوم فقد ذكر ابراهيم باشا فوزى عنهم ما يلى :

« كان غوردون ومعه قناصل الدول واقفين على سطح السراى ينظرون بالنظارات المعظمة إلى كثرة الدراويش الذين يجتازون النهر ويلحقون بمعسكر ابن النجومى ، وقد استنتجوا من وقوف الناس فى صعيد واحد أن المهدى لابد أن يكون فى معسكر ابن النجومى ولا بد أن يكون قدومه لشأن ذى بال لأنه لم يقدم على معسكر ابن النجومى منذ حل بام درمان .

« وفى منتصف النهـار استدعانى غوردون إلى السراى وأخبرنى بما شاهده مع القناصل من كثرة اجتياز الدراويش للنيل ، وانضمامهم لمعسكر ابن النجومى ، ثم قال لى

هيا بنا نطوف حول الخندق ، ونتفقد الجند ، فرافقته إلى الخندق وقضينا أربع ساعات فى الطواف حوله ، وكان يشجع الجنود ويحثهم على المقاومة والثبات ، و يعدهم بوصول نجدة الانجليز فى الغد ، فلم يلتفت أحد لأقواله ، وكان كمن يصرخ فى برية أو يطلب من الماء جذوة نار . اذأن العساكر كانوا صرعى لا حراك لهم ..

« فعدنا إلى السراى وقد أخذ اليأس منا كل مأخذ ، واجتمع عنده قناصل الدول لدى عودته ، وكان الليل قد أقبل وما تزال السماء متلبدة بغيوم حجبت نور القمر . فقال غوردون للقناصل :

— لقد رأيتم تجمع العدو . وانني بتفقدى الحامية ، وجدت الجنود قد فقدوا كل قوة وشجاعة يقدرون بها على حراسة الاستحكام فى هذه الليلة المشؤومة . وانني موقن بسقوط المدينة قبل أن يسفر الفجر . وقد كنت عملت ماق وسعى لإنقاذكم من هذا الخطب ، فتقاعدتم ، وأبيتم ، ليتم قضاء الله عليكم . و إلى هذه اللحظة ، فانني أدعوكم لانفاذ ما اتفقنا عليه أولا ، فهاهى الباخرة ، فقوموا وسيروا بها ومعكم ابراهيم فوزى كما تقرر قبلا عسى أن يقرن سعيكم بالنجاح ، وتقابلوا الجنود الانجليزية ، أما أنا فانني موقن بعدم لقائهم . فأجابوه بأن نجاة الباخرة مستحيلة لأن طوابى العدو قد تضاعفت ، وزاد عددها أضعافا على الذى رأيناه يوم الجمعة . وعلى ذلك فنحن باقون هنا ، والله يفعل ما يريد . ثم هموا بالانصراف ، فصافحهم كلهم قائلا انني أبرأ إلى الله والعالم أجمع من تبعة أى كارثة تحل بكم . فقالوا نحن نشهد بما تقول فصافحهم وودعهم الوداع الأخير.

ثم استدعى غوردون ابراهيم باشا فوزى وقال له :

— أنا موقن بوقوع الحادث الأخير على هذه المدينة فى هذه الليلة . وانني كما علمت لم أدخر شيئا من سعيي فى سبيل انقاذها . ولكنى لا أزال أشعر بتبكيت الضمير الذى يؤلمنى لتركى أهالى هذه المدينة الذين وثقوا بى ، وحاربوا معى ، عرضة لانتقام المهدى . ولو لم أكن طول حياتى أطلب رضاء الله فى كل أعمالى لانتحرت تخلصا من وخز الضمير.

لـكن الانتحار ينافى التفويض والتوكل على الله الفاعل لـكل شىء ، ويوجب غضبه سبحانه وتعالى .

ثم قال غوردون لفوزى وهو يودعه الوداع الأخير :

— عليك بحراسة المدينـة بمن معك من الأوربيين ، وأنا أعلم أن هذا لا يجدى نفعا . ولـكن نقوم بواجبنا الى اللحظة الأخيرة ..

•••

فى صباح يوم الأحد ٨ ربيع الثانى خرج المهدى من كوخه يحمل على رأسه مقطفا من الخوص مملوءا بالرمل ، فتبعه الناس حتى انتهى إلى ضفة النهر ، فاحاط به الجنود ، وهو لا يكلم أحداً منهم ، وأخذ يقبض من الرمل بيده ويقـذفه فى النهر ويرفع صوته قائلا : « الله أكـبر على الخرطوم » فيجاوبه من حوله بمثل ما قاله ، حتى فرغ ما فى المقطف من الرمل ، فالتفت إلى من حوله . وقال لهم إن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بالهجوم على المدينة فى هذه الليلة وأن سـقوطها فى يده ضربة لازب . ثم ركب زورقا واجتاز النهر إلى الضفة الشرقية حيث قصد معسكر ابن النجومى كما ورد قبل .

وبعد صلاة العصر ، رتب المهدى الجيش ، وجعله تحت إمرة ابن النجومى ، وولاه قيادة الفرسان ووضعهم فى القلب ، ووضع على الميمنة الحاج محمد أبا قرجه ، ووضع على الميسرة محمد نوباوى

وكان قائد الميسرة هو المـكلف بالاستيلاء على سراى غوردون ، وقد خاطبـه المهدى قائلا :

— لدى دخولك المدينة يجب ان تقصد سراى غوردون على الفور ، وتبلغه تحيتى ، ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحداً يعتدى عليه حتى توصله إلى سالما بغير أن يصيبه مكروه .

وخطب المهدى فى الجيش نفسه قائلا :

— لا يتعرض أحد منكم لحياة غوردون بسوء لأننى أريد أن أفتدى به احمد عرابى باشا .

ثم صدرت الأوامر إلى ١٠٠ الف مقاتل كى تنضم إلى معسكر ابن النجومى ، وكلهم من قبائل البقارة ، وقد انضموا إلى الميسرة تحت قيادة نوباوى ، وكانوا مسلحين بالحراب والسيوف .

وفى فجر يوم الثلاثاء ١٠ ربيع الثانى (١٥ يناير سنة ١٨٨٥) كان خندق الخرطوم قد اجتيح ولما دخل محمد نوباوى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غوردون ، وكانوا زهاء ١٠٠ الف مقاتل ، وأمر غوردون حرسه بالا يتعرضوا للمهاجمين ، ثم لبس كسوة التشريفة الصغرى، وتقلد سيفه ، ووضع على رأسه كوفية من الحرير ، وربطه بعقال كرى الاعراب . وكان نوباوى و بعض الدراويش أول من دخل عليه ، فوجدوه جالساً على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض ، فابتدره أحدهم وقال له :

— أين أموالك ياغوردون يا كافر ؟

فتبسم غوردون وقال له :

— أين محمد احمد (المهدى) ؟

فابتدره الرجل بطعنة رمح فى صدره خر منها صريعا على الأرض ، والدم ينبجس من جرحه ولكنه لم يفقد حواسه . وصاح أحد الحاضرين :

— لاتقتله بل أبقه كما أمر المهدى :فاجاب . محمد نوباوى . .

— إن الخليفة التعايشى أمر بقتله !!

ثم سحبوا غوردون من رجليه ، وكان متنبها لما يحدث له ، حتى أنزلوه إلى ساحة السراى ، ثم قطعوا رأسه وأرسلوها إلى الخليفة محمد الشريف ، فانتدب أحد أقارب المهدى . فركب الباخرة اسماعيلية لكى يوصل الرأس إلى سيد الخرطوم ، وسيد السودان كله محمد المهدى .

ويكمل سلاطين بقية القصة — وكان يرسف فى الأغلال فى معسكر المهدى — يقول:

« ظهر قرص الشمس أحمر فى الأفق ، فتساءلت : ماذا يأتينا به هذا النهار؟ وقعدت أنتظر وأنا فى أشد القلق وهياج النفس . ثم سمعت أصوات الابتهاج وصيحات النصر من بعيد . وتركنا الحرس وجروا لكى يعرفوا سبب هذه الأصوات . و بعد دقائق عادوا الينا وأخبرونا بأن الخرطوم أخذت عنوة ، وصارت الآن فى أيدى الدراويش. و بقى لى شك أتعلل به : هل تكون هذه الأنباء كاذبة ؟

« ثم زحفت ، ونهضت أنظر فى المعسكر فوجدت جمعا غفيراً من الناس قد تألبوا حول مكان المهدى والخليفة (عبد الله التعايشى)، ثم رأيت هؤلاء الناس يسيرون نحوى وكان أمامهم ثلاثة من الزنوج يدعى أحدهم « شطة » ، وكان فى يده قماش مشرب بالدم قد لف على شىء ، وكان وراءه جمهور من النـاس يبكون. واقترب العبيد الثلاثة منى، ثم وقفوا وهم يشيرون اشارات الاهانة والسباب ، وحل « شطة » القماش ، وأخرج لى رأس غوردون . فدار رأسى ، وشعرت كأن قلبى قد وقف . ولكنى جمعت كل قواى وضبطت نفسى ونظرت إلى هـذا المنظر المفزع وأنا صامت . وكانت عينا غوردون الزرقاوان قد فتحتا إلى النصف . أما الفم فـكان فى هيأته العادية . وكان شعر رأسه . وعارضيه قد علاهما الشيب .

قال « شطة » : أليس هذا رأس عمك الكافر؟

فأجاب سلاطين بهدوء :

— وما فى ذلك . جندى شجاع وقع وهو يقاتل . إنه لسعيد إذ قد انتهت آلامه . فقال شطة :

— ها ، ها . لا تزال تمدح هذا الكافر ، ولكنك سترى النتيجة .

ثم سار « شطة » إلى معسكر المهدى . ويروى فوزى باشا :

« لما وصل رأس غوردون إلى المهدى أنكر قتله . وصاح قائلا :

— لماذا قتلتموه . ألم أنهكم عن قتله ؟ فقال له التعايشي :

— ان قتله خير من استحيائه !

فبدت على وجه المهدى علامات الغضب ، وأسرع بالقيام ودخل منزله .

ونصبت رأس غوردون على خشبة طولها متران ، وأخذ النساء والصبيان يرجمونها بالحجارة ، ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعا صغيرة .



غوردون باشا

•••

عندما كان غوردون يخابر القاهرة لنجدته ، أرسل مرافقه السر ستيوارت ، بقوائم تحوى أسماء الأسر المصرية الموجودة فى الخرطوم ، و إحصاء بعددهم . وذكر أن جملة المطلوب ترحيلهم ٢٠٠٫٠٠٠ مئتى ألف نسمة هم مجموع المصريين الذين هربوا أمام عسكر المهدى من أنحاء السودان ، وتكدسوا فى الخرطوم فى انتظار العون والمدد .

وعندما سقطت الخرطوم ، سقط هذا العدد العظيم من الرجال والنساء والأطفال فى أيدى عسكر المهدى ، ودارت بينهم مذبحة فظيعة ، بلغ عدة من قتل فيها كما ذكر فوزى باشا أربعة وعشرين ألف رجل وثلاث نساء ، ثم لم تلبث المذبحة أن وصلت إلى الأطفال


ابراهيم باشا فوزى

الذكور حتى لو كانوا رضعا . وقد بدأت المذبحة عند طلوع الفجر ، وقبيل شروق الشمس أصدر الخليفة شريف الأوامر بالكف عن القتل. وأخرج السكان من منازلهم بملابس النوم ثم أودعوا فى مكان خارج الخندق بعد تفتيشهم . وفى اليوم التالى كان أمين بيت المال يستدعى كل أصحاب منزل ويقول لهم : انكم كفرتم بالله ورسوله وحاربتم المهدى . ولذا أهدر الله ورسوله دمكم وحرم مالكم عليكم ، وصيره حقا للمهدى . والمهدى عفا عن دمكم ، ولا سلامة لكم فى الدنيا والآخرة إلا بتسليم جميع أموالكم . حتى الخيط والخياط .

وقد ضرب كل رجل بقى حيا ألف سوط ، وكل امرأة نصفها . وبقى هذا التعذيب مستمرا شهرا كاملا حتى جمعت الأموال والأمتعة فى بيت المال .

وكان من بين ما جمع نحو ألف فتاة عذراء من بنات أعيان المصريين ، أخذوا سبايا وأرسلوا إلى المهدى فاختار منهن لحريته ثلاثين ووزع ما تبقى على حاشيته . كما أرسل إلى التعايشى وبقية القواد جموعا من نساء المصريين السبايا . ويقدر فوزى باشا عددهن جميعا بخمسة وثلاثين ألف فتاة وسيدة . ولم يحق لأحد من القواد أو الجند أن يحصل على واحدة من هؤلاء الأسيرات الشقيات إلا بأمر كتابى من أمين بيت المال



طريقة الجلد للحصـــول على المال . ويرى اثنان يتعاونان على جلد مصرى عجوز .

يوضح فيه اسمها واسم أسرتها . ومن احتاز امرأة من غير اذن يعاقب بعقوبة السارق .

وأصدر المهدى أمرا بطلاق جميع النســاء من أزواجهن — لأنه هذا الزواج حدث فى عهد الفترة — أى ما قبل الاعتقاد بمهديته ، ثم أمر الباقيات من النساء اللاتى لم تكن ذات جمال تسبى لأجله ، بأن يزوجن بعقود جديدة لازواجهن أو لغير أزواجهن حسب الظروف

وغنم المهدى من الخرطوم نحو ٣٠٠ ألف جنيه ، و ٣٠٠ ألف ريال مجيدى ونمساوى ، ونحو ٣٠ (ثلاثين قنطارا) من الذهب المصنوع حليا ، ونحو ٤٠٠ (أربع مئة) قنطار من الفضة .

أما أثاث المنازل والرياش والملابس ، فأنها لا تدخل تحت حصر ، وقد كومت فى هيئة تلال عظيمة الارتفاع . كما غنم المهدى عددا من المدافع والبنادق والذخيرة .

وقد هدم من الخرطوم جزء عظيم ، وما تبقى منها أصبح أشبه بالانقاض آوت إليه فلول المصريين المضعضعة المروعة المذعورة ، وقد منعت من كل غذاء اللهم إلا رطل ذرة يوزع على كل فرد يوميا .

وهكذا .. هكذا ذبحت الخرطوم .

الأسير

كان ابراهيم باشا فوزى أكبر مصرى فى الخرطوم أثناء محنتها ، منح هناك رتبة اللواء ، وعين حاكما عسكريا للمدينة ، ومشرفاً على دفاعها ، والتالى لغوردون من سكان المدينة . وصف ما حدث له عند اجتياح المدينة بقوله : ان الدراويش اوثقوا كتافه ، وأحاط به مئتى رجل شهروا سيوفهم وساروا به إلى أمين بيت المال وهم يصيحون به : يا كافر .. ياعدو الله .

ولما وقف بين يدى الأمين ، كان منزله مليئاً بالنساء السبايا ، وهو مشتغل بالنظر إلى فتاة فاتنة وهى مجردة من ملابسها ، و بيدها خرقة تستر بها عورتها ، وهو يقلبها يمنة و يسرة ، والدمع يجرى من عينيها ، وهى تتمتم : « رضينا بقضاء الله » ثم حانت منه التفاتة فرأى ابراهيم فوزى فصاح :

— أعوذ بالله من هذا الوجه الأبيض [١] . من هو هذا الكافر ؟ فقالوا :

— هو ابراهيم باشا فوزي . فقال :

— لماذا لم تقتلوه ؟.. فقالوا :

— تركناه حتى يظهر أمواله وأموال غوردون والحكومة .

ولما لم يدلهم فوزى باشا على هذه الأموال ، صاح الأمين بالعبيد فطرحوه أرضاً ، وجلس واحد منهم على رأسه ، وأمسك اثنان بالسياط ، وضرباه حتى كلت سواعدهما ، فأبدلا باثنين آخرين ، حتى سال الدم من جسده . و بعد أن مزق جسده ، زجوه فى

« ١ » حدثنى سودانى كبير ، قال ان أهل السودان يرفضون زواج الأوربيات لأنهن « مسلوخات » فى نظرهم ، أى قد نزع عنهن جلدهن . كما أن نساء السودان فى الغالب لا يحتجبن امام الأوربى لأنه « كافر » لا يعامل معاملة الرجال .

السجن ثلاثة أيام ، وفى كل يوم يعاودون ضربه وتعذيبه ليدلهم على مال لا يعلم مكانه.

ثم ساقوه إلى الأمير أبى قرجة ، لكى يأمر باعدامه ، فاذا بهذا الأمير يعفو عنه ، ويلحقه ببيته بعد أن اطمأن إلى أنه لا يخبىء مالا ، ولا يعلم عن أموال الحكومة شيئا .

وحول بعد هذا إلى المهدى ، ومعه السيد بك جمعه مدير الفاشر ، فلما فرغ من صلاة الظهر ، ووعظ الناس ، قيل للمهدى :

— ها هو ابراهيم فوزى

فهش فى وجهه وقال :

— يا ابراهيم فوزى إننى أعرفك منذ كنت حاكما فى مقاطعات البحر الابيض ، فلماذا ركنت إلى الكفار ، ولم تسلم لى. أولم يكن الواجب على مثلك اجابة دعوتى فأجاب:

— يا سيدى إننى من كبار قواد الحكومة ، ولا يليق بى أن أتركها فى أويقات الشدة ، وسويعات الأزمة . وكما أننى وفيت لها ، فسأوفى لك أيضا . فتبسم وقال :

— قد عفوت عنك . وأمره بالدنو منه فدنا وبايعه [1] ، ثم نزع المهدى مرقعته (جبته) وقدمها لابراهيم باشا فوزى ، فلبسها ، وكان هذا أكبر دليل على رضا المهدى .

ولما خرج الأسير الذى أصبح طليقا من حضرة المهدى تجمع الناس حوله ، هذا يلثم الجبة وذاك يلمسه لفوزه بهذا الشرف ، ولم ينقذه إلا أحد الأمراء الذى رد له جبته فاخذها وسار إلى بيت يوسف منصور قمندان طوبجية المهدى . وما أن وصل حتى وصلته منحة من المهدى ، هى ملاءة للغطاء ، وإناء لطبيخ الطعام ، وقصعة للأكل ، وجارية باعها بعشرين ريالا.

ونصح لابراهيم باشا فوزى أن يقابل الخليفة عبدالله التعايشى ، فخاف من هذه المقابلة لأن هذا الخليفة كان مشهوراً بالعنف والقسوة ، وما أن قدم له حتى عبس فى وجهه

---

(١) كانت صيغة بيعة المهدى هى : « بايعنا الله ورسوله . وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئا. لا نسرق . ولا نزنى ولا نأتى البهتان ولا نعصيك فى المعروف . بايعناك على ترك الدنيا والآخرة (كذا ...) ولا نفر من الجهاد »

ودهش لبقائه حيا ، مع أن الأمر كان صريحا فى قتل كل ذى شارب ولحية . ولكن ابراهيم باشافوزى كان لبقاً ، أو لعله اضطر أن يكون كذلك فعالج الخليفة بقوله :

— ياسيدى الخليفة الصديق ! إن سبب نجاتى من القتل هو تعلق قلبي بمحبتك ومحبة سيدنا الامام المهدى المنتظر و إن أنوارك وأنوار المهدى كانا سبب نجاتى من الموت . و إنى احمد الله على منته بمشاهدة نورك ونور المهدى ، وقد صرت الآن لا أكره الموت لانغماسى فى ذلك النور !!

فاطرق التعايشى إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال :

— يايوسف منصور . لقد دفوت عنه .

وهكذا نجا فوزى باشا ، وما كاد !!

•••

ولنترك الآن ابراهيم باشا فوزي ، لنتحدث قليلا عن شخصية المهدي : الذى وصل إلى كل هذا التوفيق ، وكل هذا النجاح فى ثورته ..

وقد أجمعت الشروح والتعليقات التى أضيفت إلى تفاصيل هذه الثورة ، على أن سببها كان فساد الحكم المصري ، وجور الحكداريين والمأمورين الذين كانت تعينهم حكومة القاهرة فى السودان . وجاء الوقت لكى نقول أنه ما من شىء أبعث على الاشمئزاز والقسوة من هذا التفسير المغرض الخاطىء الذى يضاف إلى ثورة السودان فى أواخر القرن الماضى . بل ربما كان صوابا خالصا أن نقرر أن السودان انما ثار ثورته . لأنه أحس بنفسه ، وأن جهود مصر فى وصله بنور الحضارة، قد أثمرت ثمرها العاجل، فتزايد طموح السودانيين ، وجاشت نفوسهم بشتى المعانى، فكانت الثورة . والتأمل فى تواريخ الثورات الكبيرة التى قامت بها الشعوب، يؤكد هذا المعنى ويزكيه . فلم تقم فى فرنسا ثورتها الكبرى أثناء عسف لويس الرابع عشر ، ولكنها قامت عند ماشرع رجال فرنسا فى عهد لويس السادس عشر يستغلون ضعفه ويضعون قواعد الاصلاح الحقيق . والثورة

الديمقراطية فى روسيا ، التى قلبت حكم آل رومانوف ، تمت بعد أن سلم القيصر فعلا بسلطان الدوما « مجلس النواب الروسى » واعترف بحقوق الانسان فى بلاده . والثورة العرابية فى مصر ، لم تنشأ إلا بعد أن أجرى اسماعيل اصلاحاته الكبيرة ، واتصلت مصر بالآراء الحرة اتصالا قويا عن طريق مدرسة جمال الدين الافغانى وعن طريق رجال البعوث التى عرفت كيف كانت الحياة فى الدول الراقية ..

وإذا نحن تعمقنا فى دراسة الحياة فى السودان قبل أن تصل اليه يد محمد على الكبير ثم اصلاحات سعيد واسماعيل ، فاننا نجد حكما اقطاعياً خضع فيه الأهالى لطائفة من السلاطين والملوك وشيوخ القبائل المستبدين . كما أن السودان كله خضع قرونا طويلة لحكم صيادى الرقيق وتجاره ، الذين كانت لهم سطوة تنخلع لها القلوب ..

زعموا أن الضرائب التى فرضت على السودان كانت كثيرة ، وان الجباة كانوا يسرقون أضعاف ما يصل الى يد الحكومة . ومن الجائز أن نسلم بفساد نظام الجباية ، ولكن حصيلة الضرائب الرسمية التى كانت تصل إلى خزينة القاهرة كانت قليلة ، اذا قيست بنفقات ادارة السودان نفسه ، ونفقات تعميره ، وتعليم أهله العلوم والحرف المختلفة. ما أكثر ما عملت القاهرة لنشر الزراعة ، واصلاح الموانى ، وشق الطريق للتجارة ، وتيسير الأمن لها .. وما أكثر ما انفقت مصر من المال ، ومن جهود العمال وأرواح الرجال لكى يأخذ السودان نصيبه الكامل من نفس الحياة التى كانت تحياها مصر .

فهل يمكن أن تقارن حياة قطر ، وجدت فيه المحاكم ، والمدارس ، والزراعات ، والغرف التجارية ، والمستشفيات ، وثكنات الجند النظامية ، والصناعات المتوسطة ، والطرق الممهدة ، والمدن المبنية على أحدث طراز ، والباب المفتوح للرحلة الى الخارج والداخل ، بحياة أخرى لا يسود فيها قانون ، ولا تعرف من العلم شيئا ، وتجارتها النهب والسلب والاغارة ، وطبها الكهانة والخرافة ، وجندها عصابات صيادى العبيد وقطاع

الطرق ، وصناعاتها الخراب وصيد بعض الوحوش البرية ، وطرقها البرية والنهرية منعدمة، ومساكنها أكواخ من القش والغاب ..

ان من الظلم كل الظلم أن ينكر دور مصر فى نقل السودان من حال إلى حال وهى تجاهد فى توحيده معها واندماجه فى حياتها اندماجا تاما ..

حقيقة كان السودان يعانى من ظلم فى بعض نواحيه ، وقسوة فى جباية بعض الضرائب . ولكن هل كانت مصر نفسها بريئة من هذا العيب ، وهل كانت دول العالم الأخرى فى منتصف القرن الماضى لا تشكو من علة ، ولا تتذمر من نظام .. لا .. فمن طبائع الحكم فى كل زمان ومكان أن يوجد بين مطبقيه أفراد عادلون وآخرون ظالمون ، وكان يعاب هذا على الحكم المصرى لو انه قصد أن يحل الظلم محل العدل ، والقسوة محل الرحمة ، والفساد محل الاصلاح . ولكن رحلات الولاة والخديويين ، وتبديل الحكام فى كل آن ، والاستماع إلى شكوى المظلومين .. كل هذا كان يخفف أو يزيل كل أثر لسوء ، وكل ظل لشر فى السودان ، بقدر أكثر مما كان يحدث فى مصر .

وإذا كان بعض المديرين أو المأمورين قد أساءوا استعمال ساطة من السلطات فى أيديهم ، فمن الخير أن نذكر أن هؤلاء الحكام فى الأطراف لم يكونوا جميعهم من المصريين لا بل كان منهم المصرى ، ومنهم السودانى .. بل ربما كان عدد المديرين والمأمورين السودانيين أكثر من المصريين . ذلك أن مصر لم تكن تحكم أهل السودان ، ولكنها كانت تتحد مع السودان فى معيشة مشتركة .

ولقد ثار المهدى .. وكانت ثورته دليل حيوية السودان ، ودليل تقدمه ورقيه ، لا دليل خموله وتأخره وتدهوره . ثار المهدى .. ولم يكن سبب ثورته ظلم حاكم ، أو قسوة مأمور فى تحصيل ضريبة ، أو الاساءة إلى إنسان ..

لا ، بل ثار المهدى لأنه كان يطلب مزيداً من التشديد فى تطبيق قواعد الدين ، والحد من الحرية الممنوحة للسودان والسودانيين فى ممارسة العقائد ، وتطبيق المذاهب ...

ثار المهدى لأنه كان يريد إصلاح السودان ، وإصلاح مصر ، وإصلاح بلاد المسلمين..
ثار المهدى لأنه عرف أن الأمة الاسلامية كلها تحتاج إلى أن تعود إلى ما كانت عليه أيام سيدنا محمد ﷺ فقد تعلم بعض السودانيين ، وقرأوا التواريخ والفقه والدين ، وعرفوا ما كان عليه الاوائل والأواخر .

وأخيراً ، أو قل أولا وأخيراً ، ثار المهدى لأن مصر ثارت ، ولأن ثورة مصر ، وثورة السودان كانت سلسلة فى حلقة الحركات الكبرى المنظمة المرتبة التى أعدها السيد جمال الدين الأفغانى . وقد كان وهو فى لندن ومعه صفيه وحواريه الشيخ محمد عبده ، يعملون لنجاح ثورة المهدى ، ولاخلاء السودان ، ويدفعون السياسة الدولية كلها فى هذا الاتجاه تنفيذاً لخطة مرسومة .

ولقد أسلفت فى كتابى عن محمد عبده ، أن الأستاذ الامام تنكر وهو فى منفاه ، وبدأ رحلته للسفر إلى السودان ، لكى يتولى قيادته ، ولكن موت المهدى أوقف رحلته ولم يكن صدفة ولا ارتجالا أن المهدى أمر بالابقاء على حياة غوردون لكى يفادى به عرابى .. لقد كانت هناك صلة أقوى صلة بين الثورتين ، ثورة شمال النيل وثورة جنوب النيل.
فكيف .. كيف بالله يخطىء إنسان إلا أن يكون مشوهاً للحق ، مزوراً للتاريخ ، فيزعم أن المهدى كان ثائراً لأن الحكم المصرى فى السودان قد فسد ، أو تعفن ، أو استحق أن تطبق هذه العقوبة عليه ؟ ! !

ثم .. ثم إن المهدى كان يعيب على مصر أمراً هاما وخطيراً ، وهو أنها سمحت للأجانب بالتدخل فى شؤونها ، وان أهل السودان أنفسهم رأوا هؤلاء الأجانب بينهم — لا سائحين أو تجاراً — ولكن حكاماً وقواداً . فكان هذا فى عقيدة المهدى . وهى عقيدة تعصب ، وتزمت ، كفراً ما بعده كفر ..

وإذن فقد ثار السودان تحت قيادة المهدى ، وكانت ثورته من أجل الدين .. أى ضد الخلافة التركية . ومن أجل الحرية .. أى ضد التدخل الأجنبى .

كتب المهدى كتابا إلى الخديوى توفيق – بعد أن استولى على الخرطوم – يقول له فى مستهله:

« إن دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على الاسلام ، وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام ، قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات ، وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الاسلام ، واشتد الكرب على أهل الإيمان ، فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر ، لتراكم البغى والعدوان .

وقال : « صارت جيوشك تأتينى ثلة بعد ثلة ، وأقدم لهم الانذارات ، ولم تنفعهم ، والله يؤيدنى وينصرنى عليهم كما وعدنى ، ويقطع دابرهم ، إلى أن قلت حيلتك ، وتلاشى أمرك ، فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم لاعداء الله الانجليز ، واحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، فجاء الانجليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله ، فلما سول الشيطان لهم إدراك « غردونهم » بالخرطوم وأيست من هداية أهله ، وعلمت أن تكرر الانذارات لا ينفعهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا مثل من قال الله تعالى فى شأنهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » عجل الله بفتحه ، وإهلاك من فيه .. »

وقال : « ما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ »

وقال : « وما بيننا وبينك إلا المحبة الخالصة لوجه الله تعالى ، ونكون نحن الجميع يداً واحدة على إقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين ، وقطع دابرهم واستئصالهم من عند آخرهم إن لم ينيبوا ويسلموا .. »

وفى رسالة أخرى وجهها المهدى إلى سكان مصر يقول:

« قد رأيتم ما نال الدين من الاندراس الذى لا يخفى ، ولما أن أراد الله إحياءه ، وإظهار شعائره ، أنجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاظهرنى بالخلافة المهدية ، وأمرنى بدعاية الخلائق إلى السنة المرضية ومن عيد ظهورى بهذا المظهر الدينى مازالت

دولة الترك تجيش جيوشها وترسل رجالها لمحاربتى من غير استناد إلى دليل شرعى ... »

وإذن فالانجليز والترك — أو الخلافة — كانا هدف الثورة ، ولم تكن مصر نفسها ولا حكمها فى فساده أو صلاحه هو السبب .

وصدق دعوة المهدى كثيرون من أهل مصر ، حتى وصل دعاته إلى جرجا ، ووجدوا لهم أنصاراً وأعوانا .

وقد أخفقت هذه الحركة كما هو معلوم ولاخفاقها أسباب :

أهمها أنها كانت قائمة على التعصب الدينى وحده ، وما كان يمكن لحركة تظهر فى مطالع القرن العشرين ، ويكون هذا العامل وحده هو قوامها . وعلى الرغم من أن جمال الدين الافغانى أيد الحركة ، إلا أن هدف الافغانى كان تجديد فهم الدين ، وفتح أبوابه لمسايرة روح العصر ، فى حين أن المهدى لم يفهم هذا الهدف ، أو لم يستطع أن يسايره . بل على العكس حاولت الحركة المهدية أن تلغى كل جهود العلماء والفقهاء فى شرح الدين ، وتفسيره ، وتخريج قواعده .

القى القبض مرة على عالم شهير ، فكان مما قاله له « عبد الله التعايشى » خليفة المهدى : « ياعالم السوء .. قضيت عمرك المشؤوم فى تحصيل علوم جاء المهدى بنسخها . فقد كنتم تقولون حدثنا فلان عن فلان باسانيد طويلة ، ونحن الآن نتلقى الشريعة من المهدى، الذى يتلقاها مباشرة عن النبى صلى الله عليه وسلم . فاحذر ياشيبة السوء أن أسمع عنك أنك تعلم الناس شيئا من العلوم القديمة المنسوخة ، وأعلم أنك منذ الآن محتاج إلى التعليم من أحقر انسان من أصحاب المهدى » ثم دعا عبداً أعجمياً ، وقال للشيخ : «هذا أستاذك منذ الآن . فصل بجانبه ، وتلق شريعة المهدى عنه . أما ماتعلمته قبل الآن فانه منسوخ ، وخير لك أن تحفر له فى الأرض حفرة تغيبه فيها .»

وقد جر هذا التعصب إلى نتائج سيئة جداً ، هى حقد الحركة المهدية على كل من لم يسلم لها ويذعن لأمرها . ومحاولتها استئصال جميع العناصر التى عارضتها أو وقفت فى

وجهها .. قال المهدى زعم : « أن من شك فى مهديتى ، فقد كفر بالله و رسوله ونفسه وماله غنيمة للمسلمين »

وهذا الزعم هو الذى جر عليه وعلى الحركة الدمار ، فقد دعاه إلى أن يصادر كل مال يصادفه ، و يقتل كل انسان يعارضه ، أو لا يتفق معه فى أنه المهدى المنتظر ، وإن كان مستعداً للاعتراف بانه « مصلح » منتظر .

ولقد كلف تعصب المهدية شعب مصر تكاليف باهظة من الأرواح والأموال .. ودع عنك أرواح الجند والمحاربين ، و إنما نتحدث عن أرواح الأهالى المدنيين . فقد اجتث المصريون فى طريق المهدى ، وأبيدوا إبادة تامة ، لا لأنهم مصريون ، ولكن لأنهم غير مؤمنين !

وكانت لمصر فى السودان ثروات تجارية ضخمة ، ومصالح مادية لا تحصى ولا تقدر ، صودرت كلها اللهم إلا القليل الذى أمكن لبعض ثراة الخرطوم نقله إلى مصر قبل استفحال الأمر . ودع عنك خسارة مدينة ضخمة عظيمة كالخرطوم هدمت ، وخربت تخريبا .

ولو ان العمر امتد بالمهدى فترة أطول من الزمن ، لكان قد عرف كيف يستفيد من البقية الباقية من المصريين، وأصحاب العلم والكفاية ، الذين نجوا من مذبحة الخرطوم، وقد ضاع فيها ٢٤ ألف رجل ، غير الحامية كلها .

وكان من سوء حظ المهدى انه قام بثورته قبل أن يتجمع للسودان عدد أوفر من أصحاب العلم والدراية بشؤون السياسة والحكم والصناعة وغيرها .

وكان المهدى نفسه أعلم جماعته ، وأوفرهم تحصيلا ، وأكثرهم دراية بالشؤون العامة . ومن يطالع رسائله يجدها مكتوبة بأسلوب مستساغ ، ويجد استشهاده بالقرآن والحديث دليلا على تعمقه وتفهمه للكتاب والسنة . وهذه الدرجة من العلم هى التى لم تجعل المهدى ضيق النظر إلى الأمور ، كما كان أصحابه . فهو لم يسرف فى القتل اسرافهم . ولم يحكم

باعدام شخص إلا لضرورة قصوى ، وكان العفو أقرب إليه من العقوبة ، وتأليف القلوب أدنى إليه من تنفيرها .

أما صاحبه التعايشي ـ خليفته ـ فلم يكن على علم المهدى ، بل ربما كان حظه من العلم ضئيلا . ولهذا حرص على ألا يبقى على أحد من ذوى الكفاءة والقدرة العقلية ، فقد ينازعه فى سلطانه ، اذا ما وصل إلى هذا السلطان . ولهذا أوعز بقتل غوردون ، لا بغضا فى غوردون ، ولكن خوفا من أن يأتى عرابى إلى السودان فتكون له الكلمة العليا .. ولأمر ما لم يتابع الشيخ محمد عبده رحلته التنكرية إلى الخرطوم ، بعد أن علم بوفاة المهدي نفسه ..

وقد قيل فى صفة الرجل كلام كثير ..وصفه فوزى باشابقوله : « كان المهدى طويل القامة ، أسمر اللون بخضرة ، عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، واسع الجبهة ، أقنى الأنف ، واسع الفم والعينين ، مستدير اللحية خفيف العارضين ، أسنانه كاللؤلؤ .. وبالجملة فانه كان ذا صورة جميلة جدا بين السودانيين أمثاله ، وكان يتعمم على قلنسوة من نوع ما يتعمم عليه أهل مكة ، وعمامته كبيرة منفرجة من الأمام ، يرسل (عذبة) منها على منكبه الأيسر حتى تتجاوز سرته »

ووصف سلاطين المهدى بقوله : « كان طويلا عريض الأكتاف خفيف السمرة متين البنية . وكان رأسه كبيراً وعيناه براقتين ، وكانت له لحية سوداء وعلى كل من خديه ثلاثة حزوز ، وكان أنفه وفمه حسنى الوضع . وكانت عادته الابتسام على الدوام ، وإذا ابتسم بدت أسنانه الناصعة ، وكان أفلج ، وكان فلجه سبباً فى حب النساء له . . وكان يعطر جبته بالمسك والصندل والورد ، واشتهرت عنه هذه الرائحة حتى صارت تسمى « رائحة المهدى »

ووصف خليفته عبد الله التعايشى « بأن لون وجهه كان السمرة الخفيفة ، ووجهه عربى عليه مسحة من الرقة . وكانت لا تزال آثار الجدرى بادية فيه ، وكان أنفه منقاريا

وفمه حسن ، عليه شاربان صغيران ، وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن.وكان ربعة بين القصير والطويل ، وسطا بين السمن والنحافة . وكان لابساً جبة مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف فى اللون عن الأخرى ، وعلى رأســه طاقية قد تعمم عليها بعمامة من القطن ، وكان إذا تكلم تبسم ، فتبدو أسنانه البيضاء »

•••

نعود الآن إلى أسيرنا ، وما كان من أمره وأمر من استحيي من المصريين فى السودان إبان الانقلاب المهدى .

من العسير جداً أن نصور ماصار إليه ابراهيم باشا فوزى بعد أن نجا بأعجوبة من القتل . فقد كان هذا الرجل ، المصرى الأول فى السودان ، يأتمر بأمره جيش كبير ، ويحكم مدينة الخرطوم ، ويمتد نفوذه إلى البقاع التى حولها ولا يزال للحكم المصرى عليها سلطان . حقيقة كانت قد ألمت به محنة سابقة ، وهى تجريده من رتبه والقابه لاشتراكه فى الثورة العرابية ، ولـكن معرفة غوردون به لسابق خدمته معه فى السودان كانت سبباً فى استصدار عفو عنه ، وإعادته إلى الخدمة ، ثم سفره إلى عاصمة الجنوب، حيث ينتظره مستقبل طيب . وقد شق له طريق هذا المستقبل بمنحه رتبة اللواء . ولـكن هــذه هى الدنيا العريضة التى أمل رفدها ، تفر من بين يديه فراراً ، وها هو ذا أسير لا يملك مالا ، ولا طعاماً ، ولا يملك ثياباً .

تذكر فى ساعاته السود الأولى ، آخر أحاديثه مع غوردون ، الذى كان يوعز إليه بالسفر من الخرطوم برفقة القناصل ويقول له : « إذا أصبحت أنا أسيراً فى أيدى هؤلاء الأشقياء ، فلا تتركنى حكومة جلالة الملـكة ، وأنها تقدم القناطير المقنطرة من الذهب فداء لى ، وأنا أتمنى لك النجاة من صميم فؤادى يا عزيزى فوزى لأنك إذا وقعت أسيراً فى يدهم لا تفديك حكومتك ولو بدراهم قليلة ».



« المهدى »

ودارت دورة الأسبوع ، فاذا غوردون قتيل ، وإذا فوزى أسير ذليل ، لا يعرف طريق النجاة ، ولا يلمح فى الأفق بادرة من بوادر الأمل .

وقد حدث فى سير الحوادث أضخم ما يمكن أن يحل بهذه الدولة الجديدة ، وهو موت المهدى بعد ستة أيام من اصابته بحمى التيفوس ، وكان ذلك فى يوم الاثنين التاسع من شهر رمضان سنة ١٣٠٢ . وهكذا لم يعش المهدى بعد فتح الخرطوم أكثر من أربعة أشهر ، وقد انهار بموته كل أمل فى تنظيم هذه الثورة ، أو تحويلها إلى حكم صالح مثمر .

وتولى من بعده خليفته عبد الله التعايشى ، بوصية منه . والخليفة الجديد من قبيلة البقارة ، وقد تولى زعامة هذه القبيلة بعد أن اشتهر ، واستطار ذكره . وقد ذكر أن صيد الأفيال من شارات الشهرة والمجد لافراد هذه القبيلة ، وأن من ظفر منهم بفيل ، أسماه قومه « الثور » لشجاعته وبسالته ، ومنطقة هذه القبيلة — وهى دارفور — غنية بالافيال غناء المناطق الاخرى بها .

ولم يكن الخليفة الجديد متعلما ، ولا كانت له صفات الكياسة التى اتصف بها سلفه المهدى . إلا أنه وصف بكثير من المظالم الغاشمة ، والأمر بأوامر غريبة تعسفية ، كانت السبب فى خراب كثير من مناطق السودان وهجرة أهلها منها . ويظهر أن فى نسبة هذه المظالم له بعض المبالغة . فلا شك أن المهدى لمح فيه صفات طيبة من الشجاعة والتفانى فى الدعوة حتى جعله خليفته ، من دون أهل قرابته ، والمقدمين من كبار قواده ،



كيف يصطادون الفيل فى السودان

أمثال النجومى والحلو وشريف وغيرهم . ولو ان التعايشى كان بكل هـذا النقص الذى وصف به ، لما استمر حكمه اثنى عشر عاما حتى أزالته عنه جيوش كتشنر ، ولما عرف كيف يخضع القبائل الكثيرة المتعددة المصالح والزعامات المتنافرة . والحقيقة انه تمكن من أن يضرب بعضها بالبعض الآخر ، ويبيد منها ما لا يسلس قياده . كما غير تغييرا أساسيا فى طبقة الزعماء التى تركها المهدى بما انتقص من نفوذها وحد من تأثيرها على العامة . .

وعلى كل حال ، فان ما يعنينا من أمر الخليفة الجديد فى هذا الكتاب ، هو موقفه من « بقايا » المصريين ، التى ظلت تحت حكمه . .

● يقص علينا فوزى باشا هذه الفترة الحالكة من تاريخ حياته فى الأسر ، بعد وفاة المهدى بقوله « إن المصريين أخذوا فى السعى للارتزاق بالمهن الدنيئة ، مثل صناعة الخبز ، وفتح حوانيت الأطعمة . وهم فى كل آن عرضة للاضطهاد ، وفى كل يوم يقع بعضهم فى تهمة إخفاء المال ، فيعاد تعذيب الواحد منهم بما يقشعر منه البدن .

« وكنت أقيم فى كوخ فى أم درمان بجوار منزل يوسف منصور (قائد المدفعية) ، وبعد وفاة المهدى ، كانت لى زوجة على وشك الوضع ، كنت تزوجتها قبل سقوط المدينة ، وهى بنت أحد الضباط المصريين العظام ، فانتقلت إلى الخرطوم للحصول على قابلة مصرية بها ، وما كادت تمضى على أيام حتى نمى إلى التعايشى أننى ذهبت إلى الخرطوم لتوحيد كلمة المصريين ، والقيام بعمل مضاد للمهدية . فما شعرنا فى احدى الليالى

إلا بالنداء بأن كل ذكر من الذين خرجوا من خندق الخرطوم ، يهدر دمه اذا بات فى المدينة ، بل يجب أن يكون فى البقعة التى عند نقطة ملتقى النهرين الأبيض والأزرق .

« و بينما كان الرجال يودعون أطفالهم ونساءهم للخروج إلى محل الاجتماع ، إذ عاد النداء بوجوب خروج النساء والأطفال الى ذلك المكان أيضا ، فخرجنا بنسائنا وأطفالنا ونحن فى حالة لا أقدر على وصفها ، و بعد وصولنا إلى تلك البقعة جاءنا دراويش من أم درمان ، أخبرونا بأن المراد من الاجتماع قتل ابراهيم فوزى ، و بيع بقية المصريين أرقاء. فقضينا تلك الليلة ، وفراشنا الأرض وغطاؤنا السماء . فكنت لا تسمع غير صياح الأطفال وعويل النساء .

« وفى اليوم التالى مكثنا إلى قرب منتصف النهار حتى جاءنا التعايشى ممتطيا حماراً يحيط به نحو الف حارس ، وأمامهم أشخاص ينفخون فى أبواق من العاج بصوت مزعج متقطع . ولما دنا التعايشى من موقفنا أمرنا بالوقوف مصطفين رافعين أصواتنا بالتهليل ثم استدعانى من وسط الصفوف ، ومعى بضعة أشخاص من أعيان الخرطوم . ولما مثلنا بين يديه قال :

« — أيها الاتراك أهالى الخرطوم ، وفضلة سيف المهدى عليه السلام ! ! انكم أضللتم الناس وغررتموهم بدنياكم ، فلماذا أيها المنافقون أقمتم فى الخرطوم ، ولم ترحلوا إلى أم درمان . فهل أنتم لا تزالون مكذبين للمهدى أو ما هو السبب ؟ .

فأجبته (أى ابراهيم باشا فوزى) قائلا :

— يا سيدنا الخليفة نحن نعوذ بالله من أن نكون مصرين على تكذيب المهدى ، ونحن نعترف أمامك باننا مؤمنون بالمهدى وخلفائه ، والذى منعنا من الاقامة بام درمان هو عدم قدرتنا على تشييد الاكواخ فيها ، وتمكننا من الاقامة فى خرائب الخرطوم بغير مشقة . فاجاب التعايشى فى غضب :

— أنت منافق ولا أرى غير ضرب عنقك ! فقلت :

— يا سيدى الخليفة . أنت تعلم الغيب وما تخفيه الصدور . وان الخضر عليه السلام وزيرك ومشيرك . وقد قال فيك المهدى عليه السلام انك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب .

فأطرق بوجهه إلى الأرض ، وقد سره هذا الاطراء ثم رفع رأسه وقال :

— يا ابراهيم فوزى ، لقد تحققت براءتك مما نسب اليك . وقد عفوت عنك ، وعن جميع أهالى الخرطوم . ولكن لابد من مغادرتكم الخرطوم و إقامتكم بأم درمان. لأن الخرطوم دار كفر ، والمهدى عليه السلام قال : لا تسكنوا فى مساكن الكفار ، ولا تلبسوا ملابسهم ، ولا تتزيوا بأزيائهم .

فقلت له :

— يا سيدنا الخليفة ، نحن لا نملك أجرة اجتياز النيل . فأمر باجازتنا مجانا . . فاجتزنا النهر ، وأقمنا بام درمان ، نقاسي من صنوف الذل ألوانا . . »

***

● وتتجلى قسوة الحياة على هؤلاء البؤساء ، فى استعراض أنواع الحرف والأعمال التى كان يؤديها ابراهيم باشا فوزى لكى يجد ثمن ما يقتات به هو وأسرته .

قال إن أحد معارفه من أهالى السودان زاره ذات يوم ، وأعطاه خمسين ريالا ، وأعطى جاراً له من المصريين — على خير الدين — عشرة ريالات ، فاتفق الاثنان على أن ينشآ قهوة على شاطىء النيل ، أقاماها من البوص والخشب ، وتكلفا عشرين ريالا حتى استقام لها حانوت . . وما أن أعدا العدة للعمل ، حتى جاءهما محتسب الشاطىء (المورده) وأمرهما بهدم ما بنياه فوراً ، ولم تجد ضراعتهما غير سيل من الشتائم ، ثم ما لبث الجند أن هدموا الحانوت ونهبوا كل شىء فيه حتى البوص .

وقررا أن يعاودا التجربة بما تبقى لهما من المال فى مكان بعيد عن نفوذ هذا المحتسب ، وقد أفلحا فى اقامة حانوت ، وأخذ الدراويش يترددون بكثرة ، ويطلبون

القهوة ، فاذا طولبوا بالثمن ، ضربوا صاحبي القهوة قائلين : أنتم ما زلتم كفاراً لا تعطون شيئاً من أجل الله !! وأخفق هذا المشروع .

فعاود فوزي باشا التفكير ، وساقه هو وصاحبه إلى الاتجار في البطيخ ، واشتريا فعلا كمية من البطاطيخ من قرية مجاورة ، ولما أنزلاها إلى البر ، مر موكب التعايشي ، فنهب جنده البطيخ ، وحطموا ما تبقى ، فضاع رأس المال ، وتراكمت الديون وحزن ابراهيم فوزي وصاحبه حزناً عظيما ، وقرر أن يذهب إلى التعايشي يشكو له جور جنده . فلما لقيه ، وعرض عليه أمره قال له الخليفة :

— ماذا قلت لما أخذ الأنصار بطاطيخك ؟ فأجاب :

— قلت في شأن الله ، وفي حب سيدنا الخليفة . فتبسم التعايشي وقال :

— أهكذا قلت مع أن رأس المال دين ؟ .

فأكد ابراهيم فوزي أن هذا ما حدث . وبعد اربعة أيام أرسل له التعايشي ٤٠ ريالا من النوع « المقبول » وهي تعادل مئتي قرش .

وبحث الرجلان عن حرفة جديدة ، فاهتديا إلى فكرة طيبة ، وهي أن يذهبا إلى سوق الماشية ، ويكتبا عقوداً بين البائع والمشترى ، تتضمن أوصاف البهائم المشتراة. وكان عقد الرأس من الماعز أو الضأن قرشاً . وعقد البقرة قرشان ، وكذا الابل . وما أن أقبل الظهر حتى كان إيرادها ٤٠ قرشاً ، وقد فرحا بهذا العمل المربح فرحا جزيلا ، ولكن مالبثا أن داهمهما جند ، أوسعوهما ضربا بالسياط ، وأخذوا منهما القروش كلها وساقوهما إلى المسجد للصلاة .. فلما تضرعا في استرداد شيء ، رد لهما خمسة قروش ، مع الأمر بعدم العودة إلى هذا العمل لأنه مربح ، ولا يجوز للمصريين الكفار أن يحصلا على أكثر من ثمن الخبز بغير ادام .

هذا هو نوع الحياة التي كان يحياها أكبر المصريين شأنا ، وتستطيع أن تقيس عليها درجات البؤس التي انحدر إليها بقية المصريين .

● ولم يبق أمام ابراهيم فوزى إلا أن يطوف بباب التعايشى عسى أن يعينه ببعض المال على إعالة أسرته . فلازم المسجد ، ولكنه سمع ذات ليلة الحديث يدور حول مسيح دجال يوشك أن يظهر ، ووصف الخليفة هذا المسيح بأنه أبيض اللون ، قصير القامة ، ضخم الجثة ، مستدير الوجه .. وزاد أحد الحضور انه سيكون مصريا !! ولاحظ ابراهيم فوزى ان هذه الأوصاف تنطبق عليه ، وهمس أحد الحضور فى أذنه مداعبا ، بأنه قد يكون هذا الدجال . فداخل فوزى وجل شديد ، من أن تكون هذه الفرية حيلة جديدة ابتكرها الخليفة لكى يوقع به ، فانسحب بسكون من الحلقة وجلس بعيدا حتى لا تقع عليه عين أحد . ولكنه ما لبث أن سمع مناديا يناديه من حلقة الخليفة ، فجن من من الذعر أو كاد ، وسار فى خطا متخاذلة ، حتى اقترب من المجلس ، فاذا بالتعايشى يهم من وسط الجمع ، ويقف ، ويمسك ابراهيم فوزى من يده ، ويسير معه خطوات إلى الباب ، فتهامس كل من فى المجلس : لقد نزل الوحى على خليفة مهدى الله بأن هذا هو المسيح الدجال ! !

ولما وصل التعايشى بابراهيم فوزى إلى الباب قال له : انى أريد أن أزوجك من امرأة مؤدبة متدينة حسنة الخلق ، وهى احدى نسائى . فأجاب فوزى :

— يا سيدى انى متزوج . فقال الخليفة :

— أليست لك زوجة واحدة ؟ فرد فوزى :

— بلى ! فقال له الخليفة :

— وما المانع من أن يكون لك ثلاث زوجات أو أربع ؟ فأجاب :

— لا مانع يا سيدى سوى أننى رجل فقير مدقع . وليس لى كسب يعاوننى على القيام بواجبات زوجتين . فأجاب المهدى :

لا تلتفت إلى هذا ، لأن الله متكفل بأرزاق العباد .

ولم يكن بد من أن يرضخ الأسير لهذا العبء الجديد . وبعد أيام كانت الزوجة

الجديدة فى منزله ، وقد تملكه اقتناع شديد بأن هذه السيدة ، لم تكن إلا عينا للخليفة عليه ، وكان يخفى فى بيته بعض التبغ فأسرع ونقله حتى لا تشى به الزوجة المفروضة عليه ، فيحكم عليه بأشد العقوبات لارتكاب هذا المنكر الذى حرم فى السودان كحرمة الخمر .

وفى ذات يوم جلس فوزى باشا مع هذه الزوجة يتناولان الطعام ، وكان من خبز الذرة ، وادامه من ورق اللوبياء . فرأى الدموع تتساقط من عينيها ، فسألها عما يبكيها ، فأشارت إلى هذا الطعام متأففة فقال لها مندهشا :

— هذا طعام أنصار المهدى .. فردت وهى تنتحب :

— لعن الله المهدى وخليفته . لقد هتكا عرضى ، وقتلا أهلى ، وسلبا نعمتى .. وعاودت بكاءها بصوت يفتت الكبد . فسألها فوزى باشا عن أهلها ، فذكرت له اسم أبيها ، وكان من قواد الترك فى الخرطوم ، وله ابن كان يشغل منصبا ساميا فى خط الاستواء . ولم تكن هذه السيدة تعلم عن أهلها شيئا ، بعد أن سبيت ، وضمت إلى حريم الخليفة .

فأرسل فوزى باشا ، واستدعى أهلها ، وكانوا بالقرب من كوخه . وكان لقاء ، وكان بكاء ، وكانت فرحة الأحباء بالأحباء ..

وقد أنسى هول المصائب هؤلاء المصابين فى بيت فوزى باشا ، بأن فى البيت زوجتين ، وان الغيرة من طبائع النفوس . فقد أغفلت الزوجتان ، القديمة والحديثة كل شىء إلا أن تعاونا زوجهما المنكوب فى احتمال أعبائه ، وكانتا تقضيان النهار ، وشطرا من الليل فى خياطة الملابس للدراويش بأجر طفيف ، ولكنه كان يكفى لكى لا يموت الجميع جوعا .

ولم ينس الله هؤلاء الأسرى المساكين ، فقد كان الأهل والأصدقاء فى مصر ، يهربون لهم النقود ، ويضعون لبعضهم خططا للهرب إلى الشمال . وكان من الذين عنوا بفوزى باشا صديقه محمد ماهر باشا محافظ القاهرة ومحافظ أسوان أثناء هذه الحوادث ،

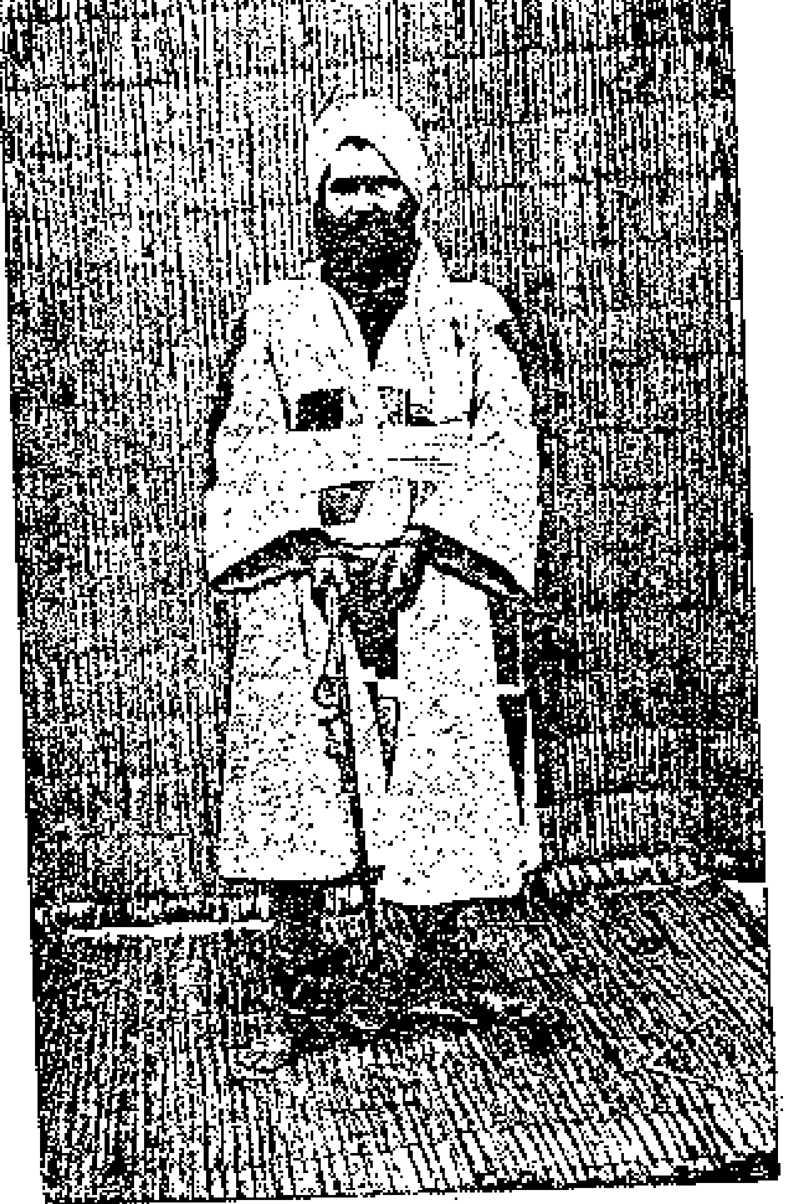
الذى أرسل مع أحد التجار اربعين جنيها انجليزيا إلى أسير الخليفة ، كما قدم له هـذا التاجر هدية من السكر والصابون والبن والملابس ، وكانت هـذه المنحة كأنها لقتة من السماء ، تفتحت فيها ينابيع السعادة والرزق .. اربعون جنيها .. ملابس .. سكر .. بن، هذا عظيم .. هذا شيء أكثر بكثير مما كان يحلم به المعذب المسكين فى محنته.

وكان فوزى باشا يقيم بجوار يوسف منصور كما قلنا ، وكان يوسف هذا عينا عليه ومكلفا بحراسته ومراقبته . فقرر فوزى باشا أن يبنى لنفسه منزلا جديداً فى حى المسلمانيين ، كلفه نحو مئة ريال ، وانتقل إليه . ولـكن ما لبث يوسف منصور أن أنبأ الخليفة بأنه غير مسؤول عن فوزى إذا فر بعد أن أقام بعيداً عنه ، فصدر الأمر بعودته فوراً ، فباع المسكين منزله الجديد وخسر فيه ٧٥ ريالا ! !

●●●

● ولم يكن الهرب بعيداً عن ذهن ابراهيم باشا فوزى ، ولا عن ذهن أصدقائه — لا حكومته — وحدثت محاولة من هـذا النوع ، كانت غاية فى الخطر . فقد رتبوا له فى مصر اعرابيين ، يسلكان به طريق الشمال حتى الحدود ، ووصله ١٠٠ جنيه من مئتين أرسلت له ، فسدد ديونه من ٢٠ ، وترك لأهله ٥٠ ، وسار بالباقى مع دليله . وكانت الخطة أن يسيرا إلى الجنوب ، حتى إذا أمنا الطلب عادا إلى الشمال على جمال خبئت فى إحدى القرى .

وحزم فوزى باشا أمره ، وسار مع صاحبيه ، فى زورق بالنيل إلى الجنوب ، حتى إذا أويا إلى مكان متفق عليه ، رفضا السير معه حتى يأتى معهما آخرون من المصريين وعدا بتهريبهم أيضا . وطال الانتظار سبعة أيام ، كاد القلق خلالها يقتل ابراهيم فوزى قتلا وفى نهاية هذا اليوم رآه أحد كتبة يعقوب أخى الخليفة ، فقال له إن التعايشى يقلب كل حجر فى السودان بحثاً عنه . فلم يستطع الهارب صبرا ، وأنذر صاحبيه أن يعودا به إلى النيل ليعود إلى أم درمان ، إن لم يسيرا به إلى الشمال فوراً . فآثرا أن يعودا به إلى النيل،



«فوزى باشا فى ملابس الدراويش وقد شد قدماه إلى أثقال من الحديد»

وهناك وجد قاربا ، أسلم نفسه له ، وسار به حتى وقف عند إحدى القرى ، ووجد مصريا فى القرية ، كان ضابطاً فى الحامية ، فاسعفه بعشرة أرادب من الأذره وضعها على الشاطىء وأقام بجوارها . وبعد قليل أبصر باثنين يقبلان نحوه ، بعد أن أناخا هجينيهما ولما رأياه قال لهما :

— أأنتما قادمان من البقعة المنورة !؟ . فقالا نعم . فقال :

— أهل خليفة المهدى عليه السلام بخير؟ فقالا :

— نعم بخير وهو يقرأ عليك السلام .

فوثب واقفا على قدميه وهما يقولان :

— إن الخليفة يدعوك للحضور عنده . فصاح بهما فوزى :

— ولماذا لم تخبرانى بذلك قبل التحية . إن أوامر الخليفة واجبة النفاذ فى الحال .

وسألاه عن عمامته ومنطقته ، فقال ان اللصوص سرقوهما ، ثم لفق لهما سبب وجوده هنا ، وهو أنه كان يجمع من بعض المحسنين حبوبا ، وهو فى انتظار سفينة تعود به إلى الخرطوم . وجاء صاحبه الضابط فأيد قوله ، وخلع عليه عمامة وحزاما ، وأردف أحد الرسولين الباشا وراءه ، وساروا خبباً إلى أم درمان ، وقد وصلوها بعد ثلاثة أيام . وأناخوا أمام باب التعايشى فصاح به :

— أين ذهبت يا إبراهيم فوزى فأجاب :



• فوزى باشا وقد أثقلت قدماه بالقيود وأمامه ابنه ، وبينهما شارل نيوفلد وسوداني يتناولان الطعام •

— يامولاى إننى شخصت إلى إحدى قرى النيل الأبيض لأنال شيئا من احسان أولى البر ، فجمعت عشرة أرادب من الذرة ، فلم أجد سفينة شراعية تحملنى فاقمت عندها حتى جاءنى رسولاك.

وأيد الرسولان كلامه ، وقصا ماشاهداه . فهدأ الخليفة وقال :

— من الذى أذن لك بالسفر ؟ فانتحل فوزى باشا أكذوبة وهى أنه أخذ إذنا من مقدم « جاويش » . فقال الخليفة :

— أمثلك يأخذ إذنه من المقدم ! ؟ فأجاب :

— كلا ، ولكننى اضطررت لهذا السفر بسبب مالحقنى من الجوع وضيق العيش فامر التعايشى بان يوكل بابراهيم فوزى ، بقارى — وهى قبيلة الخليفة — لكى يلازمه دواما .. وما أن رآه البقارى حتى قال له فى دهشة !

— ياولد الريف .. لماذا أنت ضخم هكذا ؟!

فاحنى فوزى باشا رأسه فى تذلل ، وقال :

— هكذا خلقنى الله .. ثم سار البقارى مع فوزى باشا إلى منزله ليتناول معه

الطعام . وظل يلازمه بهذه الصورة ، أربع سنين كاملة . لم ينقذه منه إلا .. إلا حادث اعقبه السجن — سجن فوزى لا البقارى —

وقد احتفل التعايشى بالعثور على ابراهيم باشا فوزى احتفالا ضخما ، وظلت الطبول تدق والأبواق تنفخ ثلاث ساعات كاملة .

ومنذ ذلك الوقت أصبح من واجبات فوزى باشا أن يطعم حارسه وأن يداريه بالمال حتى لا يختلق عليه الأكاذيب فينكل به الخليفة . وكان عليه أيضا أن يخدم هذا البقارى . . أن يحمل له سلاحه إذا سار ، وأن يكون وراءه دائما ، تعظيما لحارسه وا كباراً !!

وازداد الحارس حارساً آخر ، فاصبحا اثنين وخاطباه بقولها :

— ياولد الريف ، إعلم أنك كافر وقد أسلمك الخليفة الينا لنعلمك الصلاة والصوم .

وهكذا لم يستطع فوزى باشا التخلف عن الصلاة بالمسجد ، وكان بيته يبعد عن المسجد أربعة أميال . فكان يخرج قبل صلاة الفجر بساعتين ، ويظل فى المسجد يتابع الصلوات فى أوقاتها ، بحيث لم يجد وقتاً للراحة ، أو الاختلاف إلى منزله فى أثناء النهار لبعده عن المسجد .

والحاجة تفتق الحيلة . فقد اتفق مع الحارسين على أن يرشوهما بريالين فى كل مرة يتخلف فيها عن الصلاة فى المسجد ، وهذا زيادة على وجبات الطعام معه فى بيته ، وزيادة على قبوله الذهاب إلى حيهما مرة كل أسبوع ليكتب نحو مئة خطاب أو أكثر للبقارة ، ويقرأ لهم ما يرد من رسائل . وكان أهل هذه القبيلة واثقين من أن الخليفة أنعم عليهم بهذا « العبد » الأبيض لكى يخدمهم .

وكان نساء البقارة يصنعون آنية من سعف الدوم ، محكمة الصنع إلى درجة أن الماء لا يقطر منها ، وكانت تتخذ للشرب . وقد ألزم الحارسان أسيرهما أن يبيع لهما كل أسبوع بعض هذه الآنية وإذا أخفق فى إيجاد مشترين فتنسب له تهمة الكفر فوراً ، ويهدد

بتبليغ الخليفة، فيعود إلى معارفه يستجديهم ثمن هذا الخوص ، وعند ما يعود به يقول له حارساه .. الآن أسلمت !!

وقد أبهظت ضريبة الصلاة عاتق فوزى باشا ، فظل يتملل و يتذلل ، والضريبة تنخفض إلى أن وصلت بعد عدة أشهر إلى قرشين عن كل فرض .

وظل فوزى باشا فى بلاء من حارسيه أربعة أعوام ، وفى ذات يوم أذن المؤذن فى المصريين من الرجال ، أن يجتمعوا فى صعيد واحد .. وفزع « أولاد الريف » من هذا النذير ، فقد كانت لهم عهود بأمثاله ليس فيها مايسر ، وليس فيها إلا كل شؤم وشر .

فلما كان موعد اللقاء ، أقبل التعايشى ، فهلل المصريون لمقدمه . وكانت عدتهم فى ذلك الوقت نحو خمسة آلاف رجل . وكان فوزى باشا منزويا فى آخر الصفوف ، فناداه الخليفة ، و بعد حديث ، فيه أنواع الملق التى أجادها ، أمر الخليفة ، فنثرت على الأرض أربعة أكياس من التمر ، وأمر المصريين باستطعامها فاقبلوا عليهـا ، وحمل فوزى باشا جزءاً منه وقال للتعايشى أنه يتبرك بتمرخليفة المهدى ، و يريد إهداءه إلى أهل بيته ، فسر منه الخليفة ..

ولم يكن هذا الاجتماع يحمل مفاجأة سيئة ، بل على العكس، أمر الخليفة فأحضرت راية سلمت لفوزى باشا وعين أميرا (رئيسا أو قائدا) لجنـد مصر النظاميين الذين دخلوا فى طاعة المهدى ، وعين آخرون من المصريين أمراء على طوائف أخرى .

وقد فرح فوزى باشا بهذا « المنصب » الجديد ، لأنه أحله من حراسة البقاريين . فقد رفعا أمره إلى الخليفة أنه لا يلازمها فى الصلاة ، فاستدعاه وسأله ، فقال ان تعيينه أميرا ، دلالة على رضاء الخليفة عن تدينه ، وانه يستطيع الآن أن ينتزع هو الكفر من قلوب الناس ، فأجازه ، ورفع عنـه هذه الحراسة المقيدة التى أرهقته وأعنته ماديا ونفسيا لعدة سنين .

● وكان أتباع المهدى بالجملة يحتقرون المصريين ، و يشكون فى نواياهم وفى كل حركة

تصدر منهم .. حدث ذات مرة ، أن جاويشا مصريا كان يبيع « الترمس » وينادي عليه بقوله : « تفرج » . فأمسكه حاكم السوق ، وقال انك بهذا تدعو الله أن يعود حكم الترك مرة أخرى ، وتزول المهدية من السودان . ثم أمر بجلده مئة جلدة . فلما اشتد وقع السياط على جسد الجاويش أخذ يصيح « لا تفرج .. لا تفرج » . وترك الرجل هذا النداء واستبدله بآخر هو « خليها على الله » ، فجلد مرة أخرى بنفس التهمة ، فعدل عن كل نداء من هذا النوع ، ولعله اكتفى بقوله « ترمس !! »

وحدث مرة أن إمام أحد المساجد فى احدى القرى ، دعا الله فى خطبة الجمعة قائلا : اللهم حول حالنا إلى أحسن حال . ولما بلغ الخليفة هذا الدعاء أمر بعزل الرجل وجلده ، فلما سألهم ماذا كان يمكن أن يقول ؟.. أجيب : — « اللهم أدم علينا هذا الحال !! »

ومع مضى الزمن تسلل بعض المصريين إلى الوظائف الكتابية فى بيت المال ، والفنية فى مصنع للبارود ، وذلك لندرة عدد المتعلمين والفنيين فى معسكر المهدية ، إلا أن عددا كبيرا من الذين نجوا من أصحاب المراكز السامية ، والمكانة الاجتماعية المرموقة كانوا يبيعون الخبز ويتجرون فى السلع التافهة ، وما أكثر ما كان يصادفهم ما صادف فوزى باشا حين اتجر فى البطيخ .

وقد أصدر الخليفة أمرا بأن كل مصرى يوجد عند نقطة معينة فى الشمال (خور شنبات) يهدر دمه ويقتل فورا ، حذرا من الهرب .. ومع هذا كان بعضهم يفر ، ومنهم من مات فى الطريق ، أو رد إلى الأسر فالقتل .

وظل حال فوزى باشا ومن معه على هذا المنوال إلى أن هرب سلاطين ..

● وسلاطين نمسوى من أسرة كبيرة كان يعمل أفرادها فى بلاط الامبراطور ، وقد شغف بالرحلة والمغامرة ، حتى اختارته الحكومة المصرية — بناء على توصية غوردون — مديرا لدارفور عام ١٨٨٤ . فلما ضيقت عليه الحركة المهدية الخناق استسلم بعد أن فقد كل أمل فى ابقاء منطقته على ولائها للحكومة ، وقبيل تسليمه تظاهر باعتناق الاسلام وأسمى

نفسه « عبد القادر صلاح الدين » ، وظل في أسر المهدي ، ثم التعايشي إلى سنة ١٨٩٥ .

وقد هيأت له القنصلية النمسوية كل أسباب الفرار ، كما أحكم إعداد خطتها قلم المخابرات البريطاني الذي كان يرأسه اذ ذاك السر ونجت . وقد تمكن من الفرار إلى الحدود المصرية في ذلك الوقت .. وصحبت اقامتــه وفراره الكثير من الحوادث الطريفة الشائقة ، أوردها في كتابه « السيف والنار » ، الذي ترجمه السر ونجت إلى الانجليزية ، واستفاد منه ، ومن معلوماته في حملة كتشنر للقضاء على حكم التعايشي .

وما يعنينا من قصة سلاطين أنه عند ما هرب ، حدث في أم درمان قلق كبير جداً ، واضطرب التعايشي اضطرابا عظيما لفراره ، وأوقع بعدد كبير من الناس الذين اشتركوا في تهريبه ، أو ظن أنه كانت لهم صلة في فراره . وقد ترك سلاطين رسالة [1] للتعايشي قال له فيها بعد أن أهال عليه ألوانا من المدائح ، إنه بعد أن أقام بباب الخليفة عشر سنين استمتع خلالها بعطفه وكرمه ، اجتذبه حبه لأهله ووطنه ، فسافر ليزاهم . ولكنه وهو يرحل ، يعرب عن شدة تمسكه بالدين الحق . ويذكر أنه لن يخون الخبز والملح حتى يدركه الموت ، ثم يقول انه أخطأ إذ لم يستأذن قبل رحيله . ولكنه يطلب العفو والسماح ويعود فيؤكد وفاءه ، للخليفة وللاسلام ويطلب بركاته المهدية .

وقد وجدت هذه الرسالة في أم درمان بعد سقوطها ، وكان للعثور عليها دوي كبير ، ولكن يظهر أن سلاطين اتخذ من كتابتها خط رجعة له ، فيما إذا قبض عليه ، وأعيد الى الخليفة مرة أخرى

ويذكر « نيوفلد » الذي أورد نبأ هذه الرسالة ، أن الخليفة بعد أن يئس من اعادة سلاطين ، أمر بأن تقرأ هــذه الرسالة في المسجد ، وفي نواحي أم درمان ، وكان قصــد

---

(١) لم يورد سلاطين هذه الرسالة في كتابه ، ولكن الذي ذكر نبأها ، هو شارل نيوفلد ، في كتابه « سجين الخليفة » . والمؤلف الماني من المشتغلين بالتجارة أغراه ريش السودان وعاجه وصمغه بمحاولة الوصول إليــه في أيام حكم الخليفة فقبض عليه ، وكاد يشنق ، ولكن تظاهره باعتناق الاسلام أنجاه .

التعايشي من اذاعة محتوياتها أن يطمئن أنصاره على أن فرار سلاطين لن يحمل فى اعقابه أى شر . كما إنه أراد أن يفهم الأسرى المسيحيين أن صاحبهم الذى فر لن يفيدهم شيئا ، فما يزال على وفائه لآسريه ، وتمسكه بالأسلام !

والحقيقة أن موقف المسيحيين المتظاهرين بالاسلام كان حرجا ، فقــد حسبوا أن فرار سلاطين سيخلف وراءه أسوأ الظنون بالنسبة لهم . إلا أن حادثاً عارضاً كان قد وقع فى مطلع هذا العام ، وقاهم إلى حين .. وهذا الحادث هو أن أحد أنصار الخليفة (يوسف منصور) اقترح أن « يتطاير » المسيحيون وهم الذين يسمون « المسلمانيون » وقد قبل معظمهم اجراء عملية التطاير،على أساليب الجراحه الخشنة التى بقيت فى امدرمان.ولــكن اجراء هذه العملية لهم ، كان سبباً نفسياً من أسباب الاقلال من الشك فيهم . فلما حدثت محنة فرار سلاطين ، حماهم ما أحدث فى أجسامهم قبل شهور من رد فعل سريع

ولــكن عودة الرجال الذين أرسلهم الخليفة فى كل وجه للظفر بسلاطين ، دون أن يعثروا على خبره ، أشعل نيران الغضب مرة أخرى فى صدر سيد الســودان ، فجمع قضاته، وأخذ يشاورهم ، فقــال له أحدهم انه لا أمان لمن كان وجهه أبيض ، خصوصا اذا كان ذا وظيفة فى الحــكومة . وتطوع آخر فذكر أن سلاطين كان صــديقا لابراهيم فوزى ، وكانا يشربان الخمر ، ويدخنان التبغ معــا ولا بد انه علم بفرار صاحبه قبل حدوثه . وقال ثالث انه اذا كان سلاطين قد هرب ، فلا بد أن فوزى سيهرب ، لأنه أرفع مكانة من سلاطين فى الحــكومة اذ يحمل لقب باشا ، فى حين أن سلاطين لم يحمل غير لقب بك..

ولم يطق التعايشى صــبرا ، فأرسل من أحضر ابراهيم فوزى وأخذ يستجو به عن سلاطين ، وفوزى يتظاهر بالدهشة البالغة وهو يسمع قصة فراره ، وحاول أن يكرر القاء الأنشودة المعتادة التى كان يطفىء بها غضب الخليفة ، فقال :

— يا خليفة المهدى عليه السلام . ان سلاطين نصرانى ، ارتد عن الاسلام ، وعاد إلى دين النصرانية ، وقد أبعــده الله عن التمتع بمشاهدة أنوار خليفة المهدى عليــه السلام

فى الدنيـا والآخرة . ومع ذلك ، فانه لحق بعصر التى ينوى مولانا الزحف عليها فى هذا العام ، ولا بد من وقوعه فى قبضة المهدية ، ويذوق جزاء خيانته وفراره .

ولـكن لم تجد هذه التمويذة فى الاقلال من شكوى الخليفة وهواجسه ، وأمر به ، فسيق إلى السجن ، وكان السجن يسمى الساير ، على اسم سجانه .

ووصف فوزى باشا ما حل به فى طريقه إلى السجن قال : « اجتذبنى أربعة من الحراس إلى خارج الباب، وهناك اجتمع نحو خمسين منهم ، فأخذوا يضربوننى حتى سال الدم من أنفى وجسمى ، ثم نزعوا عمامتى ، وشـدوا بها وثاقى ، وساروا بى إلى السجن والسياط تمزق جسمى ، فلم أقدر أن أمشى إلاّ بعض خطوات ، ثم سقطت على وجهى ، وقد أغمى على ، فأمسكونى ، وأسندنى بعضهم ، والبعض الآخر أخذ يضربنى بالسياط حتى بلغت باب السجن . فتلقانى حراسه بالضرب بالسياط أيضا ، ووضعوا فى رجلى ستة قيود يربو وزنها على أربعين رطلا ، ووضعوا فى رقبتى جنزيرا كبيرا من الحديد، وأمسك الحراس عن ضربى بالسياط . فالتفت إليهم ، وقلت أسقونى ماء . فكان جوابهم اعادة الضرب وهم يقولون : مثلك لا يستحق شربة ماء ، يا عدو خليفة المهدى عليـه السلام . ثم أدخلونى السجن»

وبعد أن قضى فوزى باشا ليـلة فى السجن ، جاءه فى اليوم التالى قاضيان من قبل التعايشى يقولان له إن الخليفة رأى وجوب قتلك لأنك تعمل ما يخالف منشورات المهدى عليه السلام . فقال لهما السجين : ان خليفة المهدى أوتى الحـكمة وفصـل الخطاب ، وان المهدى عليه السلام أخبر بأنه من أهل الـكشف ، فاذا كان هذا القول من عندياته فهو صادق ، وإلا فان أعداءه قبل زمن المهدية يريدون الوشاية والتنكيل به . وعلى كل حال فهو لا يطلب فى دنيـاه وآخرته غير رضاء الخليفة ، فاذا عزم على قتـله فهو راض ، واذا استحياه فهو راض!!

وذهب القاضيان بهذا الجواب ، وعادا يقولان إن خليفة المهدى عفا عنه ، واكتفى بالسجن المؤبد بدلا من القتل !!

وما لبث آخرون أن لحقوا بفوزى باشا فى سجنه منهم شارل نيوفلد الألمانى . وفى مرة أمر كبير السجانين أن يربط الرجلان معاً فى حديد واحد . وتصادف أن أصيب فوزى بحمى ، وأصيب صاحبه الألمانى بدوسنطاريا شديدة ، كانت تدفعه إلى قضاء حاجته كل بضع دقائق ، ولكنه لم يكن يستطيع استصحاب فوزى معه لأن الحمى كانت قد سلبت قوته . فأقام الاثنان خمسة أيام يتعذبان عذابا لم يره أحد ، حتى مرت بهما إحدى زوجات « السابر » ، وهى مصرية ، ورأت مافيه مواطنها المصرى من كرب عظيم ، فراحت تتشفع لزوجها الذى أمر باطلاقهما من القيد المشترك ، وخص كل منهما بقيده .

وكان عدد حراس السجن نحو مئة . ولم تكن لهم مرتبات، من خزينة بيت المال، اكتفاء بما يفرضونه على المسجونين من ضرائب . والويل للمسجون الذى لا يوفى مايطلب منه ، ولا يهدى السجانين فى أعيادهم وزواجهم ومولد أبنائهم .. الخ . فانه يعرى من ثيابه ، ويوضع فى شمس الصيف المحرقة ، وتنهال عليه السياط متواليات بغير عدد .

وقد فرض على ابراهيم فوزى أن يدفع ريالا كل يوم فى سجنه ، نظير تركه وراء أحد الأبواب لكى يستنشق الهواء من شقوقها . ولم يكن يملك مالا ، ولكن كان يتولى عنه هذه الضريبة تاجر يونانى كانت له بفوزى باشا صلات قديمة أيام أن كان حاكما لمديرية خط الاستواء . وظلت هذه الضريبة تدفع حتى سقطت أم درمان فى يد العساكر المصرية بعد خمس سنين طويلة .

وحدثت للسجين مفاجأة سيئة ، فقد نمى إلى السجانين ، أن ابراهيم باشا فوزى ، قريب الخديوى عباس ، فلما أنكر هذه القرابة ، ساقوه ضربا بالسياط إلى كبير السجانين ، وذكروا له إنه قال عن التعايشى « خليفتكم » ، ولم يقل خليفة المهدى . فلج المسكين فى الانكار ، عسى أن يغاث من عذاب الجلد ، واستشهد بشارل نيوفلد

فاحضروا شارل وهم يوسعونه فى الطريق ضرباً ، ولما أيد شهادةفوزى أمر كبير السجانين بأن يجلد الألمانى خمسين جلدة ، وأن تضاعف قيوده ، لأنه لم يحسن الشهادة . أما فوزى باشا ، فقد صنع به هذا الصنيع، وزج به فى غرفة الاعدام، حتى يستصدر صاحب السجن أمراً بالتنفيذ . و بعد شفاعة ، وضراعة ، قبل أن يتقاضى عشرين ريالا على أن يسكت عن ابلاغ الخليفة ...

ولم يكن فوزى باشا يملك دانقا واحداً ، ولـكنه كان يملك عبداً اسمه « لدوم » إذا باعه لا يتقاضى من ثمنه هذا المبلغ . كما أنه أصر على عدم بيعه ، وآثر الاعدام ، لأن « لدوم » كان يطوف كل يوم بيبوت المحسنين من معارف فوزى باشا ، يجمع منهم هباتهم لـكى تقتات أسرة السجين . وفى آخر الأمر رثا لحاله اثنان من أغنياء بربر سجنا على أثر فرار سلاطين ، وقاما بدفع هذا المبلغ ، و بذا نجا من موت محقق .

وكان لابراهيم باشـا فوزى ابن اسمه محمد ، وقد اقترن ميلاده بشبهة المؤامرة التى التصقت بأبيه فى الأيام الأولى لسقوط الخرطوم . وقد شب هذا الغلام،وكان فى السابعة لما سجن أبوه .. ومضت شهور السجن حتى أصبحت أعواما ، فلما زادت على ثلاث سنين ، أوعز فوزى باشـا لابنه محمد ، وكان قد جاوز العاشرة ، أن يذهب إلى الخليفة يستعطفه لاطلاق سراح أبيه .

وكانت هذه الشفاعة شراً على الجميع . فقد قال الخليفة : هل يلد الثعبان إلا ثعبانا ، ثم أمر به فوضعت القيود فى قدميه ، ثم أمر أحد أعوانه بأن يسجن الغلام عنده ، وان يوكل اليه خدمة الخيل.

وقد جن فوزى باشا لسجن ابنه ، أو كاد . وظل فى هذه الحالة الأليمة حتى أنقذت الجميع جيوش الفتح .

— ٥ —

الفرج

لم يكن اعداد الحملة المصرية الانجليزية لاستعادة السودان متفقاً تماماً مع خطة الحكومة البريطانية. فقد كان التصميم الأول يقضى بأن تفتح السودان من الجنوب قوات من الأمبراطورية، تقتطع أجزاءه من الدولة المهدية تباعاً .. إلا أن عاملين، حملا على أن يكون الفتح من مصر، وهما تقدم الفرنسيين فى منطقة بحر الغزال، والرغبة فى مساعدة القوات الايطالية، التى هزمها الأحباش هزيمة منكرة فى عدوة، على الانسحاب دون أن يضايقها الدراويش.

وقد أعدت هذه الحملة حسب ما تقضى به القواعد العسكرية الدقيقة، إذ نظر إلى مواصلاتها، وتقرر أن يكون وراءها خط حديدى يصلها بخلفها .. كما أحسن تموينها وإمدادها بالأسلحة والذخائر الكافية .. وأضيفت اليها مجموعة من البواخر النهرية المسلحة كانت ذات أثر قوى جداً فى تدمير القوات المعادية. وإذا أضفنا إلى هذا كله أن الحكومة المهدية فى السودان لم تستطع أن تقيم قواعد ثابتة لتموين الأهالى، مما أدى إلى انتشار المجاعات الذريعة، التى لم يكف فى التخفيف من فتكها الدعوات، ولا قراءة الرواتب المهدية المقررة .. كل هذا أضعف الحماسة للحركة الانقلابية، وأكثر من أسباب التذمر، والرجاء فى أن تعود مصر إلى السودان كما كانت بخيرها وعدلها [1]، وإن كان

(١) عند ما بدأ ابن النجومى زحفه على مصر، اشتبك مع الحامية المصرية أول مرة عند «أرغين» وفقد نصف جنده هناك، ثم أفنى بقية الجيش فى معركة «طوشكى» كما ذكرنا. وقد كتب أحد الدراويش الى أهله قبل «أرغين» يقول إنه ذبح فرسه فى ليلة المعركة، وتعشى من لحمها هو ومن معه، وادخر الباقى لكى يوصله الى حدود (الكفار) المصريين، وهناك سيجد طعاما أوفر. والجندى الذى يضطر الى ذبح فرسه، لابد أن يكون هو ومن معه فى ضنك شديد.

هذا لم يمنع الخليفة عبد الله ، من أن يعتمد على قبيلة البقارة القوية ، ذات الجلد فى الحرب ، والحماسة فى القتال ، وعلى آخرين ما تزال قلوبهم متدفقة بالحرارة الدينية .

ولنبق الآن فى الخرطوم ، وفى سجن « الساير » بالذات الذى ضم كبار الأسرى ، وعلى رأسهم ابراهيم باشا فوزى ، لنستعرض أنباء الزحف المصرى هناك . فقد كان الحديث يكثر فى كل مكان عن « شيطان من حديد » يستعين به الكفار فى زحفهم ، ولم يكن هذا الشيطان غير القطار الحديدى الذى تمده الوحدات المصرية ، والذى لم يكن لمعظم السودانيين عهد به .

وفى كل لحظة ، كانت تأتى الأنباء بهزيمة الجيش المصرى ، وانتصار « الأنصار » . ولكن زج فى السجن بعض السودانيين الذين هجروا القوات الزاحفة إلى صفوف الدراويش ، فشك الخليفة فى أنهم جواسيس كتشنر فأمر بهم فسجنوا .. ومن هؤلاء ، عرف المسجونون كل ما حدث ..

تحرك الجيش من عكاشة إلى فركة فى طابورين ، أحدهما بحذاء النهر وهو مكون من ٧ آلاف جندى والثانى من طريق الصحراء شرق النهر وكان مكوناً من ٤ آلاف جندى . وكانت الأوامر تقضى بالزحف ليلا ، وأن يكون المسير فى هدوء تام ، وكل من يشعل سيجارة ، أو ناراً من أى نوع يعدم فوراً .. وقد أثبت المصريون فى زحفهم الليلى أنهم على أعلى درجة من درجات النظام ، بازاء هذا الامتحان الدقيق لقوة أعصابهم أثناء زحفهم الليلى [1] . وبعد سير طويل اقترب الفجر ، وأخذ طابور الصحراء مكانه مواجها لمعسكر الدراويش الذى كان يقوده حموده ادريس . وفوجىء جند التعايشى مفاجأة تامة بسيل منهمر من القنابل والرصاص ينصب عليهم انصبابا . وبدأت المعركة ، واستمرت ساعة ونصف ، وانتهى القتال بالقضاء على قوة العدو . وفقد المصريون عشرين قتيلا وثمانى جرحى ، وفقد الانجليز قتيلا واحدا . وقتل من جيش الدراويش قائدهم حموده ، وعدد كبير من أعوانه وجنوده قدر بثمانى مئة فى نفس الميدان .

(١) هذا من كلام « أتريدج » المراسل الحربى الذى كان مرافقا للحملة . وقد امتدح بسالة المصريين والسودانيين امتداحا كبيرا فى جميع مراحل القتال ، وأثنى على بسالتهم العسكرية الفريدة .

ومن مفاجآت الحملة ، أن جنديا سودانيا فى القوة المصرية وجد أباه ـ وكان من الدراويش ـ قتيلا فى ميدان المعركة ، فلم يبد تأثرا كبيرا، إلا أنه استأذن فى غسله ودفنه، فأذن له .

وتابع الجيش المصرى مطاردة الفلول الهاربة ، وأوقع بها خسائر جسيمة رفعت عدد قتلاها إلى ألفين ، منهم أربعة وأربعون أميرا وشيخا .

وكانت هذه الهزيمة ضربة قاضية على دفاع الخليفة عن مراكزه الشمالية ، فأخذ ينسحب منها واحدة بعد الأخرى . ولو أن الجيش المصرى لم يواجه قوة يعتد بها ، إلا أن مرض الكوليرا هاجمه ، وبذلت جهود جبارة لإيقاف سريان العدوى بين المعسكرات حتى أمكن انهاء الوباء بعد أن تكبد المصريون منه خسائر ليست قليلة .

وعندما وصلت القوات المصرية النهرية إلى دنقلة واستولت عليها ، أمكن أن يضاف من نهر النيل ٤٥٠ ميلا كانت تحت الحكم المهدى . وكان من بين الذين أسروا فى طريق الزحف الأمير حسن ولد النجومى ، أخو عبد الرحمن النجومى الشهيد .

وكانت هذه المعلومات وهى تلق إلى فوزى باشا وأصحابه ، تزلزل كيانهم لهفة وشوقا ، وكلما كان وقت خلاصهم يدنو ، كان قلقهم يزداد ، ودق قلوبهم يدوى دوى الطبل بين جنوبهم .

ولم يكن فوزى باشا ومن معه هم وحدهم الذين استبد بهم القلق ، ولكن معسكر الخليفة أيضا بدأ يروع بهذه الأنباء المخيفة . ولم يكن عبد الله يبالى بسلسلة الهزائم التى حاقت بجنوده على شواطىء البحر الأحمر ، وعند الحدود المصرية ، بل ربما سر من بعضها لأنها خلصته من بعض ذوى الرؤوس الصلبة..أما الآن فقد تغير الأمر،وتبدلت الأحوال.

أقبل عثمان دقنة على الخليفة ، فسأله :

— ماذا لديك من الأنباء ، وكيف حال الأنصار ؟ فأجاب

— سيدى .. قدت الأنصار إلى الجنة ! !

ولقد تعود الخليفة على سماع هذا الرد ، وهو يستمع إلى الهزائم ، فكان يقبله ساكنا ، أما الآن فقد زال السكون ، وقال الخليفة لقائده :

— ولماذا لم تلحق بهم إلى الجنة ؟ فأجاب عثمان :

— لم يأذن الله بعد . ولعله سبحانه وتعالى ادخرنى لعمل مهم سأقوم به .

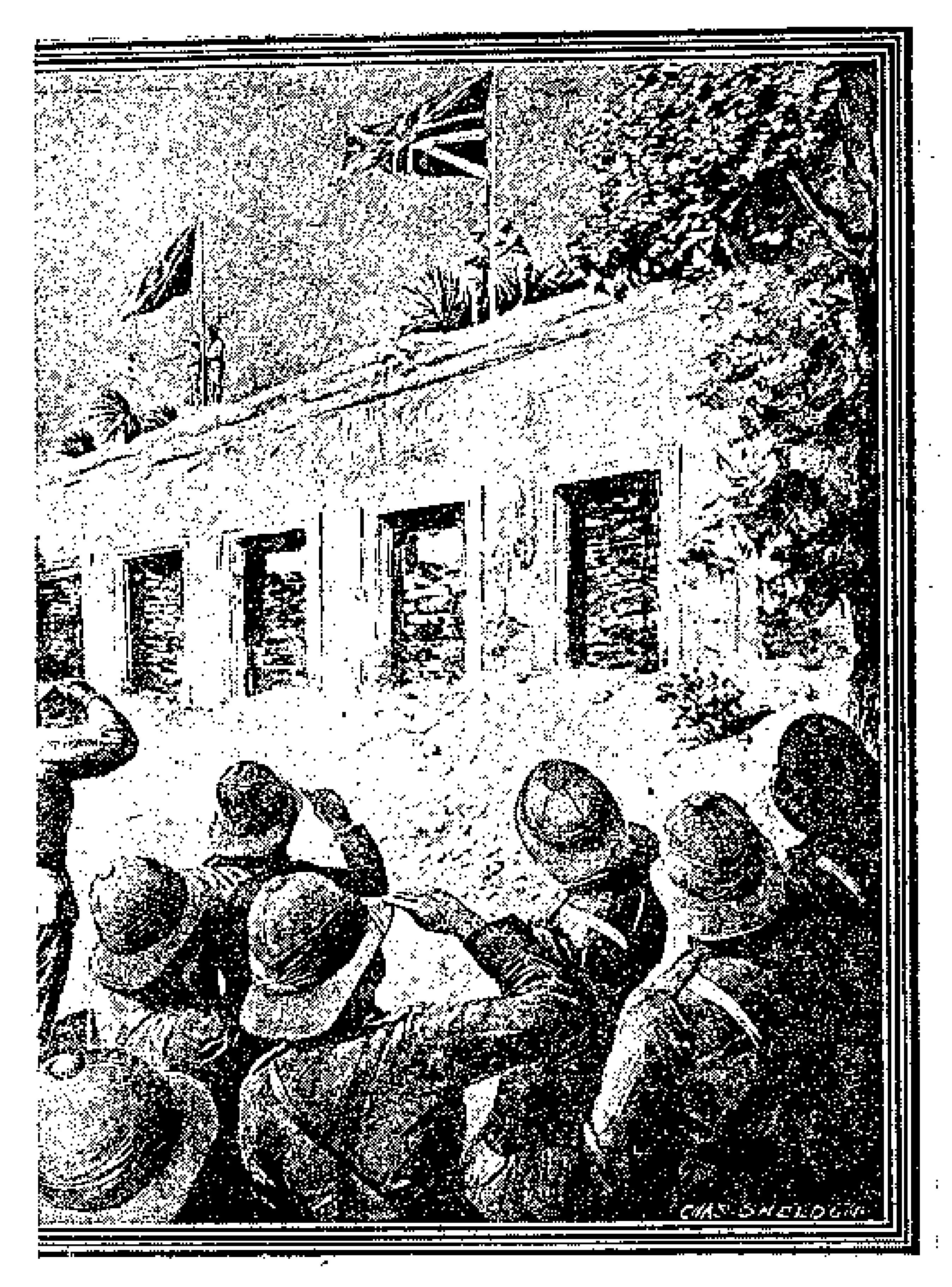
وهكذا بدأت أم درمان تحس بالقبضة الثقيلة التى بدأت تطبق على عنقها .

وكانت مهمة السجناء تنحصر فى أمرين : أولهما امداد جيش الفتح بأدق المعلومات عن حالة جيش الخليفة ، وعدد بنادقه ، ومواقع طوابيه ، ونوع بنادقه وهكذا . . ولم يكونوا يعدمون وسيلة لهذا ، ولا سيما أن الماجور ونجت ، رئيس المخابرات كان معنياً بأن يرسل لهم الرسل فى أزياء مختلفة للوقوف على ما يريد . وأما المهمة الثانية ، وهى هامة جدا ، فكانت تتلخص فى اقناع أمير السجن « ادريس الساير » فى أن يحسن معاملتهم ، وأن يبقى على حياتهم . وقد قص فوزى باشا على ادريس ما حدث فى أثناء الثورة العرابية ، فقد كان فى سجن القاهرة مدير عذب مسجونيه وأذاقهم عذاب الهون ، وفى الاسكندرية آخر أحسن معاملتهم وهيأ لهم أسباب الحياة والراحة حتى أقبل جيش الغزو .. أما الأول فقد فر ، ولكنه أحضر ، وشنق فى السجن . وأما الثانى فقد رقى وأبقى فى مكانه .

ولم يكف أدريس عن تقليب الأمر على وجوهه : هل يبقى مع مسجنانه ، وينتظر الفاتحين ، أم يقتلهم ويفر مع التعايشى ويشاطره مصيره ؟.

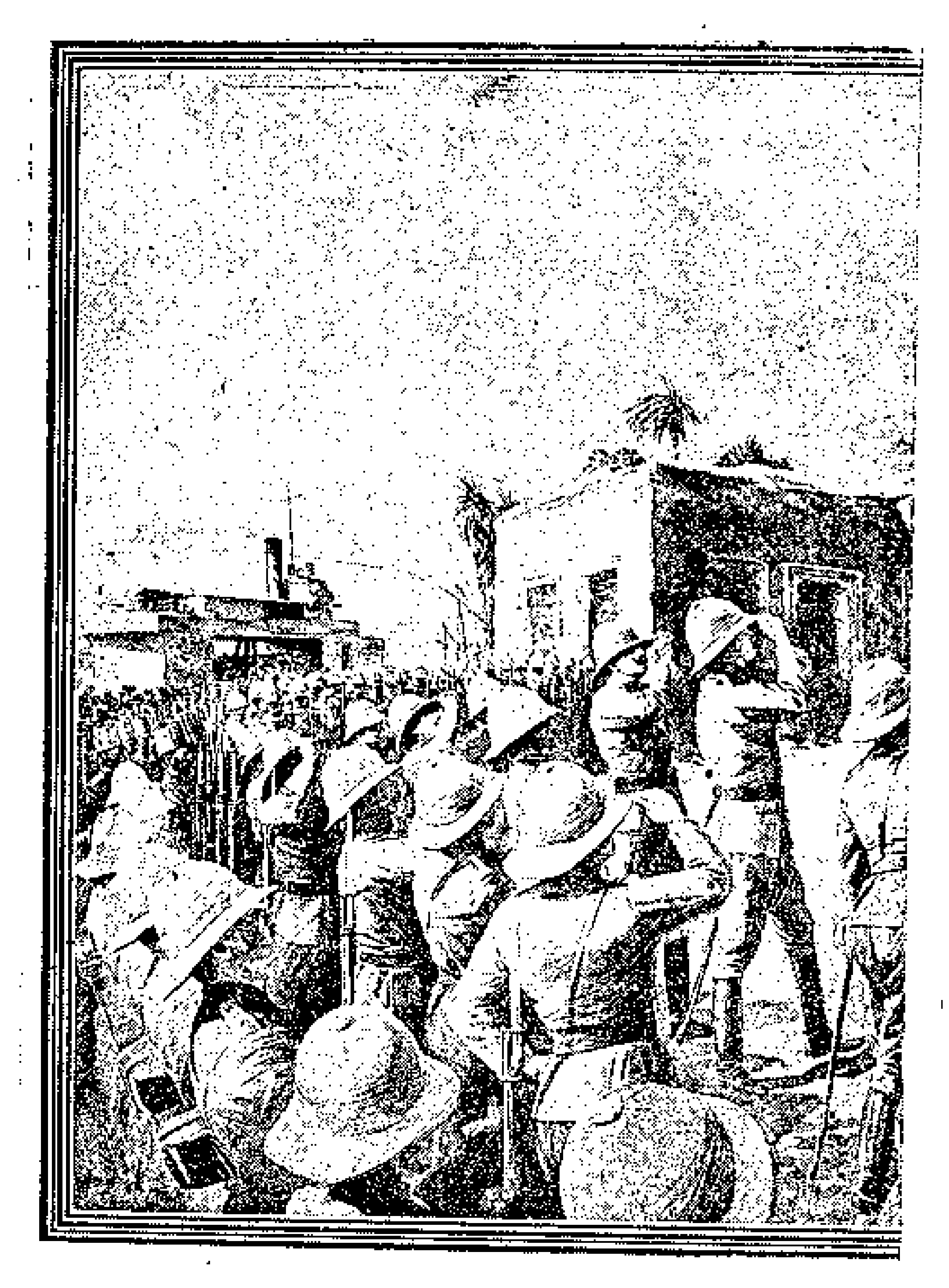
وأخيراً .. أخيراً تغلب الرأى الأول . وكلما تقدمت الحملة فى زحفها ، كلما ازداد احسانا إلى من عنده حتى انتهى به الأمر إلى أن أودع جنوده من البقارة المتحمسين فى زنزانات الاعدام وغيرها ، ووكل إلى الأسرى حراستهم .. فسبحان مغير الحال !

وأدت اتصالات السجناء بالجيش الزاحف إلى تحديد موقع السجن، فلما اقتربت السفن المسلحة من مواقعها المعدة لدك الاستحكامات والطوابى ، كانت القنابل تمر فوق



عندما سقطت الخر

صـــورة تذكارية فريدة لوحـــدات الجيش الانجليزى ، وقواده ، وقد اصطفت وراءهم وحدات الجيش وهـــذه هى المرة الأولى التى رفع فيها العـــلم الانجليزى فى



طوسم فى يد كتشنر

المصرى وهم يرفعون العلمين المصرى والأنجليزى على انقاض سراى الحاكم العام التى قتل فيها غوردون ،
السودان ، وما يزال حتى الآن مرفوعا بجوار العلم المصرى .

السجن ، وتنزل فى كل مكان ، وكان كل انفجار حولهم ، يعنى فك حلقة من حلقات الحديد التى تقيدهم .

أما الخليفة ، فقد ظل يوالى عقد مجالسه الحربية ، ويرسل الرسل والجواسيس يستطلع أنباء كبار أسراه ورأيهم فى أحسن خطة للدفاع ، ويتقصى معلوماتهم عن خطط كتشنر المحتملة .. وأخيراً قبل الخليفة المعركة ، فى سهل مكشوف شمال أم درمان ، وقد تجمع حوله نحو مئة ألف ربطهم به ما كان ينبئهم به عن اتصالاته بالسماء ، وهبوط الوحى عليه بالنصر ، وأوامر النبى ، وأوامر المهدى ، ولكن يظهر أن قنابل المدافع لم تكن تتلقى أى وحى سماوى فقد حصدت الجيش حصداً ، وقتل قائداه : يعقوب أخوه ، وشيخ الدين ابنه ، وعدد عظيم جداً من المقاتلة .. وفى أثناء فرار الخليفة ، بعد أن حاول جمع نسائه ومتاعه ، كانت قبة المهدى تتهاوى تحت قنابل المدفعية وكان الحكم كله يذوب ويزول إلى الأبد ، ومعه جميع أقطابه ورجاله من خليفة وأمراء .

وكان أول الأسرى الذين استدعاهم السردار شارل نيوفلد الألمانى ، ولم يذكر شارل فى كتابه شيئا عن فوزى باشا ، ولا كيف أطلق سراحه ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن فوزى باشا كان كبير المصريين فى السودان ، ولم يكن من المهم أو اللازم أن تذكر سيرة هذا القائد وتفاصيل اطلاق سراحه وعودته إلى وطنه !

وقد عاقب القدر شارل نيوفلد عقوبة عادلة بأن قوبل من السلطات البريطانية فى القاهرة بجفاء كبير ، ووصف بانه كان يصنع للخليفة البارود الذى قتل به الانجليز فى حملة الغزو ..

هذا مجمل سيرة مصر وتضحياتها الشعبية فى السودان ، وهذه قصة قائدها هناك ، وآلاف مؤلفة من أبناء مصر ، وما ذاقوه من نكال فى أيام الأسر ، ومن اهمال من الجميع — بعد عودة الحرية

ملخص التواريخ الهامة

سنة

١٨١٩ قرر محمد على باشا فتح السودان وضمه إلى مصر .

١٨٥٧ زار سعيد باشا السودان .

١٨٦١ شرع السر صمويل بيكر فى كشف أعالى النيل .

١٨٦٩ عين الخديوى اسماعيل السر صمويل بيكر قائدا لحملة ضم منابع النيل إلى مصر

١٨٧٤ عين الخديوى اسماعيل الجنرال غوردون لمواصلة ضم منابع النيل الى مصر .

١٨٧٥ اشترى الخديوى اسماعيل ميناء زيلع من سلطان تركيا، وامتد حكم مصر حتى بربره

١٨٧٦ عقد غوردون معاهدة مع متيسا ملك أوغندا ، وأوفد اليه شنتزلر (Schnitzler) أو «محمد أمين» ممثلا للتاج المصرى .

١٨٧٧ بعد انتهاء خدمة غوردون فى العام الماضى ، عاد الخديوي فعينه حكمدارا عاما على السودان بما فيه مديرية خط الاستواء . وفى هذه السنة أمر غوردون باخلاء ميزندى وكيزومو ، وهى من المحطات الرئيسية فى منطقة المنابع .

١٨٨١ أعلن محمد احمد مهديته ، و بدأ نشر دعوته الدينية .

١٨٨٢ احتلت الجنود البريطانية مصر بعد هزيمة عرابى باشا فى التل الكبير .

١٨٨٣ سقطت الأبيض فى يد المهدى . وفى نفس السنة اجتاح عثمان دقنة مراكز الحاميات المصرية فى شرق السودان . وفى نوفمبر من هذا العام دمر المهدى جيش الجنرال هيكس تدميرا تاما جنوب الابيض نتيجة أخطاء فاحشة ارتكبتها قيادة الحملة .

١٨٨٤ فى فبراير من هذا العام أوفد غوردون إلى الخرطوم بتفويض لاخلاء السودان وفى ٢٦ مايو من هذا العام سقطت بربر وقطع خط الاتصال بين مصر والسودان وفى هذا الوقت بدأت حملة نهرية بقيادة اللورد ولسلى (Wolsely) تتحرك لانقاذ

غوردون . وفى سبتمبر أرسل غوردون مساعده الكولونيل ستيوارت لشرح الحالة والتعجيل بارسال نجدة فذبح فى الطريق .

وفى هذا الوقت استولت بريطانيا على بربره وزيلع من الأملاك المصرية وأضافت هرر إلى أملاك نجاشي الحبشة .

١٨٨٥ فى ٢٦ يناير سقطت الخرطوم ، وذبح شارلس غوردون و ٢٤ الف مصرى من المدنيين ، وسبيت ٣٥ ألف فتاة وسيدة من المصريات وهذا غير الحاميات العسكرية . ولما علمت حملة الانقاذ بسقوط الخرطوم عادت إلى الشمال .

وفى هذا العام احتل الايطاليون مصوع وانسحبت منها الحامية المصرية . وانسحب امين باشا حاكم خط الاستواء إلى وادلاى .

وفى هذا العام حاولت انجلترا أن تستولى على شاطىء البحر الأحمر السودانى وأن تنشىء خطا حديديا إلى بربر ، فاوفدت قوة قوامها ١٣ الف جندى تحت قيادة الجنرال جراهام . ولكن عثمان دقنة لم يمكنها من إتمام مهمتها .

وفى يونيو من هذا العام مات المهدى ، وخلفه عبدالله التعايشى .

وفى ٣٠ ديسمبر من هذا العام حاولت جيوش الخليفة عبدالله أن تجتاح الحدود المصرية ، فردتها الحامية المصرية هناك ، وأوقعت بها خسائر فادحة .

١٨٨٧ فى هذا العام والعامين التاليين ثارت دارفور على الخليفة عبدالله . وأخذت قبيلة الكبابيش فى شمال كردفان ترهق حكم التعايشى بانتفاضاتها .

١٨٨٨ فى ديسمبر حاصر عثمان دقنة فارس السودان الشرقى آخر معاقل مصر ، وهى مدينة سواكن . ولكنه هزم ورد عن المدينة بخسائر كبيرة .

١٨٨٩ فى صيف هذا العام حشد التعايشى جيشاً عظيما تحت قيادة أظهر قواد المهدية عبدالرحمن النجومى ، لكى يغزو مصر ، وفى أغسطس دارت المعركة الحاسمة عند « طوشكى » بين اسوان والشلال ، وقد تمزق جيش الدراويش وسقط

النجومى قتيلا ، و بددت هــذه الهزيمة أحلام التعايشى فى غزو مصر إلى حين ، وأقيمت فى مكان المركة مقبرة فخمة تذكاراً لهذه المعركة .

١٨٩٧ تمت معــدات الحملة لاستعادة السودان فى العام الماضى ، تحت قيادة كتشنر ، وفى أغسطس من هذا العام احتلت أبو حمد ، وفى سبتمبر احتلت بربر .

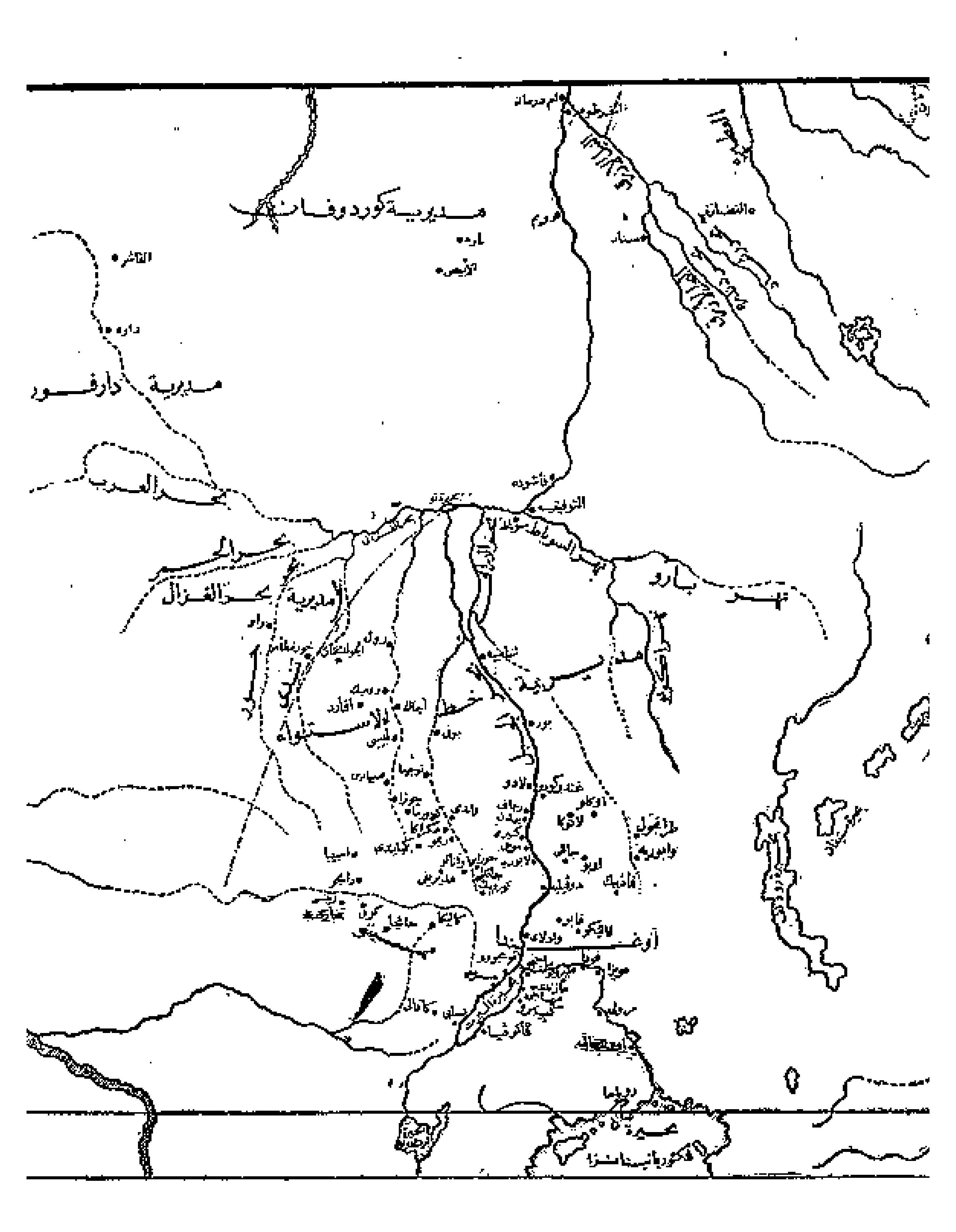
وكانت القوة المصرية مكونة من عشرة آلاف جنـدي وكان عدد ضباطهم ٣٣٢ ضابطا . وتألفت القوة البريطانية من ٣٫٣٥٧ جنديا و ١٠١ ضابطا .

١٨٩٨ فى ٨ ابريل احتلت قوات الفتح عطبره . ثم زيد عددها إلى ١٧٫٦٠٠ جندى مصرى وسودانى و ٨٢٠٠ بريطانى . وكانت الوحــدات المصرية تمد فى زحفها الخط الحديدى الذى كان أكبر عون للحملة على انجاز مهمتها بنجاح .

وفى ٢ سبتمبر حدثت المعركة الحاسمة بين جند الخليفة وجيش مصر ، فهزم الدراويش شر هزيمة شمال أم درمان . وكانت خسائر الجيش فى هذه المعركة ٥٦ قتيلا و٤٣٤ جريحا . وبهذه المعركة انتهت الدولة المهدية .

وفى هذا العــام حاول الفرنسيون أن يحتلوا جزءاً من السودان ، ووصل مارشان إلى فاشوده ، فأسرعت القوات المصرية لتخليص منطقة بحر الغزال ، وفى ديسمبر انسحب الفرنسيون .

١٨٩٩ استقال شريف باشا من الحــكم وحل محله بطرس غالى باشا الذى قبــل توقيع اتفاقيتى الحــكم الثنائى .



مديرية كوردوفان
مديرية دارفور
بحر العرب
بحر الغزال
مديرية بحر الغزال
مديرية خط الاستواء
نهر بارو
التوفيقية

حواش افندى .. وقصص أخرى

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين
ءاووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . »

— ١ —

● نحن الآن فى مديرية خط الاستواء مرة أخرى ، وفى عام ١٨٧٨ م . وهـذا هو العام الذى أصدر فيه غوردون باشا حكمدار عام السودان ، أمراً باقالة ابراهيم بك فوزى من حكمدارية خط الاستواء لسماعه وشاية أحد السياح فى حقـه ، وعين مكانه طبيب المديرية وهو ألمانى اعتنق الديانة الاسلامية فى تركيا وتسمى باسم محمد أمين .. وقد منحه غوردون لقب بك وأعطاه السلطات اللازمة لمباشرة مهام منصبه .

وقد بدأ أمين بتقسيم المديرية إلى ثلاثة أقسـام عين لـكل قسم وكيل حكمدار ، الأول فى « مكرا كا » (نيام نيام) فى الشرق ، والثـانى فى الوسط ومقره « كرى » ، والثالث فى الجنوب ومقره « ماجونجو »

● وفوجىء أمين فى مستهل عمله بأمر غريب صدر له من غوردون ، وهو أن يخلى منطقة المنابع الواقعة جنوب نيل فيكتوريا ، ويقصر حكمه على الشمال . فتلكأ فى تنفيذ هذا الأمر ، فلما أصر غوردون ، نفذه ولـكنه عاد فاحتل المنـاطق التى اخلاها بمجرد علمه بتنحي غوردون عن حكمدارية السودان .

وفى هذا العام بدأت صلات أمين الودية تزداد بالملك متيسا صاحب أوغنده ، وقد جاءته منه هدية مكونة من عنزتين ، ومزراقين ، وترس مصنوع من القش ، وحوضان من الفخار ، وحذاء ، وقطعة من قشور الشجر مشغولة ، ومديتان من صنع أوغندا .

وقد عنى أمين بك بتوطيد الأمن فى مديريته لدرجة أن أحد المبشرين ، واسمه فلكن ، قام فى العام التالى برحلة إلى البحيرات ، ذكر عنها أن الانجليز فى انجلترا سخروا من فكرة امكان الوصول إلى أوغندا بطريق النيل، حتى أن ستانلى أكد له إن هذه البعثة لن تصل ومها نصف أمتعتها . ومع ذلك وصل أفرادها من « سواكن » إلى « روباجا » ولم يفقد منها طرد واحد .

وذكر هـذا المبشر أنه عند ما وصل إلى « الرجاف » وجد قائد محطتها اسماعيل افندى خطاب ؟ وقد وصفه بأنه ألطف مصرى وقعت عينه عليه . وسر سروراً لا مزيد عليه إذ أهداه اسماعيل افندى كيات من البن والسكر والصابون

وكانت العاصمة فى هـذا الوقت قد نقلت من الاسماعيلية « غوندوكورو » إلى « لادو » ، وهى فى غرب النهر و إلى الشمال قليلا من العاصمة القديمة .

● وظل أمين بك منذ تعيينه حكمدارا لخط الاستواء مدة عامين ، وهو ينفق على مديريته من دخلها المعتدل ، دون أن يتلقى اعانة من الخرطوم . ولم تتأخر رواتب الجند مطلقاً . فلما كان عام ١٨٨٠ جاء البريد إلى أمين بك من الخرطوم فاذا به يتضمن عزله من مديريته ، وتوليته عملا آخر فى سواكن، لأنه تردد فى تنفيذ الأمر الصادر له باخلاء منطقة البحيرات . وقد حزن أمين حزناً شديداً ، ولكن ما لبث همه أن انفرج عند ما وصلته المعلومات بسفر غوردون وتولية رؤوف باشا الذى تولى قيادة الجند فى هذه المنطقة الجنوبية مدة طويلة . وقد ألغى رؤوف أمر العزل ، وثبت أمين بك فى عمله . وزاد سرور أمين بك أن يده أطلقت فى اقامة المحطات أينما أراد والتوسع فى نشر الحكم المصرى على أوسع نطاق .

● وقد استطاع هذا الحكمدار أن يدخل زراعة الارز والبن فى مديريته ،فأنتجت أحسن النتائج ، وكان محصولها مجزياً . وذكر صيدلى المديرية واسمه فيتا حسان افندى نه لايوجد مرض أو داء عضال فى« لادو » العاصمة، ولافى محطات الحكمدارية الأخرى



زنوج ارستقراطيون ، وقد صفوا شعرهم حسب مودة خاصة ، وزينوا صدورهم بعقود الخرز . وهم من سكان مديرية خط الاستواء

ولم يتقدم اليه للعلاج إلا اربعة مرضى بالحمى الصفراء ، وقليلون جداً مرضى بأمراض سرية نقلها التجار إلى الأهالى. وقلما تجد انساناً هناك يشكو من ألم فى عينه أو أسنانه، فعيون وأسنان السودانيين ليس لها نظير فى فى كل بلاد العالم . وأقام هذا الصيدلى عشرة أعوام فى المديرية، هى طول مدة خدمة أمين بك ، وكان من الموظفين معه بناء ، ونجار ، وحداد ، ونقاش، وسمكرى،وهؤلاء يتقاضون رواتب شهرية، غير أجر ما يصنعونه للموظفين أو الأهالى . وهكذا وفى الخديوى اسماعيل بتنفيذ لائحته فى تنظيم السودان ، فبدأت هـذه المناطق تعرف المساكن المبنية بالطوب ، بدلا من القش ، وحتى المستشفى والصيدلية عرفتهما . ولا غرو فان الحكمدار كان طبيباً .. وما يزال .

● واحتكرت حكومة المديرية التجارة ،وعلى الأخص تجارة العاج. وخصص ايراد العاج لسداد الضرائب. وحددت أسعار ريش النعام بـ ١٨ ريالا لأحسن أنواعه ، وأقلها ثلاث ريالات . وكانت البواخر تقوم من لادو وغيرها محملة بالعاج والريش والجلود ، وتعود بالأحذية والمظلات والمنسوجات والصابون والسكر والبن والشاى والخرز وغيرها .. وكانت العملة قليلة ، وأساس التجارة هو التبادل النوعى . ولم يصل إلى هذه المنطقة من النقود خلال عشرة أعوام سوى ٥٢٠٠ ريالا نقداً . فى حين أن كل باخرة كانت تجلب سلعاً قيمتها نحو ٣٠٠٠٠ ريالا بدلا من صادرات المديرية .

ولم تكن المديرية تصدر الذرة والسمسم والفول والشهد والزيت وغيرها من الحاصلات لحاجة الاستهلاك المحلى اليها .

وقدر ثمن أردب الذرة بـ ٢٨ قرشاً ، والسمسم ٦٠ قرشاً ، والفول ٢٥ قرشاً ورطل الشهد ١٥ مليما ، ورطل الزيت ١٢٫٥ مليما .



منظر فريد لمفاجآت الوحوش فى السودان . فقد فاجأ وحيد القرن ، فرسا مربوطا فى شجرة ، فكان فريسة مستساغة ، ولم ينج الفرس استغاثته المتصلة

● فى هـذا الوقت كان يتولى قيادة محطة «مكراكا» (نيام نيام) يوزباشي مصرى اسمه حواش افندى منتصر . وقد بدت عليه من دلائل الهمة واليقظة ما جعله من خيرة الضباط غيرة على تنفيذ الأوامر ونشر الأمن والعدل بين الأهالى.

وحدث فى هذا الوقت أن أضيفت إلى المديرية منطقة جديدة هى مركز « رول » ، كانت مضافة من قبل إلى بحر الغزال ، وفى احدى بلاد هذا المركز واسمه « عمبتو » اعتدى الأهالى على رحالة اسمه « جونكر » فما كان من أمين بك إلا أن نقل قائد «نيام نيام» إلى هذه المنطقة ، لكى يعيد إليها الأمن ، ويوطد دعائم القانون ، فسار حواش افندى على الفور على رأس ٥٠ جنديا إلى منطقة العصيان ، فاذا به يعلم أول وصوله إلى حدودها أن الحامية أبيدت وكانت مكونة من ٨٠ جنديا ، فلم ييأس أو يتراجع ، بل استأنف السير السريع بقوته الصغيرة ، وكتب إلى الحكمدار :

« قتلت حامية عمبتو . سأنطلق إلى هنالك لأعاقب الزنوج على ماجنت أيديهم وأنتقم لسمعتك . فاذا سلمنى الله من هذه الواقعة ، وظللت على قيد الحياة أحطتك علما بالنتيجة »

وأول ما عمله حواش افندى ، أن ذهب إلى قرية الطويل ، وتبادل الدم مع شيخها . وبذا ارتبط مع قبيلته بحلف أبدى ، دفاعى هجومى ، لا خيانة فيه ولا نكوص . وهكذا

أمكنه بقطرات من الدم سفكها من ذراعه باختياره أن يضم إلى وحدته ٣٠٠ زنجى مسلحين بالبنادق ، لا سبيل إلى توقع الغدر منهم [١] . وفى قرية أخرى أجرى تبادل الدم مع شيخها ، وحصل منه على ١٨٠٠ رجل مسلحين بالحراب . وتنقل إلى الشمال أيضا فعقد معاهدة دم ثالثة [٢] حصل منها على ١٥٠٠ رجل آخرين.

واستطلع حواش افندى القوة فى المنطقة الثائرة فعلم ان عدة محار بيها ٣٦٥٠ رجلا، فهجم وفاجأ قوات عدوه وهزمه ، وظل يطارده فى الغابات سبعة عشر يوما . وكان شيخ المنطقة الثائرة ، واسمه « مامباجا » واسع الحيلة جم الدهاء . فبعد ان انهكه الطلب ارسل إلى حواش افندى رسولا يحمل اربع سلال مليئة بالتبن ، وقال له : « ان سيدى يخبرك أن لديه رجالا عددهم مثل عدد التبن الموضوع فى هذه السلال ، وهو يؤثر أن يكون صديقك على أن يكون عدوك . و ينصحك لمصلحتك أن تكف عن مطاردته »

فأخرج حواش افندى على الفور علبة كبريت من جيبه ، وقال للرسول اذا عدت إلى سيدك ، فافعل مثلما افعل . ثم قلب السلال ، واشعل فيها عود كبريت. وقال له :انه وان يكن رجالى أقل عددا من رجالك إلا ان واحدا منهم يستطيع أن يعمل فى رجالك مثل ما عمل عود الكبريت فى التبن !!

وحاول زعيم الزنوج «مامباجا» ان ينفذ وعيده فجمع عددا عديدا من رجاله ، وهاجم محطة حواش افندى ، فأمر القائد رجاله —مشددا — ألا يتحرك منهم أحد حتى يصدر لهم أمره مهما حدث . وفهم الزنوج الذين معه ماقصد .. فلما أصبح العدو قريبا جدا اخذت البنادق تحصد رجاله فيتساقطون كاوراق الخريف ، فى حين لم يصب عسكر الحكومة

---

(١) يعلق سمو الأمير عمر على معاهدة الدم بقوله : « لم يحدث فى السودان مطلقا أن أحد الموقعين عهد الدم نكث عهده ،ويصح ان يحتذى الرجال الذين يطلق عليهم كلمة متمدنين بمتوحشى افريقية فى المحافظة على العهود»

(٢) الطريقة فى تبادل الدم هى أن يجرح كل من المتعاهدين نفسه ويغمس فى دمه حبة بن يتبادلها مع الأخرى غمست فى دم زميله ، ثم يبلع كل طرف حبة صاحبه .

وحلفائها بشيء لأنهم اقاموا متاريس من اخشاب الشجر وقتهم من كل شيء . وارتد مامباجا بعد أن خسر ٣٥٠ قتيلا . فلما كان الليل سحب حواش افندي جنوده إلى مكان قريب ثم اشعل نارا قرب معسكره ، فظن العدو أن المعسكر نفسه يحترق ، واسرع يقضي عليه ، ويظفر بغنائم الحكومة ، وما أن اقترب حتى أصبح بين نار البنادق ولهب الحريق ففقد ٤٠٠ قتيل آخرين .

وقد كفت هذه الضربات المتلاحقة في اقناع جميع اهالى المنطقة بان قوة الحكومة لاتقهر ، وان حيلها لاتنفد ، فأقبل جميع شيوخ القبائل ، وعقدوا مع حواش افندى معاهدات الدم ، وهكذا كثرت جراح السلم في جسمه ، وان لم تؤذه جراح الحرب حتى الآن .

ولما وصلت هذه الانباء الى امين بك ارسل تقاريرها إلى الخرطوم ، فانعم رؤوف باشا على حواش افندي برتبة الصاغ جزاء بسالته .

● ولم يتردد امين بك في أن يقوم على الفور برحلة طويلة في المناطق التي اخضعها حواش افندي فوجد النظام على اتمه والمحطات غاية في النظام والنظافة ، والزراعة تنتشر والأمن مستتب استتبابا عجيبا ، ، حتى انه عندما كان يمنح العبيد الحرية ، وينفي سادتهم الدناقلة إلى الخرطوم ، لم يقابل بتذمر يذكر . وقد حرر اربع مئة عبد ، فكان هذا العمل مثار فرح في كل مكان ، وحنق لدى الدناقلة ..

● وقد أقام حواش افندي في هذه المنطقة ثلاث سنوات يؤدي عمله ، ويذكر الصيدلي حسان ان مبتو كانت المركز العاشر من مراكز مديرية خط الاستواء . وهو مركز واسع الاطراف يتصل تقريبا ببلاد الكونجو ولايفصله عنها سوى لسان تعلوه الغابات عرضه عشرون كيلو متراً . وتمتلك الحكومة المصرية جزءا من هذا اللسان. وقد اخضع حواش افندي أقوام « أ كا » لغاية مسيرة خمسة عشر يوما في الغابة . ويعمر هذا المركز النيام نيام ، والممبتو ، فالأولون ضاربون في القسم الشمالي ، وفي جنوب مديرية بحر الغزال

اما المبتو فيشغلون جميع جنوب المركز لغاية حدود الغابة . وأهم طعام هـذه المناطق الموز ولديهم منه غابات ، ويزرعون أيضا الذرة الصفراء ، والبيضاء ، غير انهم لايزرعون منها إلا قليلا ، بحيث لايكفى محصولها إلا لصنع المريسة. وتستدعى زراعة الذرة البيضاء قليلا من العناية ، ومع هذا تأتى بمحصول يزيد عشر مرات على محصول الذرة الصفراء. ويرجع الفضل فى استيراد ذلك النوع هناك إلى نشاط حواش افندى منتصر المتواصل ، وتوقد ذكائه واصالة رأيه . وهو الذى أدخل كذلك زراعة أشـجار البرتقال والليمون ومختلف أنواع الخضر والتبغ الذى استحضر بذورها من القضارف من أعمال مديرية كسلا .

ومع أن الحيوانات نادرة الوجود فى هذا المركز ، فان الأهالى لايمتنعون عن الاستمتاع بأكل لحومها . ورغما عن الصرامة والشدة التى تستعملها الحـكومة، فان هؤلاء الأهالى لا يقلعون عن أكل لحوم الانسان .

وكانت القوة النظامية التى تحت قيادة حواش افندى فى هذه المنطقة ٧٠ رجلا من النظاميين و ٧٠ من المتطوعين أو الخطرية ، و ٣٠ من التراجمـة . ويجند العساكر النظاميون من بين الأهالى ، وتقدم لهم الحـكومة الـكساء والغذاء ، وتعلمهم أصول الحرب ، وتصرف لـكل منهم ٢٠ قرشا فى الشهر . أما المتطوعون فيتقاضى الفرد منهم ١٠٠ قرش ويلبس ويأكل على حسابه. وأما التراجمة فيتقاضى الفرد منهم ٢٠ قرشا غير طعامه وسلاحه ويكلفون بحراسة البريد والمواصلات (١)

ويقدر عدد سكان مديرية خط الاستواء بـ ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، خضع للحكومة خضوعا تاماً نحو ثلثهم والباقون كانت تجرى عليهم تجارب الاستقرار والرضوخ للقوانين.

---

(١) كانت جملة مرتبات الجنود فى المديرية كلها ٥١٠٠ جنيـــه سنويا . وكان راتب الحـكمدار (أمين بك) ٦٠٠ جنيه والقائد ٢٦٠ جنيه . والقاضى ١٢٠ جنيـه . ورواتب الموظفين المدنيين ٤٣٠٠ جنيه . ورواتب موظفى القسم الطبى ٢٠٠ جنيه . وجملة ميزانية المرتبات ١١٠٤٠ جنيها سنويا ، وكانت تصرف فى معظم الاحوال عينا لا نقداً . وبعد صرف مايوازى هذا المبلغ كان يتوفر لخزينـة المديرية نحو ٥٠ الف جنيه سنويا .

وهذا نجاح كبير لحكم مصر فى هذه المناطق التى تزيد مساحتها على مساحة مصر نفسها، وتعد من أخصب بقاع الدنيا لتوفر الماء فيها بكثرة لا مزيد عليها، ماء المطر، وماء روافد النهر، والنهر نفسه.

وقد ذكرنا أن أمين بك أدخل زراعة البن والأرز، ونضيف أنه حسن زراعة التبغ، وأدخل زراعة القطن. ويذكر سمو الأمير عمر طوسون: «أن نجاح هذه الزراعات الباهر يرجع إلى مابذله حواش افندى منتصر من عظيم المساعدة والهمة التى لا تعرف الكلال أو الملال. وقد أفاد القطن فائدة عظيمة جداً فيما بعد، وذلك عند ما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجنودها هم أنفسهم صنع ملابسهم عند انقطاع المواصلات مع الخرطوم»

● وعلى الرغم من النجاح البالغ الذى وصل اليه حواش افندى فى حكم هذه المنطقة إلا أن ظروف السودان بعد تفاقم ثورة المهدى، وظروف مصر بعد إخفاق الثورة العرابية واحتلال الانجليز لها.. كل هذا جعل أمين بك ضيق الصدر، كثير الشك، يسمع للوشاة، ولا يطمئن لأحد غيرصاحبه الصيدلى اليهودى فيتا افندى حسان. وقد زار أمين بك الخرطوم، وظل أياما لا يتمكن من رؤية حكمدار السودان الجديد عبدالقادر باشا حلمى، لشدة انهماك الحكمدار فى مراجعة الموقف المتخلف عن اخطاء سلفه، ودرس الخطة للحد من خطر الثورة المهدية. وكان عبدالقادر باشا حلمى من أعظم رجال الشرق كفاية ومقدرة و بعد نظر، وسنورد شيئا عنه فيما بعد. فلما قابله وتلقى تعليماته عاد وقلبه ممتلىء هماً من المستقبل. وقد تعقدت شبكة من الوشايات حول حواش افندى حملت أمين بك على أن يصدر أمره بنقله من مركزه الهام، إلى قيادة الجنود فى «دوفيليه» وكما هى عادة حواش افندى، تطلع إلى المناطق القلقة، وضرب عليها بيد من حديد، فكانت مثالا للهدوء والنظام. فى حين أن منطقة «رول» لم تكف ثوراتها منذ غادرها حتى اضطر أمين بك إلى أن يستدعى نجدة من جاره لبتون بك حكمدار بحر الغزال.

— ٢ —

فى مهب الريح

● فى هذا الوقت كانت ثورة المهدى قد بلغت أوجها ، ووصل نشاطه فى بث الدعوة وتأليب الشعب إلى مديرية خط الاستواء . وقد كتب إلى أمين بك كتابا قال له فيه ما ملخصه :

« من محمد احمد رسول الله المهدى إلى الأمير محمد الأمين أمير خط الاستواء . إنى مرسل اليك الأمير كرم الله ، القائم مقامى ، فسلمه مديريتك ، وأت عندى فى البقعة الطاهرة لأضمك إلى جماعتى . فاذا أطعتنى كفلت حياتك ، وتحاشيت إهراق الدماء على غير طائل . أما إذا عصيت ، فعليك تقع جريمة ضياع رجالك ، وضياعك أنت نفسك وما حصل لغيرك فيه عبرة لك وموعظة للتبصر والتروى فى عملك . ولقد رأيت أن جميع المديريات حتى أقواها مثل كوردفان وسنار سقطت فى يدى . وأنت تعلم من غير شك كيف كانت عاقبة راشد بك ، ويوسف باشا الشلالى ، وهيكس باشا . وهذا لا بد أن يقنعك أنه بفضل معونة الله العلى لا يقدر أحد أن يقاوم الانصار . وأنت ليس لديك القوة الكافية لتستطيع مصادمة جيشى »

كما جاءه من كرم الله كتاب آخر يخبره فيه أنه استولى على مديرية بحر الغزال ، وأرسل له كتابا من لبتون بك كتبه بالعربية يدعوه فيه للتسليم . ولكنه كتب بالانجليزية عبارة معناها : « اعمل ما تراه صالحاً » .

وعقد أمين بك مجلساً من كبار موظفى المديرية حضره قائد الجند ، ومأمور السلخانة ومأمور المخازن ، وعثمان افندى أرباب سكرتير المديرية الثانى ، وهو ابن عم المهدى ، وناظر المدرسة ، وقاضى المديرية ، ورئيس قلم المستخدمين ، ورئيس الكتبة ، ورئيس الحسابات .. الخ .

وأخبرهم أمين بك برسالة المهدى ، وبدت الرغبة من القاضى الشيخ عثمان حميد فى التسليم ، وأيده بقوة عثمان أرباب — طبعا — وأما فيتا حسان ، فاعتذر عن ابداء الرأى لأنه طبيب لا يفهم فى السياسة .

فقال أمين بك انه مستعد للذهاب إلى معسكر الأمير كرم الله ، فلم يوافق على مرافقته غير القاضى وناظر المدرسة ، وابن عم المهدى . ثم وافق فيتا حسان على مرافقته . وقرر أمين بك السفر بعد أيام إلى الشمال .

● ولكن مالبث وهو يفكر فى هذا المشكل الخطير ، أن قرر أن يسافر عن طريق الجنوب إلى أوغنده مع الموظفين وأن يترك الجنود السودانيين فى بلادهم . وماعرف عنه هـذا العزم حتى تضخم وتحرف ، وذاع أنه سيبيع السودانيين « لكباريجا » ملك أونيورو لكى يسمح له بالمرور فكان لهذه الأنباء الكاذبة أسوأ وقع فى أنحاء المديرية إذ بدأت عرى النظام تتفكك .

وفى هذا الوقت كانت تأتيه من أطراف المديرية أنباء سيئة . فقائد « رول » هرب إلى المهدى . وحواش افندى أرسل يطلب مدداً ، لأن الاهالى نشروا راية العصيان فى « دوفيليه » . فكتب أمين بك يقول له :

« إنى لا أستطيع أن أبعث لكم بامداد لعدم وجود جنود احتياطية تحت يدى . وان لديكم الجنود الكافية . وانكم علاوة على ما ذكر ، قد قمتم فى أصعب الظروف وأحرج المواقف بأعباء ما كلفتم به خير قيام . فيجب أن تدافعوا بنفس القوات التى تحت أمركم ، ويدعونى الأمل إلى الاعتقاد بأنكم فى هذه المرة أيضاً تستطيعون بما جبلتم عليه من علو الهمة وحسن التدبير أن تتغلبوا على جميع ما يصادفكم من المصاعب . وإنى فوق ذلك قد كتبت إلى حامية «لاتوكا» باخلاء منطقتها والذهاب لمعاونتكم والأخذ بناصركم فيلزم أن تقاوموا إلى أن تصل اليكم الحامية المذكورة . ولا بد أن تتغلبوا بمساعدتها على كل أولئك الزنوج »

وما أن شاع أن أمين بك يتردد بين الشمال والجنوب وانه لم يقرر المقاومة حتى فقد احترامه بين سكان المديرية ، حتى أن أحد الكتبة ذكر وهو يطالب بنهب أحد المخازن موجهاً القول لأمين بك :

« لقد مضى وانقضى زمانك ، وأتى زمان الأمير كرم الله ، وليس لك أن تعطى أوامر هنا بعد اليوم !! »

وزاد فى تفاقم الحال ، أن حريقاً شب فى مدينة « لادو » العاصمة أحرق نصفها..

ولكن أمين بك بدأ يفيق من كل هذا ، فقرر أن يسافر وفد إلى الامير كرم الله على رأسه القاضى وعثمان أرباب ، ليعلن خضوع المديرية له . وكان سفر هذا الوفد فى ٧ يونيو سنة ١٨٨٤

● واستدعى أمين بك أقدر ضابطين تحت إمرته، وهما الصاغين حواش افندى منتصر ومرجان افندى الدناصورى . ولو أنه فعل هذا من أول وهلة لما حلت به المتاعب التى سبقت الاشارة اليها .

ولما قدما، وعرض عليهما الأمر قررا فى حزم واصرار اعداد المديرية للدفاع المصمم وعدم التسليم بأى حال للمهدية . وذكر حواش افندى أن فى الامكان حشد ٣ آلاف جندي مسلحين تسليحاً حسناً ويمكنهم صد أى غارة على المديرية . كما اقترح أن يلغى التقسيم الادارى القديم ، وأن تنقسم المديرية إلى قسمين شمالى ، يتولى هو الدفاع عنه ، ومواجهة أى هجوم من جيوش المهدى ، وجنوبى يتولاه زميله مرجان افندى .

وافق أمين بك على كل هذا ، إلا أنه عين حواش افندى قائداً للجنوب بدلا من الشمال ، ومع ذلك فقد أصبح كل شيء واضحاً .. وتتلخص فى المقاومة.. المقاومة التامة.. لولاء المطلق للخديوى وحكومة مصر .

● ولم يطل الزمن على شروع أنصار المهدى فى النفوذ إلى مديرية خط الاستواء. بل ان الامير كرم الله ، كتب إلى امين بك يقول له انه فى طريقه إلى « لادو » العاصمة .

وجاءت الانباء بأن ١٦٠٠ درويش يهاجمون محطة «أمادى» وهى أقصى محطة فى الشمال الغربى لمديرية خط الاستواء .

وحسب الخطة السابقة ، كان الصاغ مرجان افندى الدناصورى ، يتولى القيادة فى هذه المنطقة . فلما لمح الدراويش عبر النهر ، أرسل طلائعه، فاذا بالدراويش يحسبون أن المحطة ، و بقية المديرية ستسلم لهم فور قدومهم حسب ما جاءهم عن أمين بك. وقد أحضرت حملة الدراويش كتباً من أميرها علقتها على رمح حتى يتسلمها رسل الحكومة . وكان رد مرجان افندى أنه أرصد رجاله وراء الاشجار، وأمرهم باطلاق النار على كل درويش يظهر فى الافق.. ثم أخذت المناوشات تتوالى بين الفريقين . وكانت الحكمة تقضى بأن يهاجم مرجان افندى معسكر الدراويش ، ويقضى عليهم ، ولكنه آثر أن يلزم خطة الدفاع ، وهى خطة سقيمة جداً ، إذ أن قوته كانت متفوقة جداً . فقد كان فى حوزته بضع مدافع، ومعه الف جندى نصفهم من الجنود النظاميين. ولما زار فيتا حسان المحطة مندوباً من قبل أمين لك تبين له من أول وهلة خطل الخطة المتبعة ، وقد أبدى مخاوفه لمرجان افندى ، وذكر به أن معسكر الدراويش يتزايد مع الزمن ، ومعسكر الحكومة يتناقص ، ولا بد من الهجوم . فلم يقر قائد المحطة هذا الرأى ، وطلب من حسان العودة من حيث أتى .

و يظهر مرة أخرى ، أن هذا المكان ، وهذا الموقف بالذات كان يحتاج إلى حواش منتصر .. يحتاج إلى ضابط باسل جرىء ، يعرف كيف يذهل عدوه بجسارته ، وسعة حيلته بصرف النظر عن عدد الجنود الذين تحت أمرته .

ولما وقف أمين بك على حقيقة الحالة فى « امادى » كتب إلى مرجان افندى يستدعيه للمشاورة ، وكان ينوى استبقاءه عنده وتعيين قائد آخر مكانه. وأحس مرجان بما تم ، فكتب إلى أمين بك رسالة وقعها مع ضباط الحامية يرجوه تركه فى مركزه .

وكان حواش افندى رابضا فى مركزه بدوفيليه يدبر أمر الجنوب كله ، وما دام قد فات هذا الضابط الشجاع أن يكون هو أول من يلاقى العدو ، فقد رأى من الفطنة

والخير ، أن يعد مركزه « دوفيلية » لكي يكون معقل المقاومة الأخير فى المديرية ، اذا ما سقطت جميع المراكز الشمالية . ولهذا أفعم مخازنه بالحبوب والمؤونة وحشد فى زرائبه أكبر عدد ممكن من رؤوس الانعام . كما ألزم الأهالى ، والجنود أيضا ، بزراعة القطن على أوسع نطاق ، ثم جنى أول محصول منه ، ودرب جنوده على الغزل والنسج تحت اشراف رجل من دنقله ، واذا بأمتار « الدمور » تظهر وتتكاثر ، واذا بأهل المنطقة ، ثم أهل المديرية جميعا يلبسون من دمور حواش افندى ، يستوى فى هذا المدنيين والعسكريين.

ونعود إلى الشمال ، فنقول ان محطة امادى تعرضت لهجوم شديد قام به الأمير كرم الله بنفسه ، وانتهى الهجوم بضرب حصار محكم على الحامية ومنع وصول أى مدد أو مؤونة إليها . ولم يكن تموين الحامية كافيا ، فما لبث أن نفد على عجل ، وأخذ الجنود يغلون جلود الثيران ثم يطعمونها . ولما نفدت جميع الجلود ، أخذوا ينتزعون جلود أحذيتهم ويطبخونها ، ولم يتركوا شيئا يمكن أن يؤكل إلا أكلوه حتى القش كان من بين أغذيتهم.

ولما اشتد الكرب على الحامية ، استدعى أمين بك - ولكن متأخرا - حواش افندى ، لكى يسافر على عجل إلى الشمال ، ويفك حصار الحامية ، وينقذها من هلاك محقق . ولكن قبل أن يتحرك حواش افندى لأداء مهمة ، كان اليأس قد بلغ من الحامية مبلغه فشقت موجتان منها الطريق خارج الحصار بعد أن تكبدت بعض الخسائر ، وكبدت الدراويش أضعاف خسائرها . وكان من بين المنسحبين ضابط من أبسل الضباط الشبان هو سليمان افندى سودان على رأس ٣٠٠ من الجنود . وكانت وجهته محطة ممبتو ، وقد أغضب نجاح سليمان افندى الأمير كرم الله ، فأوفد وراءه قسما كبيرا من جيشه لمطاردته ، ولكن الدراويش لم يدركوه إلا بعد أن انضم إلى حامية ممبتو ، ثم كروا راجعين على مطارديهم ، وهجموا عليهم هجوما رهيبا ، أفنى معظمهم . والعدد القليل الذى رجع إلى الأمير كرم الله أقنعه أن جند الحكومة قادمون إليه كالاعصار ، فما كان منه إلا أن عجل باحراق محطة «امادى» ، وانسحب عائدا من حيث أتى .. إلى مديرية بحر الغزال.

وقد قتل فى هذا الحصار عدد من الضباط منهم مرجان افندى ، وكان يمكن للحامية أن تظفر بانتصارات أكبر ونتائج أنجع ، وتبقى على أمادى ، لو أنها أخذت بخطة الهجوم المتصل على العدو . ومع هذا فلا ينكر مطلقا أن جميع أفرادها صبروا صبرا عجيبا ، ولم يفكروا مطلقا فى التخلص من أهوال الجوع والحصار بالتسليم .. فهذه المعنوية العالية تسجل بالفخر للجميع ، ضباطا وجنودا .

● وفى هذا الوقت عقد أمين بك مجلس حرب من كبار موظفيه ، وقر قرارهم على سحب الحاميات ، واخلاء خط النهر ، والانسحاب إلى الشرق . وكان من مؤدى هذه الخطة تدمير الباخرتين « الخديوى ونيانزا » واتلاف جميع المؤون التى لا يمكن نقلها .

وكان حسان افندى فى طريقه إلى زيارة مركز دوفيليه ، فكلفه أمين بك بأن يبلغ حواش افندى ما استقر عليه الرأى ، ولكنه طلب منه ألا يضغط عليه أكثر مما يجب لتنفيذ هذه القرارات .

وما أن وقف حواش افندى على هذه القرارات حتى صاح فى حالة تهيج شديد ـ أو هكذا وصفه فيتا حسان ـ : « ان تحطيم البواخر والسفن ، وابادة المستودعات بما فيها من كميات الذرة البالغة ٣٠٠٠ أردب ، وترك الحقول الخصبة بمزروعاتها ، وتأليف قافلة من عشرة آلاف نسمة ثلثاها من النساء والأولاد ، وزجهم فى بلاد مجهولة ليتركوا على قارعة الطريق طعمة للحيوانات المفترسة ، كل ذلك من المستحيلات ، بل هو جنون صرف . واننى أعارض فى ذلك بكل ما أوتيت من قوة » .

وعاد أمين بك إلى مشاورة أعوانه ، فقر رأيه على ضرورة اخلاء العاصمة «لادو» والانسحاب جنوبا الى «وادلاى» ، وهى تقع إلى الشمال قليلا من مدخل بحيرة البرت .

وكانت هذه الخطة سليمة بالنسبة لمركز الحكم ، إذ أن تكدس النساء والأطفال فى « لادو » مع احتمال تعرضها للحصار سيوقعها فى حرج المجاعة الذى وقعت فيه «أمادى» .
ولكن ضباط لادو وجنودها اعتذروا عن الجلاء ، وقرروا البقاء لمواجهة جنود المهدى

إذا هم أقبلوا ، ولكنهم رجوا من أمين بك أن ينسحب هو لكى يدبر لهم أمور تموينهم وامدادهم .

وازاء هذه الروح العالية والحماسة التامة فى القيام بالواجب ، لم يسع أمين بك إلا أن يقر هذه الرغبة وأن يسافر هو إلى الجنوب . فصحب الموظفين المدنيين و بعض النساء والأطفال ، وأخذ ينسحب جنوبا . وفى كل محطة حل بها كان يحصل منها على التموين اللازم ، ويرسله شمالا إلى « لادو » ..

● وجاءه وهو فى الطريق خطاب غريب ، باسم الضابط الثانى فى « دوفيليه » وهو سليم افندى مطر . فقد عرفت حامية دوفيليه خطة الانسحاب نحو الشرق التى رفضها حواش افندى ، فتطوع سليم هذا بأن ينفذها خلافا لرأى رئيسه ، وطلب من أمين بك أن يوكل اليه القيادة . فاستشاط أمين بك غضبا من هذه الدسيسة ، وأرسل كتاب سليم مطر إلى حواش افندى ، وطلب منه حبسه سبعة أيام ، هو ومن اشترك معه من المدنيين فى هذا العصيان ، لان سليم هذا ضابط زنجى لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وكان لابد من اشتراك بعض المدنيين معه فى فكرته . ولم يتردد حواش افندى فى حبس سليم افندى الذى قبل العقوبة مستسلما

وذكر فيتا حسان فى سبب هذا الاستسلام :

« ان الزنجى لا تؤثر فيه أصعب الكلمات وأشدها ، وان الذى يؤثر فيه ما كان مسطوراً ... ويظهر أن الورقة هى عفريت الجزء الاكبر فى نظر هؤلاء الزنوج !! »

وأرسل أمين بك وهو فى الطريق إلى الجنوب يستدعى حواش افندى ، و بعد تردد وافاه ، وأحاطه المدير بعطف وعناية بالغين ، ورقاه إلى رتبة البكباشى جزاء بسالته ، ولكى يستوى فى المرتبة هو والبكباشى ريحان افندى قائد الأورطة الأولى فى « لادو » . وقد جعلت بلدة « كيرى » الحد الفاصل بين منطقة نفوذ ريحان افندى الشمالية ، ومنطقة نفوذ حواش افندى الجنوبية .



« البكباشي حواش افندى منتصر »

وكان أهم ما يقلق بال حواش افنـدى هو دسائس الموظفين المدنيين ، فلما وصـل أمين بك إلى دوفيليه مقر قيادة المنطقـة الجنوبية أقام فيها عشرة أيام وعند مغادرته لها جمع جميع الموظفين ، وقال لحواش افندى على مسمع منهم :

« لقد حاق بي من الهم والأذى ما فيه الـكفـاية . وليس لدى متسع من الوقت لاشتغل أكثر مما مضى بدسائس وسخافات الموظفين . فأنا أفوض لك الأمر فى كبح جماحهم ، وعدم خروجهم عن حد الواجب وأترك لك مطلق الحرية ، وأؤيد سلفا ما تتخذه من التدابير . . »

وفى ١٠ يوليو سنة ١٨٨٥ ، وصل أمين بك إلى عاصمته الجـديدة « وادلاى » ، حيث أقام بهـا عامين كاملين . وكان هم المـدير وهو على مرأى بحيرة البرت ، أن يمد نفوذ الحـكومة المصرية إلى ما وراء البحيرة ، ويقيم فيها محطاته ، وذلك ليوسـع منطقة انسحابه إذا ضغط المهديون ، كما يزيد فى ساحة مديريته العظيمة التى شغف بهوائها العليل وخصبها النادر ، ومناظرها الفاتنة .. وكان يحتاج فى مد نفوذ الحـكومة جنوبا إلى مساعدة الأورطة الأولى العسكرية فى « لادو » وكان يتمنى لو أنها انسحبت وأخذت مراكزها جنوب خط الاستواء ، وبذا يكون حواس افندى هو قائد الشمال .. ولـكن شـغف البـكباشى ريحان ، وجنوده بلقاء المهديين والانتقام منهم لمـا حدث فى السودان كله ، عمل أمين بك على أن يتريث وينتظر ماستأتى به الحوادث المقبلة .

ولـكن ملوك الزنوج فى هذه المناطق كانوا يرسلون رسلهم إلى أمين بك، ويطلبون حاميات مصرية تقيم عندهم . وقد نفذ أمين بك أحد هذه الطلبات وأرسل ١٥ جنـديا وضابطين إلى بلدة « فودا » التى تقع شمال فويرا بين بحيرتى فيكتوريا والبرت .

ويذكر فيتا حسان ، أن معظم بلاد هذه المنطقة تبدأ أسماؤها بحرف الفاء ، مثل « فاديك . فويرا . فاتيكو . فالورو . فابو . .. الخ » وذلك لأن شيخاً عربياً ، اسمـه الشيخ فرج مر بهذه المناطق من سنين طويلة ، وأوصى السكان بأنه سيأتى يوم يفـد فيه إلى أرضهم قوم بيض ، فعليهم أن يعاملوهم بالحسنى ، وأن ينظروا اليهم كاصـدقاء لا كأعداء ، وأن يعملوا على راحتهم وتنفيذ أوامرهم . وحتى لاينسى الاهالى هذه الوصية على مضى الزمن ، أسموا كثيراً من بلدانهم أسماء تبدأ بحرف الفاء ، وهو أول اسمه . والمسنون من أهل هذه المنطقة يذكرون الشيخ فرج ويذكرون وصيته !

● وانتهز أمين بك فرصـة سفر الدكتور جونـكر [1] مغادراً المديرية عن طريق الجنوب — ماراً بمملـكة أونيورو التى يحكمها الملك كباريجا ، ثم باوغنده — ثم إلى المحيط الهندى ، فاوفدمعه فيتا حسان لـكى يمثل الحـكومة المصرية فى منطقة أونيورو . وقد وصل المندوب إلى بلدة « امبارا » عاصمة أونيورو ، بصحبة رسله ، وهناك كانت توجد مظاهر الحـكم المنظم، إذ كان لدى الملك ١٥٠٠ جندى دربهم وأ كل زعيمهم ٣٠ جنديا مصريا هربوا من المديرية أثناء حكم غوردون لها . وحمل فيتا معه الهدايا إلى كباريجا ،

---

(١) كانت نقود الدكتور جونـكر قد نفدت ، فلما علم حواش افندى بذلك وضـع تحت تصرفه ٧٠٠ ريال ،وعده الطبيب باعطائها لأسرته عند وصوله إلى القاهرة ، وكان لهذه المعونة التى تدل على الشهامة أجل وقع لدى الجميع . وقد أمده أمين بك بالباخرة الخديوى حيث شقت به وبفيتا حسان بحيرة البرت نيانزا ، أقام الدكتور شهرا عند الملك كباريجا ، ثم رحل إلى أوغندا ، ومنهـا رحل إلى زنزبار ، ثم أبحر إلى عدن ووصل السويس فى ٩ يناير سنة ١٨٨٧ ، بعـد أن انفق فى طريق العودة منذ قيامه من واذلاى مقر أمين بك عاما وتسعة أيام !!

وكانت جملة إقامة الدكتور جونـكر فى مديرية خط الاستواء ثمانى سنوات .

وأهمها العاج الذى لايوجد فى جنوب بحيرة البرت ، كما حمل معه رسائل من أمين بك للحكومة المصرية لكى ترسل إلى مصر عن طريق أوغندا .

وكانت توجد هناك رسائل واردة من الحكومة المصرية ، أرسلها نوبار باشا إلى أمين بك ، فأحضرها فيتا ، وأرسلها على عجل إلى « وادلاى »

وفى « أونيورو » علم فيتا بثورة عرابى ، وباحتلال الانجليز لمصر ، و بسقوط الخرطوم ومصرع غوردون . وكانت كل هذه الأنباء جديدة على حكام خط الاستواء على الرغم من أن بضعة سنين كانت تفصل أول هذه الحوادث عن آخرها .

وقد أدهش فيتا حسان نظام الرقابة الدقيق الذى وضعه كباريجا فى مملكته ، والذى لا يقل دقة عن أعقد نظم الجستابو . فحدث مرة انه اشترى دجاجة دفع فى ثمنها ٥ مليمات أكثر من السعر المحدد ــ والأسعار هناك رسمية ــ فما لبث أن أقبل ترجمان الملك ورد له المليمات الزائدة ، طالبا منه أن يراعى الأسعار المقررة حتى لاتضيع نقوده ، وحتى لايضطرب نظام السوق . وقد وقعت على التاجر عقوبة صارمة لبيعه دجاجة « فى السوق السوداء[1] » !

ومما ذكره فيتا حسان ان هذه المنطقة هى أغنى المناطق بالبقر ، فالملك وحده يملك قطعانا تحصى بمئات الألوف من الرؤوس . والسبب فى ذلك ان الملك حرم ذبح أى بقرة مالم ينضج عقمها . ولا بد من استئذانه شخصيا قبل ذبح أى بقرة ، ومن يخالف التعليمات تصادر أملاكه ، وتباع أسرته فى سوق الرقيق . وكان ثراء المنطقة بهذه الأنعام سببا فى تكرار اغارة أوغنده عليها . وقد حدثت غارة اضطرت فيتا إلى أن يحزم متاعه و يرحل على عجل ، وما أن غادر « عاصمة » كباريجا ، حتى وجدها طعمة لنيران هائلة ، فمساكنها كلها من القش . وعلم بعد ذلك أن جيش أوغنده غنم ١٢٫٠٠٠ رأس من البقر .

وفى عودة فيتا ، وجد عند مدخل بحيرة البرت جزيرة يسكنها صياد واحد من الزنوج

---

(١) كان سعر الأمة من ٣٦٠ إلى ٤٥٠ قرشا . وسعر الصبى من ٢٤٠ إلى ٣٠٠ قرش . وسعر البقرة من ١٢٠ إلى ١٥٠ قرشا . وثمن العجل من ٣٧ إلى ٤٥ قرشا . وثمن الخروف من ٩ إلى ١٢ قرشا حسب جدول التسعير الرسمى !!

وتنبه إلى خطورة مركزها من الناحيــة الحربية ، فأقام فيها وطلب مددا حصنها به ، وجعلها نقطة عسكرية دائمة . واسم هذهالجزيرة « تونجوزو »

● ولنعد إلى « وادلاى » فاننا نجد أمين « باشا » اذ ورد له مرسوم بالانعـام عليه بهذه الرتبة ،ساخطا غاضبا لما ورد له من نوبار باشا ، فقد كتب له يقول :

القاهرة فى ١٣ شعبان سنة ١٣٠٢ (٢٧ مايو سنة ١٨٨٥)

« إلى أمين باشا قائد جنود خط الاستواء

« ان حركة الثـورة التى شبت فى السودان اضطرت حكومة صاحب السمو إلى اخلاء تلك الأراضى . و بناء على ذلك لا نستطيع أن نبعث لـكم بأى امداد . ومن جهة أخرى نحن لا نعرف بالتدقيق موقفكم أنتم والجنود الآن . بل وليست متوافرة لدينا الوسائل لامدادكم بما يلزم من الارشادات بصدد الخطة الواجب اتباعها . وعلاوة على هذا وذاك إذا طلبنا منكم ارسال تقرير مفصل عن الموقف لنبنى عليه ما نزودكم به من التعليمات فان ذلك يستغرق زمناً طويلا ، وقد يكون ضياع هذا الوقت فى غير مصلحتكم.

« والغرض من هــذا الجواب الذى سوف يصل اليكم عن طريق زنزبار بواسطة السير جون كيرك قنصل بريطانيا فى هذا البلد الأخير هو منحكم الحرية التامة فى العمل. فاذا رأيتم أن الأضمن لـكم ولجنودكم الانسحاب والرجوع إلى مصر ، فالسير جون كيرك وسلطان زنزبار يكتبان لمختلف رؤسـاء قبائل الزنوج الضاربين فى الطريق ، و يبذلان ما فى وسعهما لـكى يسهلا لـكم الانسحاب .

« ومرخص لـكم الحصول على ما يلزمكم من العملة . وأكرر لـكم القول ، وأعيده بأن لك مطلق التصرف بما يناسب مصلحتكم ومصلحة الجنود . هــذا وفى وسعنا أن نفيدكم أن الطريق الوحيد الممكن عبوره فيما إذا أردتم مبارحة غوندوكورو هى طريق زنزبار . ورجاؤنا هو عند ما تستقرون على رأى أن تشعرونا فى الحال بما تقررونه .

« وسيكتب لكم أيضاً السر جون كيرك ايحيطكم بالوسائل التي سيحاول اتخاذها ليسهل لكم الانسحاب عن طريق زنزبار »

رئيس مجلس النظار.

(نوبار)

وقد استغرق وصول هذا الخطاب نحو عام حتى وصل من القاهرة إلى أمين باشا.

غضب أمين باشا، لأنه وإن كان قد أنعم عليه بالباشوية، إلا أن رسالة نوبار باشا لم تشف عن عرفان الحكام في القاهرة لمدى الجهود الهائلة التي يبذلها هو وأعوانه في سبيل الاحتفاظ بالحكم المصري في وسط افريقية، وفي وسط نيران الثورة المهدية، وثورات الزنوج المحلية التي لا تنقضي. ثم هم يقترحون العودة عن طريق زنزبار، وكأنما يحسبون أن هذه الرحلة نزهة مثل نزهتهم في القاهرة وضواحيها..

● ولم يكن أمام أمين باشا سبيل إلى تجمع قواته والاستعداد لاختراق الجنوب ثم الشرق إلى المحيط الهندي إلا أن يقنع فرقته الأولى المعسكرة « بلادو » والتي يقودها البكباشي ريحان افندي بالانسحاب. وبينما هو يفكر في وسيلة اقناعهم باخلاء مراكزهم، إذ بالأنباء تأتيه بأن ريحان افندي توفي. والزاد فقد أوكاد من محطة لادو، وأن ضباطا من أفراد الفرق قادوا مئات من الجند وذهبوا لاعادة المحطات التي خربها الدراويش في «مكراكا» وغيرها. وكان من غاياتهم أيضا الحصول على حبوب، إذ أن قبائل البارى لم تزرع في هذا العام حبوبا، وهي القبائل القوية التي تقع في أرضها محطة « لادو » والتي كانت تثور كل حين وحين فتهدد الحامية بأعنف الأخطار.

وجاءه أيضا أن الموظفين في لادو — المدنيين منهم — يتهمونه، أي أمين باشا، بأنه تركهم لكي يلتهمهم المهدي واعتصم هو بمركزه المنيع في وادلاي، مع أن واجبه أن يكون في الخط الأمامي.. الخ. كما اتهمته الرسائل الواردة من الشمال أنه يمنح كل تشجيعه ومعونته لحواش افندي لأنه مصري..

وازاء هذه القلاقل، وبلبلة الفكر لم يكن أمام أمين باشا إلا أن يوفد صاحبه

الوقفيتا حسان إلى «لادو» لكي يقرأ على أفراد القوات الشمالية رسالة نوبار باشا ، كما أنه رقى اليوزباشي أحمد افندى حمد إلى رتبة البكباشي مباشرة وطلب منه المسير في رفقة حسان لكي يسلمه القيادة العسكرية .

وأقام فيتا حسان فى مهمته ستة أسابيع تأكد فيها من أن كل الإذاعات التى كانت تشاع عن تمرد جند الشمال لا نصيب لها من الصحة ، والجميع مطيعون لأمين باشا ، إلا أنهم يخافون من حواش افندى قائد الجنوب خوفا شديداً لقسوته فى تنفيذ النظام. ونصح حسان افندى لأمين باشا أن يطمئن جنود الشمال بنقل حواش افندى مؤقتا من مركزه حتى يتم له سحب الحاميات إلا أن الباشا رفض هذا الرأى إذ لم ير أى غبار على تصرفات حواش افندى .

ويظهر أن حواش افندى سمع بمطالب الأورطة الشمالية ، فكتب إلى أمين باشا يعرض عليه أن يعفيه من قيادته فى دوفيليه ، وأن يستقدمه عنده فى وادلاى .

وفى هذا الوقت — أوائل عام ١٨٨٧ — جاءت الأنباء بأن النار شبت فى محطة لادو ، مقر الفرقة الشمالية ودمرتها تدميراً تاما ، فانتقلت الحامية ، وجميع السكان إلى بلدة الرجاف ، إلى الجنوب قليلا من لادو ، ورحل بعض الاهالى إلى محطة مكراكا ، وتم هذا كله بمنتهى النظام ودون أى ذعر .

وفى شهر ابريل رأى حواش افندى أن يزور أمين باشا ، فاستقل الباخرة « الخديوى » وأبحر إلى وادلاى ومعه ٣٠ جنديا وقاذفة لهب ، و بعض المؤونة. وتصادف أثناء قدومه أن كان رسل الملك «كباريجا» موجودين فى وادلاى ، فأمر أمين باشا بأن يقود حواش افندى استعراضا أمامهم يؤثر فى نفوسهم تأثيراً بالغا ، لكى ينقلوا إلى ملكهم أن الحكومة ماتزال بخير . وكان أمين باشا قد استقدم أربعة صبيان من عند كباريجا ، لكى يعلمهم اللغة العربية ، وقد زارهم هؤلاء الرسل ، وحملوا اليهم تحيات الملك .

و بعد أن أقام حواش افندى أسبوعين عاد إلى مقر قيادته وهو يتمتع بكل ثقة الحكمدار

● ولكثرة الاشاعات والانباء عن الفرقة الاولى ، ومظاهر تمردها ، وكثرة دعوتها لأمين باشا كى يزورها ، وما وصل اليه من أن حامية الرجاف تمردت فعلا ، قرر أن يرحل إلى الشمال . وقد وجد البكباشى حامد افندى فى انتظاره عند حواش افندى وعلم منه على وجه التفصيل أنباء الشمال ، ثم استصحبه معه .

وكان الباشا يقابل فى جميع المحطات بحفاوة وحماسة زائدتين ، حتى اذا وصل إلى موجى ، وآوى إلى فراشه ، أيقظه قبل الفجر البكباشى حامد افندى ، وطلب منه أن يرتدى ملابسه فورا ، وأن يغادر المدينة ، لأن قائد مكراكا ـ وهو أحد المتمردين ـ واسمه على افندى جابور ، يقود قوة من زهاء ألف رجل ، يريد القبض على أمين باشا ، وقد أصبح قريبا من موجى . ولم يفلح أمين باشا فى تهدئة روع حامد افندى الذى توسل إليه بكل وسيلة أن ينفذ طلبه ويرحل إلى الشمال تاركا متاعه .

وبعد قليل صحت الاشاعة ، وأقبلت القوة الثائرة فلم تجد أمين باشا ، فاستولت على متاعه . وبعد ثمانية أيام ندم قائد القوة على ما فعل ، فأرسل إلى الباشا متاعه ، مع رسالة يقول له فيها انه لم يأت إلا للقيام بواجب التحية ، وعمل التشريفات العسكرية الواجبة !!

وما لبث أمين باشا أن عاد من هذه الرحلة التفتيشية ، وكانت ذات أثر كبير ، واستقر به المقام عند حواش افندى فى محطة دوفيليه حيث قضى فيها بضعة شهور .

● وفى أول عام ١٨٨٨ تابع أمين باشا رحلته إلى الجنوب ، لتفقد جميع المحطات ، ولتسقط أنباء حملة ، قيل ان الحكومة الانجليزية أعدتها « لانقاذه » من مديرية خط الاستواء ، وجعلت الرحالة ستانلى رئيسا لهذه الحملة .

وجاءته الأنباء بأن ستانلى يضرب فى الغابات القريبة ، فقرر أمين باشا أن يقوم برحلة « لانقاذ » منقذه ستانلى . وبعد بحث طويل وصلت من احد مرافقى ستانلى ، واسمه « جفسن » رسالة يقول فيها إن التعب أضناهم وهم يبحثون عن أمين باشا ، وقد بليت ملابسهم ، ويعينون آخر نقطة وصلوا إليها على بحيرة ألبرت .

وأرسل أمين باشا ضابطا مصريا اسمه سليمان افندى لـكى يذهب لنجدة «جفسن» . وقد دون هذا الانجليزى المنهك القوى الممزق الثياب كلة فى مذكرته عن سليمان افندى قال فيها : « ان سليمان افنـدى رجل مصرى جميل المنظر يلبس كسوة عسكرية بيضاء لا عيب فيها !! » . أجل .. فقد كانت مشكلة الـكساء من أهم ما يشغل بعثة الانقاذ .

وأبحر امين باشا على الباخرة الخديوى ،إلى حيث كان يقيم هذا الانجليزى التائه . و بعد التحية ، تسلم منه رسائل ستانلى ، الذى كان يقيم فى نقطة عند جنوب البحيرة .

وكان ستانلى قد اخترق الـكونغو فى طريقـه إلى بحيرة البرت ، و وصف فى رسالة رحلته ، ثم ضمنها البيانات التالية :

١ — لم يحضر معه جنودا ولا تموينا كافيا لأمين باشا .

٢ — ان الحـكومة المصرية تخلت « نهائيا » عن السودان، وهو يحمل معه لأمين باشا رسائل من الخديوى ومن نوبار باشا ، يطلبان منه اخلاء المديرية !!

٣ — واذا لم يبادر أمين باشا ومن معه فى العودة مع ستانلى ، فلا ينتظر قدوم أحد « لانقاذه » . ولما وقف أمين باشا على هذه المعلومات طرح الورق أرضا ، وقال لمن معه بصوت حزين : « انتظرت حملة ستانلى بفارغ الصبر ، لأنى كنت أؤمل فى الحصول على امداد وذخيرة . وقد حملت العناء الجم فى سبيل امتداد المديرية ، و بسط حدودها ، وتنظيمها ، وانشاء محطات فى كل مكان واخضاع معظم القبائل . وهم يريدون منى أن أتخلى عن كل هذا ، وأن أسافر .

« كلا لن يحدث هذا . لن أتخلى عن القبائل التى قبلت حكمنا لـكى تفنيها القبائل المعادية ، جزاء ولاءها لنا .. »

وقد عجب رجال أمين باشا ، من استطاعة هذه الحملة الممزقة الجائعة القذرة أن «تنقذ» حكومة خط الاستواء التى يتكون أفرادها من عشرة آلاف فيهم النساء والأطفال .

وعلى كل حال أرجأ الجميع الرأى النهائى حتى يقابلوا « ستانلى » نفسه ، ويقفوا على ما معه من رسائل ومن وسائل بالتفصيل الكافى .

● حمل أمين باشا باخرته بالوقود و وسقها بالمؤن والمواشى والطيور ، لانجاد ستانلى ، وأبحر الجميع إلى الجنوب .

ولما تقابل الجميع أخذوا يدرسون الموقف ولم تكن المداولات خالية من الحدة ، وتسلم أمين باشا من ستانلى طردين ، أحدهما فيه بعض قطع من الجوخ أتلفتها الرطوبة ، وفى الثانى رسائل وصحف .

و وجد فى الرسائل كتابا من سمو الخديوى توفيق بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٣٠٤ (أول فبراير سنة ١٨٨٧) يقول له فيه :

« إلى محمد أمين باشا مدير خط الاستواء .

« قد سبق أننا شكرناكم على بسالتكم وثباتكم أنتم والضباط والعساكر الذين معكم وتغلبكم على المصاعب ، وكافأناكم على ذلك بتوجيه رتبة اللواء الرفيعة إلى عهدتكم ، وصدقنا على جميع الرتب والمكافآت التى منحتموها للضباط . كما أخطرناكم بأمرنا العالى الصادر فى ٢٩ نوفبر سنة ١٨٨٦ نمرة ٣١ سايرة [1] ، ولا بد أنه وصل اليكم أمرنا المشار اليه مع البوسطة المرسلة من طرف دولتلو نوبار باشا رئيس مجلس نظار حكومتنا .

« و بما أن ما بذلتموه من حسن المساعى ، وما كابدتموه من الأعمال الخطيرة التى قمتم بها ، قد استوجب زيادة محظوظيتنا منكم أنتم والضباط والعساكر الذين معكم . فقد تروت حكومتنا فى الكيفية التى يمكن بها انجادكم ، وتخليصكم عما أنتم فيه من المشقات . والآن قد تشكلت نجدة تحت رياسة جناب المستر ستانلى العالم الشهير والسائح الخبير الذائع صيته بين الممالك لكمال فضله على أقرانه . واستعدت هذه الرسالة للذهاب اليكم ومعها

(١) يقول سمو الامير عمر أنه بحث عن هذا الأمر فى ملفات القلعة فلم يجده .

ما أنتم فى حاجة اليه من المؤونة والذخائر بقصد حضوركم أنتم والضباط والعساكر إلى مصر على الطريق الذى يترائى للمستر ستانلى الموما إليه انه أكثر موافقة وأسهل عبوراً.

« و بناء عليه أصدرنا أمرنا هذا لكم ، ومرسلينه بيد المستر ستانلى الموما اليه اعلاماً بالكيفية . فبوصوله تبلغونه إلى الضباط والعساكر الموما اليهم وتقرأونهم سلامنا العالى، ليحيطوا علماً بما ذكر . واننا مع ذلك نترك لكم وللضباط والعساكر الموما اليهم الحرية التامة فى الاقامة أو تفضيل اغتنام فرصة الحضور مع هذه النجدة المرسلة اليكم . وقد قررت حكومتنا بأنها ستصرف لكم ولجميع المستخدمين والضباط والعساكر كامل ماهياتهم ومرتباتهم المستحقة . .

« وأما من يريد البقاء فى تلك الجهات من الضباط والعساكر فله الخيار، إنما يكون ذلك تحت مسؤوليته ، و بارادته المطلقة، ولا ينتظر بعد ذلك أدنى مساعدة من الحكومة فافهموا ذلك جيداً ، و بلغوه بتمامه لسائر الضباط والعساكر المذكورين ليكون كل منهم على بينة من أمره .

وهذا كما اقتضته ارادتنا . الامضاء

« توفيق خديو »

وكتب نو بار باشا كتابا فى هذا المعنى نفسه لأمين باشا .

● وفى أثناء المداولات مع ستانلى فهم أمين باشا منه أن انجلترا تعرض عليه البقاء ، وتشجعه على احتلال جميع النقط التى تصله بالمحيط الهندى ، على أن تدفع له نفقات الجنود ونفقاته هو شخصيا ، بشرط أن يكون تابعا لها

فرفض أمين باشا أن يبت فى هذا العرض ، وذلك لأن إقرار مشروع خطير كهذا ، إنما يملكه قواده وضباطه وجنوده الذين يتبعون مصر .. ولا بد له من مشاورتهم . ومعنى هذا — بطبيعة الحال — أن أمين باشا رفض عرض ستانلى ، أو عرض انجلترا ، فى أن



• أمين باشا •

يكون حاكما باسم لندن فى خط الاستواء، لأنه من المستحيل على الحامية المصرية أن تخلع جنسيتها ووطنيتها لغير سبب، أو لأى سبب.

ولما دقق ستانلى فى معرفة اتجاهات أمين باشا الشخصية علم منه أنه هو شخصياً يميل إلى البقاء، ولا سيما أن الخديوى خيره بين الأمرين: البقاء أو الرحيل. ومع هذا إذا كان الضباط المصريون يرغبون فى العودة إلى وطنهم فانه يكل أمر اعادتهم لستانلى، ويبقى هو حاكما للمنطقة.

وهنا أبان ستانلى عن نياته بوضوح أكثر من ذى قبل، فقال له إن لديه اقتراحين.

أولهما — أن ملك البلجيك يعرض على أمين باشا أن يحكم المنطقة باسمه، على أن يدفع له سنويا مبلغاً بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف جنيه.

ثانياً — أن يجمع أمين باشا جنوده عند الركن الشمالى الشرقى لبحيرة فيكتوريا نيانزا، وأن يمثل مع جنوده شركة تجارية، مثل شركة الهند الشرقية التى استعمرت الهند، وقد خصص رأسمال لهذه الشركة مقداره ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه. وبمجرد موافقته تبدأ التموينات فوراً فى الورود إلى مقر أمين باشا. والشركة تزمع ابقاء جميع الضباط والجنود على رتبهم ومرتباتهم وتتعهد بدفعها.

واطلع ستانلى أمين باشا على خرائط ومكاتبات ملك البلجيك، وعلى رغبته فى النفوذ إلى أرض النيل..

وبعد أيام وصلت باخرتا الحكومة إلى مقر المعسكرات التى اجتمع فيها القطبان أمين


« فيتا حسان »

وستانلى ، وكان يقودها حواش افندى ، وقد حمل معه ما أطاقت الباخرتان حمله من الميرة والزاد . ويعلق سمو الأمير عمر على هذه الحالة بقوله :

« وهنا مثار للعجب إذ انقلبت آية هـذا الانقاذ من اسداء المعونة إلى الاحتياج اليها . »

وابتهج أمين باشا بقدوم حواش افندى ومن معه من الضباط ، وأخذ يشرح لهم الموقف وعروض الحكومة . ويذكر فيتا حسان أن حواش افندى تكلم أكثر من سواه ، ثم اتفق الجميع على استعدادهم لتنفيذ الأوامر التى تصدر لهم،وهذه طبيعة الجندى المستقيمة الصريحة.

واتفق امين باشا مع ستانلى على أن يترك له « جفسن » لكى يعود معه،ويستفتى بنفسه الحاميات المصرية ، ويقف على نتيجة الاستفتاء فوافق ستانلى على أن يذهب هو إلى غابات الكونجو حيث ترك معظم حملته وأعوانه ، كى يحضرهم إلى شاطىء البحيرة .

وكان مسلك « جفسن » سافراً ، فقد أخبر الحاميات وهو يمر عليها أنهم إذا لم ينسحبوا «فان انجلترا لن تساعدهم » . وكان هذا الرجل يعلم من حوادث الدنيا وماحدث فيها أكثر مما يعلم هؤلاء المساكين . فهو يعرف أن مصر كلها خضعت لقوة انجلترا العسكرية بعد هزيمة التل الكبير ، وهو لا يرى حرجا فى أن يتكلم بوقائع الحياة فى مصر ، ولكن مصريو خط الاستواء كانوا يعيشون فى جو مصرى حر .فى جو مصرى عاش يكافح الغزو المهدى والثورة الداخليـة ، ودفع أفدح الأثمان فى سبيل الاحتفاظ بالحرية والاستقلال . فلم يكن هـذا الجيل من المصريين يفهم معنى احتلال مصر ، ولم يكن يفقه بعد مدى سلطة « قنصل » مصر فى انجلترا .

عاش هذا الفريق من أبناء مصر عيشة نقية رخية ، شدتها خير ،ورخاؤها خير ، لأنها فى الحالين عيشة كرامة وعزة .. فكانت لغة جفسن غريبة عليهم،ولهذا لم يتردد معظمهم

فى أن يتهم أمين باشا . . يتهمه فوراً بأنه يبيع المديرية ، ويبيع قوادها وضباطها وجنودها للانجليز .

كانت الصدمة عنيفة ، وما من جمع من الجنود انفض حتى أخذ يشك فى أن هذه البعثة ، بثيابها الرثة البالية ، قادمة من مصر ، وأنها تتكلم حقا باسم « افندينا » .

واحتمل امين باشا هذا كله صابراً . فهو يفهم ما صارت اليه الحال فى القاهرة،وهو يشفق على هؤلاء الجنود الابرياء من أن يفهموا ما يفهمه هو .

وكان يتلى على الجنود نداء من ستانلى ، تكلم فيه باسم الخديوى و باسم حكومة مصر ، يحثهم فيه على مغادرة مراكزهم ، وهو نداء طويل تبدو فى ظاهره الشفقة ، ولكنه يحمل فى باطنه أشياء وأشياء .

ووصلت البعثة ــ وهى مكونة من أمين باشا وجفسن وفيتا حسان ــ إلى دوفيليه مقر قيادة البكباشى حواش افندى منتصر . وينقل كتاب مديرية خط الاستواء عن فيتا وصف استقبالهم هناك :

« كان ذلك فى ١٥ يوليو سنة ١٨٨٨ . واستقبل حواش افندى البعثة استقبالا باهرا ، كانت الجنود فيه مصطفة على ضفة النهر.ولدى نزولهم من الباخرة ذبحت جاموسة تحت أقدامهم. وكان الطريق الطويل العريض المنتدبطول المحطة مفروشا برمال صفراء؛ الأمر الذى ألبس الناحية بهجة أيام العيد .

« وفى وسط الطريق نصب حواش افندى تحت ظل أربع شجرات ضخمة من شجر الجميز شبه مصطبة لأمين باشا وجفسن وفيتا حسان والضباط . وان هو الا أن أخذوا مقاعدهم حتى قدم لهم الشربات ثم القهوة أربعة من الزنوج مرتدين ثيابا بيضاء مع الأبهة المألوفة فى سرايات القاهرة . وكانت الفوط مزركشة بالذهب والفناجين من الصينى المزين بالزهور .

« وكان جفسن لا يتوقع أن يرى مثل هذه الخيرات ، ومثل هذا الغنى والرفاهية

لدى أناس يعيشون فى قلب أفريقية . وكان يظن أنهم يعيشون فى أشد حالات القحط ، ويقاسون أهوال وآلام الجوع ، وفى حالة تستوجب الاسعاف . ولذلك دهش وجمدت أعصابه ، وصار يقلب الطرف ذات اليمين وذات الشمال ويقول لأمين باشا وللحاضرين ، أنها لعمر الحق خسارة وأى خسارى ترك بقعة كهذه .

« وأعد لهم حواش افنـدى مساكن استوفت شروط الراحة ، تمكنوا فيها من تمضية الوقت الذى أقاموه فى دوفيليه ناعمى البال ، قبل أن يسافروا إلى لابوريه ومحطات الشمال .. »

وأننا لنقف برهة أمام هذه الأحساس الذى غلب مندوب الاستعمار ، وهو يدهش لهمة هـذا المصرى العظيم ، الصغير فى منصبه ، الكبير فى كفايته ، هذا المصرى الذى أوجد فى أكواخ القش على قارعة خط الاستواء مستوى من الحيـاة والنظافة والنظام أذهل هذا الذى أقبل من لندن والقاهرة لكى ينقذ حواش افندى ومن معه من براثن المناطق الاستوائية الوحشية .. لا عجب اذن أن نسمع أن المنـدوب الذى أقبل يسحب الحاميات يهتف من غير وعى مرددا الخسارة الكبرى اذا تم ما أقبل من أجله . انه يريد أن يطفىء هذا السراج الوهاج الذى اضاءته مصر بابنائها ودمائها ومالها فى قلب افريقية ..

● ولما انتقل أمين باشـا ، ومندوب « الانقاذ » إلى الشمال أخذ الهيـاج يزداد ، والرغبة فى التمرد على قرارات السفر المريبة تقوى وتشتد .

وأخذت متاعب أمين باشا تتضاعف ، وهمومه تتزايد . وزاد فى أشجانه وأحزانه خبر محزن ورد له من دوفيليه ، وهو أن ضابطا من الشمال معه عدد من الجنود رحل إليها وأخذ يخطب فى جنود الفرقة الثانية يحضهم على عدم السفر ، ويقول لهم « ألا يوجد لدى أفندينا بك من البكوات يستطيع أن يرسله إلينا إذا كان يريد حقا وصدقا استدعاءنا إلى مصر . » وظل هذا الضابط يحذرهم من مؤامرة «النصرانى» الذى يزعم أنه مندوب الخديوى ، ويريد أمين باشا أن يتابعه فيها ، ويريد حواش افندى ان ينفذ امرها معا ..

ووجد الجنود فى كلامه منطقا فصدقوه ، فما كان منه إلا أن حبس حواش افندى فى منزله ، وأمره بألا يتصل بأحد .

وكان اسم هذا الضابط الثائر على العودة فضل المولى افندى . . .

● وقرر أمين باشا أن يعجل بالعودة إلى دوفيليه وما أن وصل هو وفيتا حسان، حتى وقعا فى أسر الثوار ، وحجزوا فى دار الباشا ، إلا أن هو حواش افندى كان يرسل لهما من منزله ما هما فى حاجة إليه من مرطبات وقهوة . أما جفسن فلم يقبض عليه وترك حرا .

وكانت مطالب الثوار تتلخص فى عدم السفر، واعادة ستانلى من حيث أتى ، وعزل حواش افندى الذى يميل دائما إلى تنفيذ أوامر أمين باشا ويشتد فى معاملة الضباط والجنود .

وجاءت الانباء بأن ستانلى وصل إلى حدود المديرية الجنوبية ، فسافر جفسن لاستقباله مع بعض الضباط .

واستدعى الثوار زملاءهم فى المحطات المتفرقة وعقدوا مجلسا عزلوا فيه أمين باشا لأنه يميل إلى السفر وحواش افندى لأنه ينفذ أوامر الباشا وعينوا أحدهم حاكما للمديرية (حامد محمد) وآخر قائداً للفرقة الثانية ، ثم أصدرت هيئة الثوار أوامر بترقيات كثيرة منحتها لنفسها وكان أهم ماعملته أنها نهبت منزل حواش افندى ! ؟

وتقبل أمين باشا هذه الحالة صابراً . فقد جرتها عليه بعثة ستانلى المشؤومة . ولكنه أمر باستدعاء ضابطين وقاضى المديرية ، وكتب وصيته ، وجعل ابنته فريدة وريثته فى كل شىء ، وعين سمو خديوى مصر منفذاً للوصية .

● وحدث فى أثناء هذه الأزمة العصيبة حادثة خطيرة . إذ جاءت الأنباء بان تسع سفن وصلت إلى المحطات الشمالية تحمل قوات كبيرة من الدراويش لغزو المديرية ، يتولى قيادتها عمر صالح . وأرسل هذا القائد رسالة طويلة جداً إلى أمين باشا مع ثلاثة من أعوانه يستعرض فيها تاريخ الثورة المهدية وانتصاراتها ويدعو إلى تسليم المديرية .

وهنا وقع الثوار فى حيرة منكرة ، فاوفدوا ثلاثة منهم لاستشارة أمين باشا ، فقال لهم : أنه عزل من عمله ، وهو مسجون ، فلا رأى له !!

وأمام الخطر المحدق انقسم المعسكر إلى معسكرين إلا أن أقواهما كان فى صف أمين باشا . وسادت الفوضى ، واشتد القلق ، وعظم الجدل ، ولم يعرف أحد فى هـذا البحر الصاخب كيف تساس الأمور . وأسرعت حكومة الثوار تعزز حامية الرجاف ، ولـكن الأنباء جاءت ، بأن الدراويش استولوا على هـذه المحطة وسبوا أولادها ونساءها ومنهم أسرة حامد (بك) الحكمدار الجديد الذى اختاره الثوار رغم أنفه .

وكان الضابط الباسل سليمان افندى سوردان [1] الذى سبقت الاشارة اليه قد أقبل ، فقوى حزب أمين باشا ، وتولى زعامته الضـابط سليم افندى مطر . ولم يلبث الجميع . ومنهم فضل المولى أن ارتدوا كساوى التشريفة الـكبرى ، وذهبوا إلى أمين باشـا يعتذرون ويطلبون منه أن يصفح عن الجميع صفحا أبويا ، فعـاملهم أمين باشا بكرم وسخاء ، وصفح عن الجميع .

● وسمح الثوار لحواش افندى بأن يسافر إلى وادلاى ثم أبحر بعده أمين باشا .

وقرر الباشا أن يرسل البواخر على عجل إلى دوفيليه لنقل النساء والأطفال ، ولا يبقى هناك غير الجنود . ورحلت السفن ، ولـكن لم يرد عنها أى خبر . وتبين أن الدراويش هاجموا المحطة ، وأسروهلك كل من فيها .

وكانت هذه الأنباء ضربة أليمة ، لم يلبث الضباط فى باقى المحطات بعدها أن عادوا يستعطفون الباشا فى أن يتولى قيادتهم الفعلية .

ولـكن أمين باشا لم يقبل هذا العرض ، فقد أحدثت له الحوادث الماضية هزة نفسية عنيفة فقرر التنحى عن القيادة ، ومغادرة المديريه . وفى اليوم التـالى رحل عن وادلاى هو وفيتا حسان والانجليزى جفسن وحواش افندى . وفى الطريق رأوا دخان باخرة ، فحسبوا أن الدراويش بعد أن استولوا على البواخر جـدوا فى أثرهم ، ولـكن تبين أن الباخرة « الخديوى » ماتزال مصرية ، وأنها تحمل أصدقاء ، وقد جاءتهم بالأنباء التالية

(١) أصيب سليمان فيما بعد برصاصة عالجه منها أمين باشا ، ولـكنه مات منها

وهي أن محطة دوفيليه هوجمت وأن الدراويش اقتحموا نصفها ، واستولوا على باخرة ، ولكنهم ردوا عنها بخسارة فادحة ، وأمكن استنقاذ الباخرة منهم مرة أخرى . وحتى لا يتعرض النساء والأطفال للخطر حملوا في السفن ورحلوا إلى الجنوب . وأرسل البكباشي سليم افندي مطر رسالة بهذه التفصيلات إلى الباشا . وكان تاريخ رسالته ٢ ديسمبر ١٨٨٨

● وعلى الرغم من أن الحالة لم تكن من السوء كما توقع أمين باشا ، إلا أن الفتنة التي أحدثتها ضده نوايا ستانلي ، خلصته من تبكيت الضمير فيما لو فارق المديرية . فقرر أن يتابع الرحلة .

وكانت إشاعة عودة ستانلي كاذبة ، وقد مضى على آخر اجتماعاته مع أمين باشا سبعة أشهر كاملة حدثت فيها هذه الحوادث الغريبة فلما كان الشهر التاسع على أوبته إلى الكونغو ، جاءت الأنباء بأنه وصل مرة أخرى إلى الزاوية الجنوبية الغربية من بحيرة البرت. وفي آخر يناير سنة ١٨٨٩ كانت رسائله قد وصلت إلى صاحبه جفسن ، وكذلك إلى أمين باشا .

وكان ستانلي ممروراً للخسائر الفادحة التي حلت بحملته ، إذ سلك بها طرقا معوجة خطرة حتى مات ١٨٠ رجلا من ٢٧٤ كانوا معه . فكتب إلى جفسن يقول له أنه إذا لم يكن من رجال المهدي ، ولا من رجال أمين باشا ، فعليه أن يوافيه فوراً حيث هو . فسافر جفسن ، ثم تبعه أمين باشا ومن معه . قال مؤلف كتاب « حياة أمين باشا »(١)

« إن حملة ستانلي ، عند ماوصلت إلى البحيرة في المرة الثانية لم تكن أحسن حالا مما كانت عليه عند مجيئها في المرة الاولى في السنة الماضية . ولم يكن لدى ستانلي شيء من العطف والميل لا نحو أمين باشا ، ولا نحو ضباطه . فكان يعتقد أن حملته أخطأت قصدها ولم تصب قط مرماها ، وكان هذا الاعتقاد المضني يشغل كل أفكاره .

« وأن مهمة ستانلي لم يكن من مقاصدها تمكين أمين باشا من مواصلة نشر العمران في ربوع مديرية خط الاستواء المصرية ، كما لم يكن من أغراضها انقاذه بتوصيله إلى

(١) عن مديرية خط الاستواء ج٣ ص ٢٠٧ .

ساحل البحر ، بل كان جل مايرمى اليه اكتساب أقاليم مترامى الاطراف لصالح شركة انجليزية يبشر بادرار الخيرات الكثيرة . يباشر حكمه مدير خبير محنك .

« أما الآن وقد أمسى أمين باشا ، لا يملك جيشاً فليس له منه فائدة. والشيء الوحيد الذى مازال فى الاستطاعة جنيه من الحملة هو انقاذ ذلك الرجل الذى كانت أوربا بأسرها مهتمة بأمره لانقاذه من الهلاك مهما كلفه انقاذه من محن و رزايا تجل عن الوصف .

« وكان هذا الانقاذ لا بد من اتمامه فى أقرب آن مع صرف أقل ما يمكن من المال .

« وكان ستانلى يمقت اتباع أمين باشا . وكان يود حصرهم فى أقل عدد ممكن . ولو بقيت جنود أمين باشا ، و باشر المسير على رأسهم لفتح أقاليم البحيرة لحساب انجلترا لما كان ستانلى قد تضرر منه . وما كان يقيم العراقيل فى وجهه . أما الآن وقد أصبح هؤلاء الجنود عاجزين عن تنفيذ الخطة التى كان ستانلى قد علق عليها الآمال ، فقد صار كل شيء يعمل للحيلولة دون انسحابهم ، لأن فى استطاعة الجنود أن يضايقوا ستانلى فى ادارة الحملة التى كان يريد أن يكون مطلق التصرف فيها . ولكى يجد أيضاً حجة مقبولة فى الظاهر لاستبعاد هؤلاء الجنود والتخلى عنهم ، عزا اليهم نية الخيانة ، واتهمهم بأنهم لا يبيتون نية القبض على أمين باشا فقط ، بل على ستانلى وضباطه وتسليمهم للمهديين . وهذه التهمة التى ليس لها أساس أصلا أصبحت مصدر كل ما نسبه ستانلى إلى الجنود من المثالب ، وكل ما صوبه اليهم من المطاعن . »

و بدلا من أن ينتظر ستانلى تكامل موظفى الحكومة الراغبين فى الانسحاب ، ولا سيما أن بعض المرافقين لامين باشا كانوا قد تركوا بعض أو كل أهلهم ، وهم ينتظرون قدومهم . فكنت ترى زوجة تنتظر زوجها ، أو أباً ينتظر ابنه وهكذا ..

ولكن ستانلى ذلك الرجل الفظ المستبد الملتوى القصد ، هدد الجميع بمدافعه الرشاشة وأجبر من أراد المسير منهم على متابعته دون ابداء أى رأى أو مناقشة أو رعاية أى قاعدة أو عاطفة . ولم يحدث فى تاريخ الصلات البشرية بين الناس بعضهم و بعض مثل هذه

الفظائع المنكرة التى ارتكبها ستانلى وهو « ينقذ » موظفى الحكومة . وكان يكفى أن يرتكب أى فرد خطأ لكى يعدمه . بل لقد أمر بقتل أحد الحمالين ، ثم أمر بأن تقطع جثته ثمانى قطع ! !

وفى الطريق كانت ترد الأنباء بأن الضابط سليم بك مطر — فقد رقى إلى رتبة قائمقام — مجد فى اللحاق بالحملة مع ٣٧ ضابطا وصف ضابط . وأنه ترك حكم المديرية لفضل المولى بك قائد ثورة البقاء ، ولكن ستانلى لم يأذن بالانتظار مطلقا .. وكان أمين باشا يذوب حسرات على ما يحل برجاله ، حتى أنه عند ما كان أحدهم يمرض بضربة شمس ، ولا يوجد حمالون لحمله ، كان ستانلى يأمر بتركه فى الطريق .. وأى طريق .. حيث توجد الوحوش ولا يوجد انسان ، وإن وجد ، فيكون من أهل نيام نيام ! !

ما أكثر ما ندم أمين باشا ، ولكنه دفن نفسه فى حيز مهمل من القافلة ، وكل رجائه أن يغمض عينيه ثم يفتحهما ، فاذا هو على شاطىء المحيط الهندى . وهناك يفتح عينيه ، ويستنشق أنفاسا طوالا ، لا لأنه عاد إلى الدنيا ، ولكن لأنه تخلص من « منقذه » ستانلى .

وأخيرا — فى يناير سنة ١٨٩٠ — وصلت الحملة إلى منفذ من المنافذ التى تطل على الدنيا .. وصلوا إلى ما كان يسمى أفريقية الألمانية الشرقية . وتناقلت أسلاك البرق نبأ وصول أمين باشا ، وتهاوت عليه البرقيات من كل مكان تهنئه . منها برقية من الخديوى يضع تحت تصرفه وتصرف أعوانه الباخرة المنصورة لكى تقلهم إلى مصر . وأخرى من امبراطور ألمانيا ..

ولكن حادثا وقع غير سير الأمور تغييرا تاما . ففى أثناء وليمة فى بلدة « باجامويد » بزنزبار خرج أمين باشا لكى يطل من نافذة ، وكانت مرتفعة عن الأرض أربعة أمتار ، وغير محكمة الصنع ، فهوى منها الباشا ، ونقل فورا إلى المستشفا حيث بقى شهرين تحت العلاج .

● أما بقية المصريين وفيتا حسان الذى أرخ كل هذه الحوادث ، فقد عادوا إلى مصر على الباخرة المصرية ، فوصلوها فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٠

وكانت القافلة التى قادها ستانلى ـ لينقذها ـ مكونة من ٧٠٠ فرد (فى رواية ستانلى ٥٥٠ فقط) منهم ١٧٣ موظفا مصريا وأسرهم . ولم يصل من هذا العدد إلى زنزبار إلا ٢٠٠ فقط وهلك فى الطريق ٢٥٠ شخصا ، وهرب الباقون وهم من الحمالين لسوء المعاملة

ويعلق سمو الأمير عمر على هذه النتيجة بقوله :

« ومن الواضح الجلى أن رحلة كهذه من بحيرة البرت نيانزا إلى الساحل فيها كثير من التعب والمشاق فى ذلك الوقت ، إلا أنه أيضا من المحقق انه لو كانت حملة منقذيهم راعت أن قافلتهم تمتاز ولو شيئا قليلا عن قطيع من الأنعام ، ما كان لازمها النحس وحلت بها كل هذه الخطوب ..

« وما من مصرى يقدر أن يشعر بعاطفة ميل أو ود نحو ستانلى الذى اشترك اشتراكا فعليا فى اقتطاع أحسن وافيد مديرية من مديريات مصر فى السودان ، ولكن لامندوحة من الاعتراف بأنه رجل صبور على المكاره ، وذو بأس نادر استعمله ويا للأسف ضدنا. ولكن حكومة مصر فى ذلك العصر هى التى تستوجب منا أشد اللوم ، لسذاجتها التى أوقعتها فى هذا الشرك ، وورطتها فى التوقيع على سلخ هذه المديرية من السودان المصرى فى الوقت الذى لم يكن عليها سوى أن تترك هؤلاء الجنود حيث كانوا ، ولو التزمت هذه الخطة لثبت هؤلاء فيها إلى أن أعيد افتتاح السودان . »

● وما حدث لأمين باشا بعد شفائه انه التحق بخدمة الحكومة الألمانية ، وأراد أن يعيد المديرية تحت ادارته ولكن لحساب برلين ، وفى أثناء عودته لاجتياز الطريق إلى البحيرات قتله الزنوج ، ولعلهم أكلوه ! !

● وأما فضل المولى بك وغيره من المصريين الذين أصروا على البقاء والاحتفاظ بالسيادة المصرية على منطقة البحيرات فقد جندتهم شركة شرق أفريقية فى خدمتها ،

وعلقوا خدمتهم لها على شرط موافقة الحكومة المصرية .. ولكن الحكومة المصرية لم تعن بهم ، أو تسأل عنهم وهكذا ابتلعت الشركة المنطقة كلها (١)

● وأما الذين عادوا إلى مصر فكان على رأسهم عثمان افندى لطيف وكيل المديرية والبكباشى حواش افندى منتصر ، والصاغ ابراهيم افندى حليم وثمانية ضباط آخرين ، وسبعة عشر من الموظفين المدنيين . ومع الجميع فيتا حسان ، والايطالى ماركو جسبارى واليوزباشى كازاتى . .

وهكذا .. وهكذا انتهت هذه الصفحة المشرقة .. صفحة البطولة والتضحية الخالدتين . . صفحة مصر ، وأبطالها المنسيين . . صفحة أبناء النيل البررة الذين أحبوا نهرهم ، وأحبوا أرض نهرهم ، وعاشوا فى منابعه أعز أيام حياتهم ،وكافحوا وكابدوا لكى تظل الراية المصرية مرفوعة ، لم يوهن من عزمهم أن مصر نفسها احتلت ، ولم يضعف من يقينهم أن السودان نفسه احترق بالثورة المهدية .. لا ، ولم تتخاذل شجاعتهم أمام المفاجآت والخطوب وانتقاضات الزنوج ، كما رأوهم قلة مقطوعة عن العالم . حتى إذا انقضى على مقامهم فى منطقة البحيرات عشرة أعوام ، أهملتهم فيها حكومتهم ، بل حاولت أن تقطع صلتها بهم .. وما كان لهؤلاء الأبطال أن يسلموا أرض الوطن ، إلا عندما

---

(١) كان أمين باشا قبل مصرعه والتهام « أفريقية » له قد قابل سليم بك مطر وطلب منه أن يعمل معه هو وجنوده وعددهم ٨٠٠ جندى ومجموعهم مع أفراد اسرهم وأتباعهم ثمانية آلاف . فرفض سليم بك وكان معسكراً فى « كافالى » وقال لامين باشا انهم جميعاً من رعايا الخديوى ، ولا يقبلون العمل فى خدمة الحكومة الالمانية .

ثم أقبل الكبتن لوجارد نيابة عن الشركة التجارية ، وحاول استمالة سليم بك مطر ، فقال ان شعره ابيض فى خدمة الخديوى ، ولا شىء يحوله عن الاخلاص للعلم الذى عاش تحته طول حياته . ولكنه مع هذا يستطيع أن يشتغل فى الشركة مع جنوده اذا صرح له الخديوى ، على أن يحتفظ بجنسيته ، ويمثل مصالح حكومته .

وكان رد مصر أنها رفضت الأعتراف بجنودها فى خط الاستواء ، ورفضت صرف مرتباتهم ، واعتبرتهم عصاة لانهم لم يطيعوا أمر ستانلى بالاخلاء !!

وكانت نهاية سليم بك أنه مات ، وهو مسوق من أوغنده الى الساحل لعقوبته على تحزبه لمسلمى أوغنده !

تحركت الامبراطورية كلها تريد أن تنزعهم من أرض أحبوها وأحبتهم ، واستعانت عليهم بخديويهم وبحكومتهم « السنية » وقد اقترن تدمير سلطان مصر باعنف وأعجب ضروب القسوة التى طبقها ستانلى ، وكأنه يتعامل لا مع همج ، ولا مع وحوش ، ولكن مع من هم أحط طبقة وأدنى منزلة .. فاللهم لاحول ولاقوة إلا بالله .

وقد انتهى أمر منطقة البحيرات بأن نزعت من مصر ، لا بمفاوضة ، ولا بحرب فيها هزيمة ونصر ، ولكن باستغلال السلطة التى خلقتها فى مصر ظروف الاحتلال . فقد نصت معاهدة الحكم الثنائى التى وقعت بين اللورد كرومر و بطرس باشا غالى فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ على ما يأتى :

« تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

« أولا — الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ أو

« ثانياً — الأراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو

« ثالثاً — الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً »

ولم تنص المعاهدة على حدود السودان الجنوبية ، وذلك لأن السكوت فى بعض الأحوال من ذهب . والذهب هنا بعض مكاتبات مع ملك أوغنده وملك أو نيورو مثل عشرات بل مئات الرسائل والهدايا التى تبودلت مع الخديوى اسماعيل ، ومع حكامه حتى آخر عهد أمين باشا بالحكم هناك . وقد استندت بريطانيا على هذه المكاتبات ورفعت رايتها على منطقة البحيرات دون رعاية لأى مصالح جغرافية أو تاريخية أو واقعية .

وإذا كانت حكومة مصر فى تلك الأيام قد عاشت فى ظلام مطبق ، فان هؤلاء الأبطال المجهولين من أمثال سليم بك مطر وأعوانه الذين خلفوا فى منطقة البحيرات حاولوا أن يبقوا على مصر مصدر مائها أو مصدر حياتها ، فلما غلبوا على أمرهم ودفعوا حياتهم ثمناً لهذا النضال المرير غير المتكافىء ، انتهت المقاومة الأخيرة هناك .

وقد نسيت مصر تماما سليم مطر ، بل لولا جهود الأمير عمر طوسون فى الكشف عن شخصيته وأعماله من بين أكداس التقارير والكتب الأجنبية ، لظل

نسياً منسيا . وكان آخر ما ذكر عن هذا الرجل المخلص ، ما ردده عنه اللورد لوجارد — فقد منح هذا اللقب — فى محاضرة القاها عام ١٩٣٠ ، أى منذ خمسة عشرة عاما .. قال :

« ... ضممنا الينا السودانيين ، وأمكننا أن نرتبط معهم بعلاقات ودية . فاخلاص هؤلاء بقيادة رئيسهم الطاعن فى السن — سليم بك مطر — لحاكمهم الخديوى ، الذي قاتلوا المهدى والدراويش فى ظلال رايته مدة خمسة عشر عاما كما يقولون ، لهو اخلاص يحرك العواطف ، ويثير الحنان فى النفوس . ولقد مر أربعون عاماً ، ومع ذلك فانى لا أستطيع أن أحتمل أن تمر بمخيلتى ذكرى الظروف التى انبنى عليها نهاية خدماته المترعة بالبسالة والاقدام »

وكان الاسلام قد وصل فى نفوذه حول البحيرات إلى حد لا تأمن أى قوة استعمارية على نفسها من الوجود معه فى صعيد واحد . ولهذا نرى الماجور مكدونالد الذى كلف بتثبيت قواعد الحكم البريطانى هناك يقول فى أحد كتبه عن مهمته :

« لقد كان من حسن حظى ، وأنا قومسير مؤقت ، أن أعمل بصفة قطعية على ملاشاة آخر مجهود تبذله الهمجية الاسلامية لطرد النفوذ الأوربى ومشروعات المبشرين..والتمدن !! »

وقد نسى الكاتب المذكور أن حكومة مصر هى التى كانت تسهل لمبشرى المسيحية الذهاب إلى منطقة البحيرات ، وهى التى أمدتهم بالمال ، وبكل تسهيل ، لأنها حكومة اسلامية لم يعلمها دينها التعصب ، وهى تؤمن بمبدأ البقاء للاصلح . وكان هذا هو جزاء ماصنعت .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى بقايا القوات المصرية ، وهى القسم الذى كان يقوده فضل المولى بك قائد ثورة البقاء الأولى ضد أمين باشا .

فبعد انسحاب أمين باشا ، ظهرت بلجيكا من الغرب زاحفة من الكونجو لكى تنهب بدورها قسما من هذا التراث المبدد ، وحاولت أن تضم اليها فضل المولى وجنوده . وكان هؤلاء الجنود فى حيرة ، فقبلوا أن يأخذوا رواتبهم من بلجيكا على أن يرفعوا أعلامهم المصرية كما هى . وفى أثناء مقامهم بالقرب من وادلاى ، اشتبكوا مع قوات متفوقة من الدراويش فقتل فضل المولى ، ولكن ما تبقى من قواته ظل على ولائه

المصر ورايتها حتى وصل الانجليزى الماجور ثرستن ، وقد أعمل الحيلة لكى لا تصطدم بلجيكا بانجلترا فى هذه المناطق ، فرفع الراية المصرية على معسكره ، وأخرج من جيبه براءة تعيينه ضابطا فى خدمة الحكومة المصرية ، وما أن رآها « احمد على » القائد الجديد للقوة حتى وضع نفسه فى خدمة « ثرستن » . فطلب منه أن يسوق قواته إلى الجنوب — وكانت مع أتباعها وأفراد أسرها خمسة آلاف — وهناك فى أوغنده صنعوا بالضباط ما صنعوه بسليم بك مطر ، فقد عزلوا من قيادتهم ، وجند الجنود فى خدمة الحكومة البريطانية مع غيرهم من فرقة سليم بك المنحلة ، وكان عددهم يبلغ ١٦٠٠ جندى .

وخطر للحكومة البريطانية أن تسوق هؤلاء الجنود فى طريق طويل ماراً ببحيرة رودلف ، لكى تقاتل بهم حملة مارشان الفرنسية فى فاشودة ، فلم يذعن الجنود ، وفضلوا أن يقصوا السلطة البريطانية من أوغنده ، بمعونة مسلمى هذه المنطقة ، وثاروا . فأحضرت لهم انجلترا قوات هندية ظلت تقاتلهم أكثر من عام ، حتى أفنتهم عن آخرهم . وبفنائهم تقلص آخر ظل لروح التمدن المصرى الحقيق فى تلك المناطق .

مصر والنيل

— ١ —

بحيراتنا وأرضنا

فى سنة ١٩٢٩ ، وصل المغفور له محمد محمود باشا مع الحكومة البريطانية إلى عقد اتفاقية النيل ، وهى خطابان متبادلان بين الحكومة المصرية و (دار المندوب السامى) فى ٧ مايو من العام المذكور ورد فيها :

١ — أن المفتش العام لمصلحة الرى المصرية فى السودان أو معاونيه أو أى موظف آخر يعينه وزير الأشغال ، تكون لهم الحرية الكاملة فى التعاون مع المهندس المقيم بخزان سنار لقياس التصرفات والارصاد كى تتحقق الحكومة المصرية من أن توزيع المياه وموازنات الخزان جارية طبقا لما تم الاتفاق عليه .

وتسرى الاجراءات التفصيلية الخاصة بالتنفيذ والمتفق عليها بين وزير الأشغال ومستشارى رى حكومة السودان من تاريخ الموافقة على هذه المذكرة .

٢ — ألا تقام بغير اتفاق سابق مع الحكومة المصرية أعمال رى أو توليد قوى ، ولا تتخذ اجراءات على النيل وفروعه أو على البحيرات التى ينبع منها سواء فى السودان أو فى البلاد الواقعة تحت الادارة البريطانية ، يكون من شأنها إنقاص مقدار الماء الذى يصل إلى مصر ، أو تعديل تاريخ وصوله أو تخفيض منسوبه على وجه يلحق أى ضرر بمصالح مصر .

٣ — تلقى الحكومة المصرية كل التسهيلات اللازمة للقيام بدراسة ورصد الأبحاث المائية لنهر النيل فى السودان دراسة ورصدا وافيتين .

٤ — إذا قررت الحكومة المصرية إقامة أعمال فى السودان على النيل أو فروعه أو اتخاذ أى اجراء لزيادة مياه النيل لمصلحة مصر ، تتفق مقدما مع السلطات المحلية على مايجب اتخاذه من الاجراءات للمحافظة على المصالح المحلية ويكون إنشاء هذه الأعمال وصيانتها و إدارتها من شأن الحكومة المصرية وتحت رقابتها رأسا .

٥ — تستعمل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وشمال أيرلانده وساطتها لدى حكومات المناطق التى تحت نفوذها لكى تسهل للحكومة المصرية عمل المساحات والمقاييس والدراسات والأعمال من قبيل ماهو مبين فى الفقرتين السابقتين .

٦ — لا تخلو الحال من انه فى سياق تنفيذ الأمور المبينة بهذا الاتفاق قد يقوم من وقت لآخر شك فى تفسير مبدأ من المبادىء أو بصدد بعض التفصيلات الفنية أو الادارية فستعالج كل مسألة من هذه المسائل بروح من حسن النية المتبادل . فاذا نشأ خلاف فى الرأى فيما يختص بتفسير أى حكم من الأحكام السابقة او تنفيذه أو مخالفته ، ولم يتيسر للحكومتين حله فيما بينهما رفع الأمر لهيئة تحكيم مستقلة .

٧ — لا يعتبر هذا الاتفاق بأى حال ماسا بمراقبة وضبط النهر ، فان ذلك محتفظ به لمناقشات حرة بين الحكومتين عند المفاوضة فى مسألة السودان .

•••

وقد سبق عقد هذه الاتفاقية أن ألقى رئيس الحكومة (محمد محمود باشا) خطبة ذكر فيها شيئا عن منطقة السدود ، وقال إن بعضها يقع فى أملاك بريطانية . وما أن علم سمو الأمير عمر طوسون بهذه الخطبة حتى غضب وكتب فى الصحف منكراً أن جزءاً

من منطقة السدود يقع فى أملاك بريطانية . وذكر أنه لو احترمت انجلترا معاهدة سنة ١٨٩٩ لكان أول واجب عليها إرجاع هذه البلاد ، وجعلها تحت إدارة حكومة السودان ، حيث أن هذه المعاهدة تشمل عموم الأراضى التى تتكون منها السودان المصرى القديم كما كان عليه قبل الثورة المهدية ، ولكنها لم تفعل هذا الواجب ، ولم ترده فى تطبيق هذه المعاهدة . وهذا لا يجعلنا نعتبر عملها الذى استندت فيه إلى القوة وحدها عملا شرعياً فان انجلترا التى أخرجت مارشان من فاشوده بحجة أنها جزء من السودان المصرى ما كان ينبغى لها بعد ذلك أن تسلخ جزءا من نفسها . وهذه الحجة لا تزال إلى الآن باقية »

وقد أدت خطبة محمد محمود باشا إلى أن ألف الأمير عمر كتابه الشهير عن مديرية خط الاستواء ، وذكر فيه عن اتفاقية مياه النيل :

« اننا لعلى يقين بأن حضرة صاحب الدولة محمد باشا محمود خدع فى حسن نيته فى أثناء المحادثات التى دارت بينه و بين الحكومة البريطانية عن المسائل الخاصة بمياه النيل لأنه لما كانت انجلترا تعتبر هذه الأراضى أرضاً بريطانية ، وتنعتها بهذا النعت دائما ، كان من الجلى أن هذا هو الذى لابد أن يكون قد حدث مع دولته ، وأنه لم يفه بكلماته هذه إلا تحت سيطرة تأثره بأن ماسمعه يوافق الحقيقة »

●●●

ومن الواجب ونحن نكتب عن النيل أن نذكر أهمية هذه المناطق لمصالح مصر الحيوية من جهة الرى واحتياجات مصر المستقبلة إلى الماء :

● وقبل كل شىء ننبه هنا إلى ماسبق أن ذكرناه فى المقدمة ، وهو أن ترفع وزارة الاشغال عن عرض أعمالها « التفصيلية » على الجمهور حتى يكون رقيبا على أن هذه الوزارة لم تقصر فى حق مصالحه الحيوية . وقد قرأنا كلة فى مجلة المهندسين لعلى بك فتحى قال فيها :

« لاحظت أن الكثيرين من المتحدثين عن مشروع كهربة خزان أسوان على صفحات الجرائد أو فى مناسبات أخرى يتعرضون لنواحيه التفصيلية التى لا يمكن أن تطرح للمناقشة العامة ، ولا يمكن البت فيها إلا بمعرفة الجهات المختصة . فمن المعلوم أن لهذا المشروع نواحى فنيـة واقتصادية يتعذر تفهيمها لكل سائر . وفتح باب المناقشة على

مصراعيه بهذا الشكل مضر ولا شك بمصالح البلاد . وأمامنا على سبيل المثال خزان جبل الأولياء الذى قامت حوله ضجة عظيمة ترتب عليها أن خيل لمعظم الناس أنه مشروع فاشل ، أو فيه إضرار بمصالح مصر ، بينما هو يؤدى لمصر خدمة لا تقدر .

« .. وكل ما يمكن للجمهور أن يطلبه هو معرفة الهيئات أو الأشخاص المسؤولين عن كل ناحية من النواحى السابق الاشارة إليها .. الخ »

فهذه العقلية البيروقراطية التى تسيطر على وزارة الأشغال هى التى نريد التخفيف منها . فنحن لا ننكر على مهندسينا كفايتهم ، ولا وطنيتهم ، ولا تقديرهم لمصالح البلاد ... كل هذا حسن ، ولكن لماذا نلجأ إلى المجلات والكتب الأجنبية لنأخذ منها التفاصيل عن مشروعات أعالى النيل ، وتعلية خزان أسوان الثالثة ، وكهربة الخزان .. وهل قراء مجلة « المهندس » الانجليزية التى تصدر فى لندن ، خير من قراء مجلة المهندسين العربية التى تصدر فى القاهرة ؟

لماذا يكتبون فى انجلترا وفى أمريكا وفى جميع العواصم المتحضرة لجمهور المهتمين بالمسائل الفنية كل شىء ، وتضن هيئاتنا الفنية على جمهور المختصين المصريين بتفسير وتفصيل لأعمالها .

● وقد ثارت بحوث فى الأيام الأخيرة ، على صفحات الصحف من النوع الذى تكرهه وزارة الأشغال ، بدأها سعادة عبد القوى أحمد باشا ، بقوله إن برنامج السير مردوخ مكدونالد الذى أورده فى تقريره عن ضبط النيل أصبح برنامجا عتيقا ، اذ أنه حدد الأرض التى يمكن زرعها فى مصر بسبعة ملايين من الأفدنة ، فى حين أن فى الامكان أن تصل الأرض المزرعة إلى تسعة ملايين .

وانبرت وزارة الأشغال ترد على هذا الكلام فوصفته بأنه كلام مرتجل . وقالت ان الوزارة رسمت لنفسها برنامجا فى سنة ١٩٣٣ مدته عشرون سنة ، قدرت أن فى استطاعتها خلاله ، أى فى سنة ١٩٥٣ أن تصلح وتروى ٤٠٠,٠٠٠ فدان فى الوجه البحرى ، وتحول نصف مليون فدان فى الوجه القبلى من رى حياض إلى رى دائم . وبعد هذا التاريخ ستعنى وزارة الأشغال بتدبير الماء لـ ٩٠٠,٠٠٠ فدان من الأرض البور ، ونصف مليون فدان تروى ريا دائما وهى تروى الآن ريا حوضيا . واذا سارت الأمور على هذا المعدل

الذى التزمته فى برامج ١٩٣٣ فانها ستدخل فى القرن الواحد والعشرين قبل أن تتمه ، أو تـكون قد أتمته فى نهاية هذا القرن .

● وهذه السياسة التى تسير عليها وزارة الأشغال أشد ما تـكون خطرا على حاضر هذه البلاد ، وعلى مستقبلها ويجب أن ننبه بأعلى صوت ، وفى وضوح لا يلحقه ابهام ، إلى ان مصر توشك أن تلم بها المجاعة اذا سارت الأمور سير السلحفاة الذى تترسمه وزارتنا البيروقراطية العتيدة . .

وما أعجب هذا التناقض بين الحالين. فمهندس كبير معروف وعضو فى مجلس الشيوخ وكان قبل اليوم وزيرا مسؤولا ، ينادى بأن برنامج مكدونالد أصبح عتيقا ، ويجب ان يعدل عنه . .

أتعرف ما يقول هذا البرنامج الذى يثور عليه عبد القوى أحمد باشا ، وقد وضع فى سنة ١٩٢٠ وأقره المرحوم اسماعيل باشا سرى ؟

يقول إن عدد سكان مصر سيتزايد حتى يصل فى عام ١٩٥٥ إلى ثمانية عشر مليونا ونصف مليون. وهذه الزيادة تقتضى أعداد مساحة أزيد من الأرض المنزرعة لتدبير غذائها ، هى سبعة ملايين من الأفدنة . وإذن فلا بد من عمل جدول دقيق لتنفيذ مشاريع الرى ، بحيث لا ينقضى ٣٥ عاما ابتداء من عام ١٩٢٠ ، حتى تـكون الأرض التى رويت ريا مستديما ، والبور الذى أصلح للرى المستديم قد زاد ١٫٨٠٠٫٠٠٠ ، ووصل المجموع إلى سبعة ملايين من الأفدنة .

وسيأتى عام ١٩٥٥ ، ولن تعقم الأرحام، ولن يكف عدد السكان عن الزيادة، ومع ذلك فوزارة الأشغال تعدنا بأنه عند ما نصل إلى الرقم الذى ذكره السر مكدونالد ، نكون قد حققنا نصف البرنامج ، وبعد نصف قرن آخر نـكون قد أتممناه ! !

أتعرف وزارة الأشغال أن سكان مصر سيصلون فى مطلع القرن الواحد والعشرين إلى رقم قد يزيد على خمسة وعشرين مليون نسمة ، أى أكثر من ضعف السكان فى الوقت الذى وضع فيه تقرير سنة ١٩٢٠ ؟ ! فماذا أعدت وزارة الماء لمواجهة هذه الزيادة غير الاعتصام بارستقراطيتها العالية ؟ وإذا نادى مهندس مسؤول بأنه لا بد من التعجيل

ومن زيادة عدد المنزرع إلى تسعة ملايين ، قالت الوزارة فى وقار : لا تتعجلوا .. دعونا نعمل فى هدوء !!

وسنرى إذا كان فى الامكان زيادة الملايين السبعة ، أم لا ، كما سنرى إذا كان ماء النهر يكفى لكل زيادة محتملة أم لا ، مع العلم بأن كمية الماء الذى يحتاج اليه برنامج مكدونالد هى ٥٥٠ مليار من الأمتار المكعبة سنويا .

● الأرض القابلة للزراعة فى مصر كثيرة ، أكثر من السبعة ملايين ، ومن التسعة ملايين ، ويمكن أن نقدرها بضعف هذه المساحة .. مؤقتا .

وذلك لأن مصر كانت قبل بضعة قرون تزرع مساحات أوسع من المساحات الحالية ولم يكن أهل الزمن الماضى سحرة ، ولا انصاف آلهة حتى ينبت زرعهم فى الصخر ، أو ينمو من غير ماء .. لا ولكنه كان ينبت فى أرض خصبة قابلة للزراعة ، ماؤها موفور.

ومن الخير ، بل من الواجب أن يدرس سادتنا رجال الرى التاريخ القريب للأرض المنزرعة فى مصر ، ففيه البيان لما نريده ، وتريده البلاد منهم .

ولنذكر الآن بعض الحقائق اليسيرة عن المساحات الخصبة الكبرى التى حولتها عهود الانحلال إلى أرض غامرة علاها الرمل ..

لنذكر أن شمال صحرائنا اللوبية الغربية ، مابين الاسكندرية وبرقة كان مزروعا ، وكانت فيه مدائن مزدحمة بالسكان كثيرة العدد ، وكانت بساتينه مضرب المثل فى وفرة غلتها .

ولنذكر أيضا أن قسما كبيرا من سينا كان يزرع ، وكان يغل حاصلات طيبة .. وهذا هو الدليل :

١ — يذكر المؤرخون أن الفتح العربى أقبل على مصر ، ومنطقة « بنطابوليس » غرب الاسكندرية كانت آهلة بالسكان والزراعات .

يقول « بتلر » فى كتابه الشهير عن فتح مصر ، « إنه ليس شيء أبعد عن الحق من أن يقول قائل إن الطريق إلى غرب مصر كان يشق فيافى قاحلة . فلدينا من الأدلة مايذكر صريحا أن كل أرض الساحل الواقعة إلى غرب مصر بقيت آهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة من الفتح العربى (أى منذ الف سنة)

ويذكر المؤرخ العربى « المقريزى » أن مدينة لوبيه قاعدة لأقليم يقع بين

الاسكندرية ومراقية . وذكره لهذين الاسمين على هذه الصورة يدل على أن الاسمين القديمين « لوبيا » و « مرمريقا » ، قد بقيا فى اللغة العربية ، لم يكد يعتريهما تغيير .
وقال المقريزى فى موضع آخر إن أقليم « بنطابوليس » يبدأ بعد مدينتى لوبية ومراقيه وكان باقليم لوبيه ٢٤ مدينة ماعدا القرى الصغيرة .
ووصف المقريزى مراقيه بقوله :

« مدينة مراقيه كورة من كور مصر ، وهى آخر حدأراضى مصر . وفى آخر أرض مراقيه تلقى أرض انطابلس (بنطابوليس) وهى برقة ، وبعدها عن مدينة « سنتريه » نحو من بريدين (٢٤ ميلا) ، وكانت قطرا كبيرا به نخل كثير ومزارع ، وبه عيون جارية وبها إلى اليوم بساتين متعددة ، وأقل ماتنبت تسعون سنبلة . وكذلك الأرز بها ، فانه جيد زاكٍ . وبها إلى اليوم بساتين متعددة . فلما كان شوال سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) جلا أهل لوبية ومراقيه إلى الاسكندرية خوفا من حاكم برقه ولم تزل فى اختلال إلى أن تلاشت فى زمننا ، وبها بعد ذلك بقية جيدة ، وهذه البقية كانت موجودة إلى عام ١٤٠٠ م أى منذ ٥٠٠ سنة فقط .

ثم ذكر « بتلر » أن منطقة مريوط كانت عامرة بأزكى الزراعات ، وما زال تحت رملها غرين يؤيد خصبها القديم .

٢ — كان فرع النيل البلوزى ، فى العهد الفرعونى يصل إلى سينا (شرق قنال السويس) ويكون دلتاه ومصبه فى هذه المنطقة .

وقد درس المهندس على بك شافعى هذه المنطقة ، واستغل هذه الحقيقة التاريخية وخرج منها بمشروع هام يستطيع أن ينقل به ماء النيل تحت القنال ليعاد زرع المناطق الخصبة من سينا مرة أخرى ، كما تستصلح فى الطريق مساحات هامة من الأرض البور فى المنزلة وحولها تزرع أيضاً .

٣ — ومن المحقق أن المنخفضات الكثيرة فى الصحراء الغربية ، والتى تقع فى بطنها الواحات صالحة للزراعة . ومن الممكن بعد تقدم علم الميكانيكا والكهرباء هذا التقدم الهائل ، أن ترفع المياه من مجرى النهر ، وأن تسير فى فروع جديدة للنيل تخترق

وسط الصحراء الليبية مارة بهذه المنخفضات حتى تصل إلى المنخفض الأعظم فى الشمال وهو منخفض القطارة.[1]

وقد ذكر أن الألمانيين كانوا قد أعدوا مشروعاً ضخما يقضى بحفر نيل صناعى تجمع مياهه من خط تقسيم المياه بين النيل والكونجو، ويمتص الضائع فى مناطق السدود وبحيرة شاد، ويروى صحراء ليبيا، ويحولها الى مزارع عظيمة من القمح. وإذا لم يكن للألمان الحق فى تنفيذ هذه المشروعات ـ وهو ليس لهم قطعا ـ فهل ندعى نحن أبناء النيل أن لنا الحق فى أن ننقل الماء الضائع فى خط الاستواء، والماء المصبوب فى البحر المتوسط إلى صحارينا لكى تتحول إلى جنات يانعة ؟!

٤ — لقد أصبحنا الآن فى عالم الذرة، وفى عالم القوى الهائلة التى ينتجها شق الذرة. فهل يعيش مهندسونا قليلا ـ ولو فى الخيال الذى أصبح حقيقة الغرب ـ ليصوروا لنا برنامجا قويا جريئا يحصى ماء خط الاستواء، وماء الحبشة مترا مترا، وكدت أقول قطرة قطرة، ثم يرسمون برنامجا للمستقبل، يختلف عن البرنامج الهزيل الذى رسمه لنا السر مردوخ مكدونالد من ربع قرن ؟!

— ٢ —

المشاريع الكبرى

مشاريع الرى الكبرى هى :

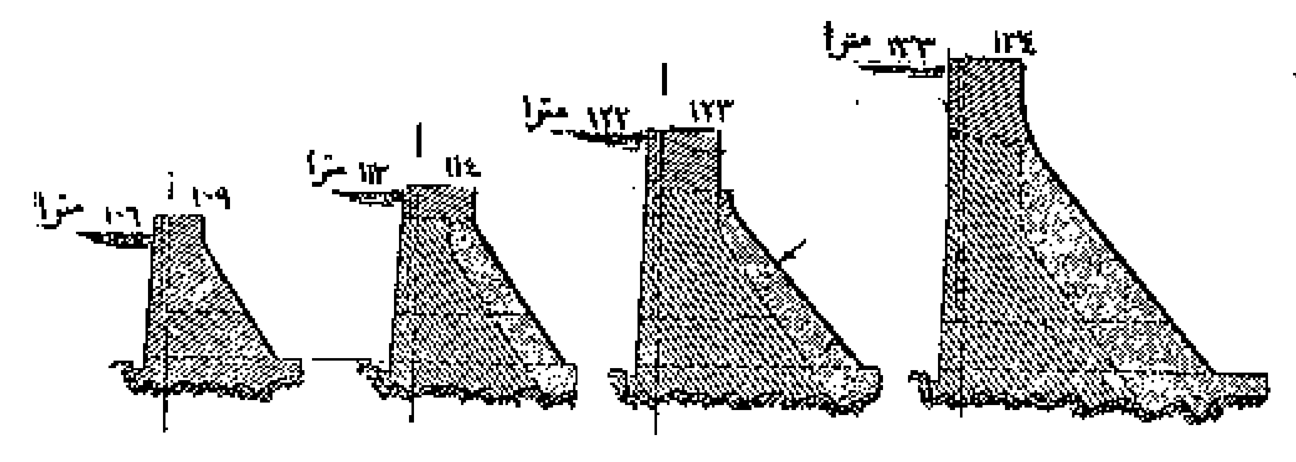
■ تعلية خزان اسوان تعلية ثالثة. وقد أعد هذا المشروع عام ١٩٣٢، ولكنه ظل راقدا فى ملفات وزارة الاشغال حتى تصادف وجود السر مردوخ مكدونالد عرضا فى مصر فطلب منه أن يدرس الوسائل لتنفيذ هذه التعلية. ولاتزال هذه التعلية مضطربة بين الاقرار والالغاء.

والمشروع فى ذاته خطير، اذ يضاعف كمية المخزون وراء اسوان من ٥ مليار متر مكعب الى ١٠ المليارات او نحوها. وقد وضع المشروع على أساس درء خطر الفياضانات العاليه عن مصر على أن تتممه مشروع وادى الريان لتصريف الماء الزائد.

ولانعرف بالضبط مواسم الفياضانات العاليه والفياضانات المنخفضة. ولكن مصر تواجه الآن جملة فياضانات منخفضة قد تنتهى فى اى وقت. وبمراجعة ماحدث من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٣٧ يتبين

---

(١) ذكر المهندس لبيب نسيم فى مجلة العمارة تاريخ فرع قديم للنيل كان يخترق منتصف صحراء لوبيا تقريبا ماراً بمناطق الواحات وأكد إمكان احيائه من جديد



انه فى السنوات الثلاثين الأولى (حتى ١٨٩٨) حدث ١٩ فيضانا خطرا . وفى الثلاثين التالية حدث ٦ فيضانات خطرة . ومنذ سنة ١٩٣٧ حدث فيضانان من النوع الذى قد يدل على امكان ابتداء فترة الفيضان العالى .

ولاتقتصر فائدة التعلية الثالثة على درء هذا الخطر ، ولكنها أيضا توفر كمية عظيمة من الماء ، بأن تضاعف فائدة الخزان فى وضعه الحالى .

■ انشاء خزان « مروا » بالقرب من الشلال الرابع ، ولايزال هذا المشروع قيدالدراسة وستظهر نتائجه فى الشتاء القادم (١٩٤٥) وذلك لأن وزارة الاشغال ذكرت ان مهندس رى السودان سيقدم تقريره عنه « بعد عودته من اجازته » !

■ انشاء خزان « طانا » فى قمة الجبال الحبشية وتقدر كمية المياه التى يدخرها هذا الخزان لمصر بـ ٢٣٠٠ مليون متر مكعب

■ يضيع فى منطقة السدود كل عام نصف الماء الذى يمر بحر الجبل وقد اقترح السير جارستون فى تقريره عن اعالى النيل أن تشق قناة من بلدة بور الى بحيرة نو ، وبهذا يمكن تفادى منطقة السدود .

وقد وضع هذا المشروع فى اوائل هذا القرن . ولكن حدث فى سنة ١٩١٧ ان مياه بحرالجبل فاضت واتبعت مجرى اسمه « فيفنو » حتى وصلت الى النيل الأبيض عن طريق نهر بيبور والسوباط وربما كان اتخاذ هذا الطريق اوفر من القناة المستقيمة . ومازال وزارة الأشغال تقلب النظر بين المشروعين ، ونرجو الا يطول تحديقها فيهما

■ خزان بحيرة البرت :

اذا اقيم سد عند بلدة « بنيامور » على مدخل البحيرة ، يرفع منسوبها من ستة الى سبعة أمتار فانها تخزن زيادة على مائها خمسة مليارات ونصف مليار من الأمتار المكعبة .

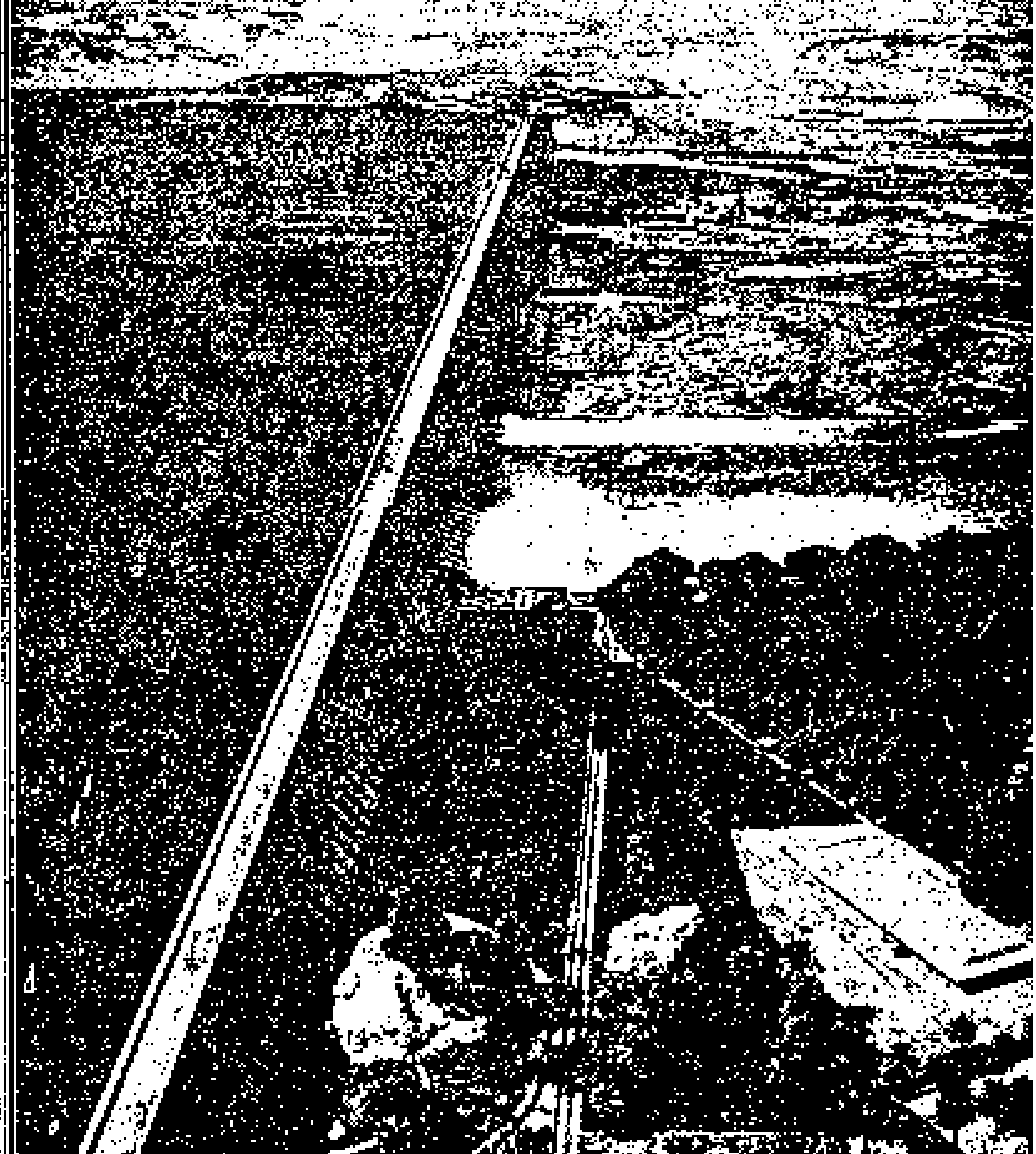
■ خزان فكتوريا نيانزا

أعظم خزانات المياه فى العالم . ومن الواجب أن تدرس الاستفادة من ماء البحيرة على نطاق كبير . وضبط تصرف البحيرة ينتج نتائج هائلة جدا . اذ أن كل سنتيمتر ونصف يزيد على المنسوب أو يخفض منه يتيح لنا مليارا من الامتار المكعبة . أى اننا نستطيع أن نحصل على كل ما نريد من ماء لرى الصحارى ورى السودان كله باقامة سد وحفر مصب البحيرة فى النيل .

■ والى جانب هذه المشروعات يوجد أيضا مشروع عظيم وهو تحسين مجرى نهر السوباط لكى نحصل على كل مائه .

هذه المشروعات التى تسيطر على ماء النيل يجب أن تكون عقيدتنا الوطنية الجديدة ، ويجب أن يتلقنها الصبي بمجرد أن ينمو ادراكه ، ويجب أن يرمقها كل مواطن يعيش فى حوض النيل كما يرمق أعز مايعيش عليه ويطمح إليه فى الحياة . .

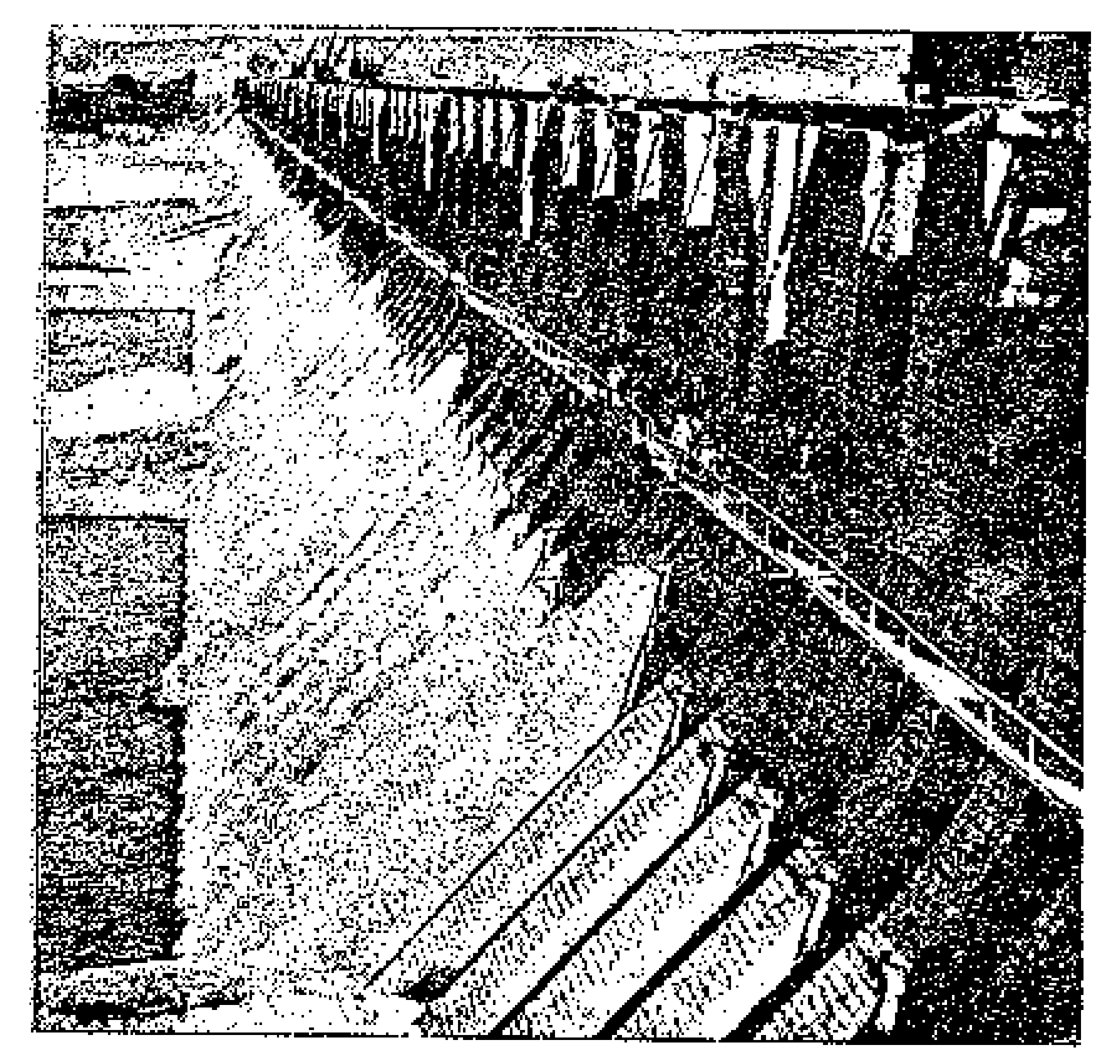
ومن الواجب : واجب الأبوين فى البيت ، وواجب المدرس فى المدرسة الابتدائية ، والمدرسة الثانوية والمتوسطة ، والجامعة بكلياتها ، وواجب الصحف ، وواجب الكتاب ، وواجب الشعراء ، وواجب الموسيقيين ، وواجب الاذاعة ، وواجب كل متصل باعداد الرأى العام . . حتى وزارة الأشغال . . واجب هؤلاء جميعا الا يتركوا اذهننا ، والايهملوا وسيلة من وسائل الشرح والايضاح ، الا استعملوها لعلم الجميع نيلهم ، وليحصوا ماءه ، وليقدروا الوسائل للاستفادة منه ، وليحصوا الأيام لتتم لهم الفائدة كاملة غير منقوصة .



صورة جبلة الخزان اسوان كما يرى من طائرة

■ وقد سمعت من وزارة الاشغال ومن غيرها أن بعض الهيئات الاستعمارية تتذرع بوجود سلطات مؤقتة لها فى منطقة البحيرات لكى توجب استشارتها فى عمل مشاريع النيل ، وتؤدى الاستشارة دائما إلى وجود عراقيل ، ووجود متاعب . وما أسهل أن يتوقف كل اصلاح يكلف المسؤولين فى مصر بعض المتاعب . . فمثلا تعارض أوغنده فى أن نحصل على نصيب أكبر من ماء بحيرة فكتوريا لا لأنها فى حاجة إلى الماء ، ولكن لان لها بعض قرى تسمى موانى على الشاطىء اذا انخفض منسوب البحيرة لا تصبح موانى !! . . وتنادى بعض الصحف الاستعمارية بضرورة استشارة تنجانيقا وأوغنده والكونجو قبل أن تحقق مصر مشاريعها الكبرى فى منطقة البحيرات !!

على كل حال يجب أن تطرح هذه المشكلة على بساط البحث ، ويجب أن يكون وراءها الرأى العام المصرى والرأى العام السودانى ، ليدعم جهود المختصين فى الظفر بحرية العمل فى منطقة المنابع حتى تتاح الفرصة لتحقيق سيطرة أبناء النيل التامة ، على كل أرض يجرى فيها ماء النيل . . . وليس على الله ببعيد أن يتم هذا ، فقد كان تاما ناجزا قبل خمسين من السنين !!



العلية الثانية لخزان أسوان وكيف تمت

● ولا تقتصر جهود مصر لاستئناس النيل على السيطرة التامة على مائه ، والماء الاستوائى كله الداخل فى حوض النيل ولكن هناك مشروعان آخران على أعظم جانب من الاهمية ، وهما أولا — استخدام كهرباء المساقط من الخزانات ومن الشلالات : والشلالات فى مخارج النيل كثيرة ، وفى الإمكان أن تولد قوى كهربائية عظيمة لا تقل عن قوى شلالات نياجرا ولا سيما أنها تمتد الى مسافات بعيدة من مخارج البحيرات الجنوبية ...

كما أن الخزانات الصناعية كلها قابلة لان تتولد منها الكهرباء ، ولو أن خزان اسوان هو وحده الذى يفوز الان بأعظم حديث عن استخراج كهربائه .

ثانيا — تمهيد النيل للملاحة النهرية ، فى مناطق الشلالات التى لا تقام عليها خزانات إذ توجد فى مجرى النهر أميال كثيرة من الصخور يجب الاستعانة بالمفرقعات الحديثة مثل الجلينيت وغيره لازالتها تماما ونظن بعد اكتشاف أعظم قوة تدميرية وهى المفرقعات الذرية ، لايوجد عذر لابقاء هذه العوائق الطبيعية فى مجرى النهر ، حتى يتيسر للملاحة ، وحتى تنقل الحاصلات على سطحه السهل الوديع بأقل نفقة . كما أنه سيكون متعة للسفر والنزهة مابعدها متعة .

ويقتضينا هذا التفكير الاشارة إلى ما سبق أن رددناه ، وهو ضرورة العناية باسطول مصر النهرى المسلح والتجارى — فان اهمال هذه الوسيلة من وسائل الدفاع والنقل ، من أشد ضروب التقصير باعثا للحسرة والندم .

●●●

وأخيرا نرجو أن نكون قد عرفنا أبناء النيل بالنيل ، أو بالقليل حببنا إلى أبناء النيل أن يعنوا بالنظر فى صفحات حياة نهرهم العظيم ، فهذا حقه عليهم ، ولقد أدينا فى هذا الباب بعض الواجب ، ونرجو أن يتابع غيرنا السير فى نفس الطريق ... والله المستعان .

النيل فى سطور

■ طول نهر النيل من منـابعه عند بحيرة تنجانيقا للبحر الأبيض المتوسط يبلغ حوالى ٦٥٠٠ ك . م (نحو ٤٠٠٠ ميل) .

■ يغطى نهر النيل مساحة مقدارها ٢٫٩٠٠٫٠٠٠ ك. م مربع ، وهذه المساحة تعادل ثلاثة أعشار مساحة أوربا . ويبدأ مسيره من خط العرض ٤° جنوب خط الاستواء وينتهى فى الشمال عند درجة ٣١

■ يجرى النيل فى مناطق من الأرض تحمل الأسماء السياسية الآتية :

١ـ تنجانيقا ٢ـ كينيا ٣ـ الكونجو البلجيكية ٤ـ الحبشة ٥ـ يوجندا ٦ـ السودان ٧ـ مصر

■ يحمل نهر النيل ٢٠٫٠٪ من كمية مياه الأمطار التى تسقط فى منـابعه ، والباقى يضيع بالبخر وبالتسرب فى باطن الأرض عن طريق الامتصاص .

■ تستمر أمطار خط الاستواء فى تدفقها من السماء نحو ٦٠ يوما من أواخر فبراير إلى أوائل مايو ، و ٦٠ يوما أخرى من أكتوبر (بين أوله ونصفه) إلى ديسمبر (بين أوله ونصفه) .

■ بحيرة فكتوريا أكبر بحيرة عذبة فى الدنيـا القديمة وطولها من الشمال إلى الجنوب ٣١٥ ك. م ومساحتها ٢٦٫٠٠٠ ك. م وتحيط بها مناطق لها اسماء سياسية هى يوجندا ، وكينيا ، وتنجانيقا ، وعمقها يتراوح بين ٤٠ مترا و ٧٠ مترا .

■ يصب فى بحيرة فكتوريا ١٥ نهرا أهمها كاجيرا وطوله ٨٢٥ ك. م عند البحيرة بماء تصرفه من ١٤٠ إلى ٦٠٠ متر مكعب فى الثانية .

■ النقطة التى يخرج منها ماء البحيرة إلى النيل مساقط صخرية اسمها « ريبون » ، وعندها يبـدأ نيل فيكتوريا .

وتعترض النهر أول ميلاده من البحيرة عوائق كثيرة هى :

١ ـ مساقط أوين الصخرية التى تمتد حتى بلدة ناماسجالى ٢ ـ ثم يمر فى بحيرتى كيوجا وكوانيا

٣ ـ ثم يمر ببور مسندى وانوروه ٤ ـ ثم يصطدم بمنحدرات فويرا

٥ ـ ثم يصل إلى مساقط مرشيسون العظيمة ، ويظل يتدفع بينها صاعدا هابطا فى ارتفاعات تتراوح بين مترين و ٢٥ مترا .

٦ ـ ثم ما يلبث النهر حتى يسير هادئا وديعا فى مجرى صالح للملاحة بالقوارب حتى يصل إلى بحيرة البرت .

■ كشفت هذه البحيرة سنة ١٨٦٤ وهى التى يراد اتخاذها خزانا للماء . ومساحتها ٥٣٠٠ ك. م وطولها ١٧٥ ك.م وعرضها ٤٥ ك.م وعمقها بين ١٨ و ٣١ مترا وأكبر الأنهار التى تتصل بهـا هو نهر سمليكى .

■ ونهر سمليكى هذا يحمل ماءه من بحيرة ادوارد المرتفعة ومساحتها ٢٢٠٠ ك. م

■ ويخرج بحر الجبل من بحيرة البرت ، ويسير نحو ٢١٨ مترا حتى يصل إلى بلدة نمولى وبالقرب من هذه البلدة تقع الحدود السياسية بين منطقتى يوجندا والسودان .

ومن نمولى تتعـذر الملاحة فى مجرى النهر لكثرة المساقط والمنحدرات حتى يصل إلى الرجاف ومن الرجاف يسير حتى منجلا ، ثم بور .

■ ومن بور إلى شمبى توجد أعظم مناطق السدود المكونة من البردى والحشائش المائيـة التى تعوق سير الماء ويرتفع ويطغى على الجسور الرملية ويتسرب إلى المستنقعات الغربية الهائلة .

■ ومجموع طول بحر الجبل من بحيرة البرت إلى السوباط ١٢٨٧ ك. م

■ ويتفرع من بحر الجبل شمال شمبي إلى الشرق بحر الزراف ، ويسير ٨٠ ك . م حتى يلتقي ببحر الجبل عند بحيرة نو .

■ عند بحيرة نو أيضا يتصل ببحر الجبل فرع هام هو بحر الغزال . وتعوق سيره الحشائش ولم يدرس حوضه دراسة وافية بعد مع أهميته الكبيرة .

■ ويواجه بحر الغزال من الشرق فرع هام جدا هو السوباط . ويعد النيل الأبيض مدة فيضانه بألف متر مكعب في الثانية وقد تصل إلى ١٥٠٠ متر . ولنهر السوباط فرعان هما بارو ، وبيبور .

■ وعند ملتقى السوباط بالنيل يبدأ النيل الأبيض متجها نحو الشمال حتى يصل إلى الخرطوم قاطعا في مسيره ٨٤٨ ك . م وهو قليل الأغوار متسع المجرى حتى يشبه البحيرة ويتراوح عرضه بين ٣٠٠ و ٥٠٠ مترا . ويزيد بعد منتصفه إلى ٨٥٠ مترا .

■ وتقع بلدة الملاكال على بعد ٣٣ مترا من ابتدائه وعندها محطة وزارة الأشغال ويبلغ تصريف الصيف بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ مترا مكعبا في الثانية .

■ ولكنه عندما يصل إلى الخرطوم يزيد تصرفه إلى ١٧٠٠ مترا مكعبا في حده الأعلى . وهذه ظاهرة غير منطقية عند النظرة الأولى إذ أن سير النهر مئات عديدة من الكيلومترات منذ مسيره ، وعدم وجود روافد تغذيه كان حريا أن يفقده الكثير من مائه في الطريق ، ولكن النيل الأزرق هو الذي يؤدي إلى هذه النتيجة إذ أن جريانه السريع وتدفقه في النيل يحجب وراءه ماء النيل الأبيض ، وبهذا يكاد النيل الأزرق يستقل بامداد النيل بالماء في شهري أغسطس وسبتمبر ، حتى اذا أخذت الامطار تقل وماء الازرق يقل ، بدأ النيل الابيض يغذي الشمال ابتداء من شهر أكتوبر .

■ ويبلغ أقصى تصرف النيل من ماء البحيرات الاستوائية ٢٧٥٠ مترا مكعبا في الثانية ، وذلك عند منجلا . وفي نفس السنة التي قدرت فيها هذه الكمية ، كان أقصى تصرف النيل عند الملاكال ١٩٤٠ مترا فكان منطقة السدود قد استهلكت الفرق بين الرقمين ، وهو فرق عظيم جدا .

■ ويبلغ متوسط ما يفقده النيل في منطقة السدود ٥٤ ٪ من الماء .

■ ومن حسن الحظ أن النيل الازرق لا يعاني صعوبة تسرب مائه ، وإلا كانت مصر تعاني كارثة محققة . وهو يخرج من بحيرة « طانا » ويستمد منها ١٠ ٪ من مائة وبعد هذا تصب فيه نهيرات كثيرة تكمل ماءه .

■ والنيل الازرق غضوب عنيف يجري بسرعة السيل المتدفق ، وكانت هذه الحدة سبب خير لمصر إذ حملت طين الجبال الحبشية على سطحه إلى التربة المصرية .

■ يبلغ طوله من طانه للرصيرص		٩٧٥ ك . م
« « من الرصيرص لسنار		٢٨٨ «
« « من سنار للخرطوم		٣٩٠ «
فيكون مجموع طوله		١٦٥٣ «

■ وعلى بعد ١٦ ك من بحيرة طانا يبدأ نهر عطبره مسيره ، وبعد جري شديد جدا مسافة ٨٨٠ ك . م يلتقي بالنيل عند عطبرة على مسافة ٣١٠ في شمال الخرطوم . وكمية الطمي التي يحملها أكثر من الكمية التي يحملها النيل الازرق .

■ ومن الخرطوم إلى أسوان يسير النيل ١٨٨٥ ك . م ويمر النيل خلال هذه المسافة بست شلالات

■ ومن أسوان إلى قناطر محمد علي شمال القاهرة يقطع النيل ٩٦٨ مترا . ومتوسط عرض النهر ٩٠٠ مترا

■ ومن قناطر محمد علي إلى البحر المتوسط ينقسم النيل إلى فرعي دمياط ورشيد ومتوسط طول مسافة كل منها ٢٣٦ ك . م

فهرست الموضوعات

فهرست الصور

طبع الكتاب بمطبعة الرغائب بمصر

دار الثقافة العامة

صندوق بريد رقم ٩١٠ — القاهرة
ت ٥٤٥٩٩ — ٤٤٩٤٦

سلسلة المذاهب والشعوب

١ — روسيا صدرت الطبعة الأولى
٢ — النيل « « «
٣ — الهند تحت الطبع
٤ — قناة السويس « «
٥ — الولايات المتحدة « «
٦ — العراق تحت الطبع
٧ — افريقيا الجنوبية « «
٨ — انجلترا « المملكة المتحدة » « «
٩ — ايران « «
١٠ — شبه جزيرة العرب « «

وثمن النسخة ٢٥٠ ماليا غير أجر البريد .

سلسلة قادة الإسلام

١ — القرآن ٢٠٠ مليم صدرت الطبعة الثانية
٢ — محمد أربعة أجزاء نفدت طبعاته وتعاد قريبا
٣ — عمر « « «
٤ — أبو بكر « « «
٥ — علي وعثمان جزءان « « «
٦ — معاوية « « «
٧ — خالد « « «
٨ — عمرو بن العاص « « «
٩ — طارق بن زياد نفد ويعاد
١٠ — عمر بن عبد العزيز « «
١١ — ابو مسلم الخراساني « «
١٢ — ابو جعفر المنصور « «
١٣ — هارون الرشيد « «
١٤ — المأمون « «
١٥ — صلاح الدين « «

سلسلة قادة الشرق والغرب

١ — تشرشل موجود
٢ — أتاتورك «
٣ — شانج كاي — شيك «
٤ — ستالين نفد
٥ — الميكادو «
٦ — فؤاد الاول موجود
٧ — فيصل الاول «
٨ — الشيخ محمد عبده نفد
٩ — ابن السعود «
١٠ — شاه ايران «



الغلاف من تصميم الفنان
الأستاذ عبد السلام الشريف

●●●

■ « حابى » إله النيل ، عند قدماء المصريين ، وهو الذى يجرى النهر العظيم بأمره ، وتراه هنا وقد تربع على عرشه وتوج رأسه بأزهار البردى المفتوحة ، وأطال ثديه ، وضخم بطنه دلالة على الخصوبة والنماء ، وأمسك بيديه رمزى الحياة والاستقرار يقدمهما هبة لشعب النيل

■ وعلى مر العصور قامت على ضفاف النيل حضارات الفراعنة ، والمسيحية ، والاسلام بأديانها وفلسفاتها المختلفة.

■ وارتفعت على جنباته منذ الأزل منارات العلم والصناعة والزراعة .

■ وهكذا كان النيل السعيد أعظم عامل فى توحيد الشعوب التى عاشت على ضفافه .

●●●

دار الثقافة العامة

سلسلة المذاهب والشعوب

ص ب ٩١٥ : القاهرة : ت ٥٤٥٩٩

مطبعة الرغائب